A.U.B. LIBRARY

N. MAKHOUL
BINDERY
11 FEB 1974
Tel. 260458

089.927
D213mA
1957
C.1

منشورات دار الكتب الوطنية بجلب

٥

المحاضرات العامة

لعام

١٩٥٧

المقدمة

هـذه هي المجموعة الخامسة لمحاضرات دار الكتب الوطنية، التي أُلقيت في قاعتها، خـلال موسمها الثقافي لعام ١٩٥٧، نقدّمها لروّاد المحاضرات، ولابناء العروبة في البلاد العربية، وهي نتيجة لجهود متواصلة، بذلتها إدارة الدار في سبيل فكرة أصيلة، ومبدإٍ درجت عليه، منذ أن خطت خطوتها الاولى في وضع الأسس والدعائم لموسمٍ ثقافي دوري دائم، تدعو اليـه الادباء والكتّاب والشعراء من جميع الاقطار العربية والغربية، تقدّم فيـه كثيراً من ألوان العلوم والمعرفة والآداب والقانون والطب والفنون.. وغايتها ثقافية محضة، وعلمية خالصة، وهي تنوير افكار الجيل، وتنمية الملكات فيهم، وإرشادهم الى اصول البحث الموضوعية، وطريقة المناقشة، كما كانت عليه الحال في كثير من الاوقات، في قاعة المحاضرات العامة، وعقيب المحاضرات، فكم من مناقشة جرت بين الجمهور المستمع وبين المحاضر، وكم من افكار وآراء ذكرت ونوقشت، ضمن اطار علمي، وجوّ ادبي فني.

وكم شهدت مدينةُ حلب من تظاهرةٍ علمية وأدبية في امسيات الجُمَع من كلّ اسبوع ، كان المحاضر فيها مناراً يُقتبس منه ، ومرجعاً في البحث والدرس والنقاش ، مثل ابي زهرة ، والخولي ، وبنت الشاطىء ، ومندور ، ونعيمة .. وغيرهم من كبار رجالات العلم والأدب .

وإننا إذ نقدّم اليكم هذه المجموعة ، نزفّ اليكم البشرى باعادة هذه الامسيات ، وعن طريق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، التي نعمل معها في هذا المجال ، وهي لا تألو جهداً في إحياء هذه المواسم ، ولا سيما في مثل مدينة حلب السباقة التوّاقة الذواقة ، والتي تطلب المزيد من المحاضرات العامة والندوات الثقافية .

والله وليّ التوفيق .

الادارة

المحاضرة الاولى

المسرح الحديث

الدكتور محمد مندور

استاذ الأدب العربي في معهد الدراسات العربية العالية
بجامعة الدول العربية

= القيت بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٥٧ =

تمهيد عن نشأة المسرح

من المعلوم أن المسرح نشأ في خدمة الدين وطقوسه ؛ فقد ولد عند اليونان القدماء رواد هذا الفن في كنف عبادة الاله « ديونيزوس » المسمى أيضاً « باكوس » إله الخمر والكرم ، وكان يحكي في بدئه بعض التطورات في حياة هذا الاله من ذبول وجفاف على نحو مايذبل الكرم ويجف ، ثم نضرة وانبعاث .

وكانت هذه المسرحيات البدائية تمثل أولاً بالريف في موسم جني العنب وعصره ، ثم انتقل المسرح من الريف الى الحضر ، حيث تطور وألف فيه كبار الشعراء المسرحيات التي كانت تعقد لها مسابقات سنوية تدوم ثلاثة أيام يخصص كل يوم منها لشاعر ، يعرض فيه ما كانوا يسمونه « رباعية » مؤلفة من ثلاث مآس أي تراجيديات ، ثم مسرحية رابعة هزلية تسمى « ستاير » ويستفتى الشعب في هذه المسابقة ، ويمنح الفائز غصن الزيتون ، وينقش اسمه على لوحة الخالدين .

وكانت كل رباعية تعرض اسطورة كاملة مقسمة الى حلقات ، ولم يكن دخول المسارح مجانياً فحسب ، بل كانت الدولة تمنح مكافأة لكل مواطن كتعويض جزئي عما يضيع عليه من كسب بسبب انقطاعه عن العمل لمشاهدة المسرح الذي يدوم اليوم كله ، ويستمر ثلاثة أيام ، وكانت هذه المكافآت تسمى « بدل مسرح » .

وشيئاً فشيئاً أخذ المسرح ينفصل عن الدين ليصبح فناً مدنياً يعالج مشكلات الحياة والمجتمع ، وكان هـذا التحلل من الدين أسرع في فن الكوميديا التي أصبحت نقداً للحياة والأخلاق وما فيها من عيوب .

وفي مصر القـديمة يلوح أيضاً أن فن المسرح قـد عرف فيها ، بل لعله سبق المسرح اليوناني الى الظهور ، ولدينا من النقوش مايعزز هـــذا الرأي ، وكان هذا المسرح في خدمة الدين أيضاً كوسيلة لعرض الاساطير الدينية ، مثل « ايزيس » و « أوزوريس » ولكنه لم ينشأ في الحقول كما نشأ عند اليونان ، بل نشأ داخل المعابد ، وظل فيما يبدو من أسرار الديانة التي يحتكرها الكهنة ؛ ولذلك يظهر أنه لم يخرج من المعابد ولم يصبح فناً مدنياً شعبياً ، وكان هذا سبباً أساسياً في انقراضه وعدم تأصله في مصر على نحو ماتأصل في اليونان ، وانتقـــل منهم الى الحضارات الأوروبية الاخرى ، كحضارة الرومان التي ازدهر فيها فن الكوميديا بنوع خاص ، وان لم يخلفوا في تراثهم تراجيديات ذات قيمـــة أدبية وفنية تذكر ، وظلت تراجيديات الاغريق التراث الانساني الوحيد من هذا الفن في العصور القديمة .

وبسقوط رومة في القرن السادس الميلادي ، انتهت الحضارة القديمة وابتـدأت حضارة القرون الوسطى ذات الديانات السماوية ، واختـفى المسرح الاغريقي والروماني القديمان باختفاء الوثنية ، ومع ذلك لم تختف فكرة المسرح التي التقطتها المسيحية ؛ فنشأ مسرح ديني وأخلاقي واجتماعي في كنف المسيحية واتخذ من ساحات الكنائس أمكنة لعرض المسرحيات التي تحـــكي مأساة المسيح وصلبه وحياة القديسين وعبر الفضـائل وانتقاد المساوي الاخلاقيـة والاجتماعية ، وإن لم يصل هذا الفن إلى المستوى الأدبي ، والفن الذي وصل إليه عند اليونان خاصة ثم عند الرومان إلى حدٍ ما .

وفي القرن السادس عشر ظهرت بعد سقوط القسطنطينية ، وهجرة حفظة التراث اليـوناني الروماني إلى ايطاليا وفرنسا وغيرهما من بلاد أوروبا تلك الحركة العاتية المعروفة بحركة النهضة الحديثة او البعث العلمي ؛ فأعيـد

نشر التراث القديم وترجمته الى اللغات الأوروبية الحديثة بما في ذلك الادب التمثيلي ، وتخلت اوروبا عن حضارة القرون الوسطى وفنونها، وعادت تحاكي وتستلهم الفنون والثقافات اليونانية الرومانية القديمة بما في ذلك فن المسرح الذي أخذ يستمد موضوعاته وأصوله من التاريخ والاساطير القديمة مع استبدال حقائق النفس البشرية ودوافعها الانسانية بارادة الآلهة المتعددة ؛ فكان ذلك الادب الذي نسميه الآن بالادب الكلاسيكي المستوحى من القديم كما نسميه الادب الانساني ؛ لانه يعالج مشكلات الانسان في ذاته ، ويفسر سلوكه بحقائق النفس الانسانية في ذاتها ، بما فيها من غرائز ومشاعر وعواطف وانفعالات .

وازدهر المسرح في العصر الكلاسيكي الذي انبنى على النهضة الحديثة ازدهاراً كبيراً ، واطرد ازدهاره ، وتطورت اتجاهاته ، وتنوعت فنونه ، وتعددت أهدافه ، وإن يكن قد تعرض أحياناً لهجوم عنيف من بعض كبار الفلاسفة والمفكرين ؛ مثل « جان جاك روسو » البروتستانتي المتزمت الذي ثار ثورة عنيفة عندما علم ان مدينة جنيف التي كان يقيم بها في القرن الثامن عشر قد اعتزمت ان تبني مسرحاً ، فوجه خطابا الى اصحاب هذه الفكرة ، هاجم فيه المسرح هجوماً عنيفاً ، وأخذ يسفه الرأي القائل بأن المسرح دارُ ثقافة وتهذيب قائلاً :

ان المتفرج لايذهب الى المسرح بغية التثقف والتهذيب ، وما دام خالياً من هذه النية فلن يستفيد من المسرح ثقافة ولاتهذيباً ، وهو لا يذهب اليه إلا التماساً للتسلي والترويح الرخيص ، وهرباً من التفكير الجدي في مشكلات حياته او حياة مجتمعه . ثم أخذ يحلل بعض المسرحيات الكبيرة مثل مسرحية « كاره البشر » لموليير ؛ ليظهر كيف أن هذا المؤلف العملاق قد أخذ يسخر في هذه المسرحية من تزمت بطلها الاخلاقي ، « فألسست » بطل هذه المسرحية رجل متزمت ينفر بل يثور من نفاق المجتمع وفساده وكذبه ، ومع ذلك يجعل « موليير » منه سخرية للمشاهدين الذين يضحكون من تزمته ، وإذن فالمسرح لايهذب الاخلاق ، ولايدعمها ، بل يسخر منها ، ويجعلها أضحوكة للعالمين .

ومع ذلك وبالرغم من سطوة « روسو » الفكرية في عصره . فانه لم يستطع أن يحول دون بناء هذا المسرح ، وبناء غيره في بلاد أوروبا المختلفة واستمرار هذا الفن ، بل ازدهاره ، وفي القرن الذي هاجم فيه « روسو » فن المسرح استطاع اديب معاصر أن يقض مضاجع الملكية والارستقراطية الظالمة المستبدة في فرنسا بمسرحية كتبها ، هي مسرحية « زواج فيجارو » التي دفعت الملك الى ان يأمر بالقاء المؤلف في سجن البستيل ، وقد سخر « بومارشيه » في هذه المسرحية من حق قديم للنبلاء ، وهو الدخول بزوجات اتباعهم وقضاء ليلة الزفاف معهن ، فجعل الخادم « فيجارو » يتآمر هو وخطيبته الخادمة « سوزان » وزوجة الكونت الذي يريد أن يدخل بسوزان لكي تتنكر زوجة هذا الكونت في ملابس الخادمة ، وتذهب للقاء زوجها الذي يأخذ في مغازلتها ، ويستطيب جمالها ويفضله على جمال زوجته ، ثم ينكشف أمره ، ويسخر منه المشاهدون سخرية لاذعة ، استطاع الخادم « فيجارو » وخطيبته الخادمة « سوزان » ان يكوياه بنارها ، وهذا مثل يوضح الى اي حد استطاع المسرح ان يساهم في تطوير الحياة بل التمهيد القوي للثورة الفرنسية العاتية ، كما ساهم مساهمات مشابهة في غير فرنسا ، ولم تقتصر المساهمة على المجال السياسي ، بل امتدت الى مجالات الحياة الاخرى ، اجتماعية كانت أم أخلاقية . عن طريق الكشف والنقد والتوجيه .

تطور فنونه

كان الادب التمثيلي عند اليونان وفي عصر النهضة الاوروبية ينقسم الى فنين متميزين لايجوز ان يختلط أحدهما بالآخر ، ولاثالث لهما ، وهما : فن التراجيديا اي المأساة ، وفن الكوميديا اي الملهاة ، وكانت التراجيديا تستمد موضوعاتها من أساطير الآلهة وحياة الملوك والابطال والنبلاء ، على حين كانت الكوميديا تستمد موضوعاتها وشخصياتها من حياة عامة الشعب وأفراده ، وبالرغم من ان النوعين كانا يكتبان شعراً ، كانت لغة التراجيديا تمتاز بنبلها وصفائها على حين كانت لغة الكوميديا تأخذ احياناً من اللغة الدارجة ، بل من لغة

الدهماء ، وكان النوعان معاً لا يقتصران على الحوار التمثيلي ، بل يجمعان إليه فنوناً أخرى مثل الموسيقى والرقص وأغاني او أناشيد جوقة كانت تعتبر عنصراً أساسياً في المسرحية .

وفي عصر النهضة رأى أدباؤها أن يستقل فن التمثيل عن غيره من الفنون ، كالموسيقى والرقص والغناء ، ومن ثم عن الجوقة ، وهكذا نشأت المسرحية المكتفية بذاتها المكونة عند الكلاسيكيين من خمسة فصول اي من اجزاء الحوار القديمة بعد حذف أغاني الجوقة من التي كانت تتخلل تلك الاجزاء ، وفي الوقت نفسه ظهر فن مسرحي آخر ، ولكنه لا يعتبر فناً أدبياً بل فناً موسيقياً ، لان الموسيقى والغناء هما مقوماته الاساسية ، وهذا الفن هو فن الاوبرا ثم فن الاوبريت التي تجمع بين الحوار التمثيلي والمقطوعات الغنائية الموسيقية ، وكان ظهور هذا الفن في فلورنسا بايطاليا اول الامر ، ومنها انتقل الى بلاد أوروبا ومدنها كافة ، وإن يكن الادب التمثيلي قد ظل في عصر النهضة وفي المذهب الكلاسيكي يكتب كله شعراً ، ولايجوز ان يكتب نثراً .

ولما كان الأدب كغيره من الفنون يعتبر مرآة للحياة فقد كان من الطبيعي ان يتطور الادب التمثيلي مع تطور الحياة عبر القرون ؛ ولذلك نرى القرن الثامن عشر ، وهو قرن التفكير والنقد الفلسفي للحياة وألوان نشاطها فينتقد الادب التمثيلي ويستنكر تقسيمه الى فنين لا ثالث لهما ، فن خاص بالنبلاء وهو التراجيديا ، وفن خاص بعامة الشعب وهو الكوميديا ، ويطالب بضرورة خلق نوع جديد من المسرحيات يعرض مشكلات وحياة الطبقة الجديدة الناهضة التي كانت تتحفز للثورة وهي الطبقة الوسطى المعروفة بالبورجوازية اي طبقة سكان المدن التي تكونت بنوع خاص من التجار والصناع والموظفين ورجال الفكر والفن في المدن بعد ان ظل الريف الواسع ينقسم الى سادة إقطاعيين هم النبلاء ، وعبيد او أشباه عبيد ملحقين بالارض ، وهم العمال الزراعيون ؛ فنادى مفكرو هذا القرن وبخاصة الفيلسوف الناقد « ديدرو » في فرنسا ، بنوع جديد من المسرحيات سماه « الدراما البورجوازية » .

ولم يكتف بالمطالبة بأن تستمد هذه الدراما موضوعاتها وشخصياتها من حياة الطبقة الوسطى وافرادها فحسب ، بل طالب ايضاً بأن تعالج هـذه المسرحيات المشكلات التي تهم هذه الطبقة بنوع خاص ، وهي المشكلات النابعة من الاوضاع الاجتماعية ومن علاقات الافراد بعضهم ببعض ، ومن مستلزمات المهن المختلفة التي يزاولها كل فرد في المجتمع ، وذلك بدل ان يستمر المسرح في معالجة ما تسميه الكلاسيكية بالمشكلات الانسانية العامة الخالصة اي المشكلات النابعة من طبيعة الانسان في ذاته .

ولم يكتف « ديدرو » بهذا النقد وتلك الدعوة بل ألف هو نفسه مسرحية من النوع الذي يدعو اليه ، وهي مسرحية « الابن الطبيعي » التي تعالج مشكلة لاتنبع عن طبيعة بطلها كانسان ، بل عن وضع هذا البطل الاجتماعي وكونه ابناً طبيعياً أي غير شرعي .

ولم يكتف ايضاً بنقد هؤلاء الفلاسفة للأدب التمثيلي بالمطالبة بالدراما البورجوازية بل اعترض ايضاً على تقسيم فن المسرح الى مأساة حالكة فاجعة ، وملهاة ضاحكة صاخبة ، وقال انه إذا كان المسرح يعتبر مرآة او مجهراً للحياة فانه لايجوز ان يقتصر على الامور الشاذة في الحياة ، كالفواجع والمهازل ، ومن واجبه ان يعنى بالغالب المطرد من شئون هذه الحياة ، وهذا الغالب المطرد ، ليس الفاجعة ولا المهزلة ، فهذه حالات شاذة ، وأحداث عارضة ، واما الحياة في نسيجها العام فهي ليست سوداء محزنة ولا بيضاء مضحكة ، وانما هي شيء رمادي لا الى هذا ولا الى ذاك .

واذا اردنا ان يكون المسرح محاكاة صادقة او مرآة أمينة للحياة فمن الواجب ان يعرض هذا اللون الغالب على الحياة ، والذي يتكون منه نسيجها العام ؛ ولذلك نادوا بلون جديد من المسرحيات سموه بالدراما الدامعة وهي مسرحية قد تغرورق منها العيون ولكنها لا تنهمر ، كما انها قد تدعو إلى الابتسام ، ولكنها لا تشق الاشداق .

وهذا النوع قد يكون سليماً في اساسه الفلسفي ، ولكنه لسوء

الحظ لم يستطع النجاح من الناحية الفنية ، ومن ناحية الجماهير ، وذلك لان الناس يلتمسون في المسرح عادة اما الانفعال القوي ، او الضحك الصراح ، اما التأثر الخفيف او مجرد التأمل والأسى او الابتسام فكثيراً ما يصيبهم بالسأم .

واذا كانت الكلاسيكية قد حرصت ، مجاراة للقدماء ، على ان تفصل بين التراجيديا والكوميديا ، وألا تجمع في مسرحية واحدة مشاهد فاجعة ، وأخرى ضاحكة ، فان هذا المبدأ لم يلبث ان تعرض هو الآخر لهجوم عنيف من الرومانسيين الذين استندوا الى شكسبير لكي يثوروا على هذا المذهب الكلاسيكي ، وقالوا انه مادامت الحياة كثيراً ماتجمع في صعيد واحد وفي وقت واحد بين المآسي والمهازل ، فانه لا معنى لأن يتمسك الكلاسيكيون بضرورة فصل هذين النوعين من المشاهد على المسرح الذي هو في جوهره محاكاة للحياة او مرآة لها ، او على الاكثر مجهر يرينا دقائقها مكبرة واضحة المعالم .

ولم يقف التطور عند هذا الحد ، فبعد الثورة الفرنسية التي مكنت للطبقة البورجوازية لم تلبث ان ظهرت مع المذاهب الاشتراكية طبقة اخرى اخذت تتكتل وتسيطر شيئاً فشيئاً على مصير الحياة والوان نشاطها ، وتلك هي الطبقة المسماة بالبلوريتاريا اي طبقة العمال التي تمثل الشعب .

وبتأثير هذه الطبقة ظهر ما يسمى الآن بالدراما الحديثة ، وهي مسرحية جدية كما كانت التراجيديا القديمة ، ولكنها لم تعد تستمد موضوعاتها وشخصياتها من حياة الملوك والامراء والنبلاء وشخصياتهم ، بل تستمد موضوعاتها وشخصياتها من حياة عامة الشعب وافراده بعد ان كان هذا الشعب لاتعرض حياته واشخاصه الا في الكوميديا .

كما اخذت الدراما الحديثة بالتطور الذي احدثته الرومانسية وتأصل في الأدب التمثيلي الحديث وهو جواز الجمع في المسرحية الواحدة بين مشاهد المأساة ومشاهد الملهاة بشرط ألا يخل اجتماعها ببناء المسرحية وبوحدة الأثر العام الذي تريد ان تحدثه في المشاهدين .

ولم يقتصر التطور في وسائل التعبير على المسرح عنـــد الاستقلال بفن التمثيل عن غيره من الفنون كالموسيقى والرقص والغناء، بل ان فن التعبير اللفظي نفسه، اذا كان قد ظل في عصر الكلاسيكية مقصوراً على الشعر، فان المذاهب التي تلت الكلاسيكية مثل الرومانسية وغيرها لم تر التقيد بهذه الصورة من التعبير وهي الشعر، بل اخذت تكتب المسرحيات نثراً، لانه اكثرُ مرونة وطواعية في الجواز، كما انه اكثرُ طبيعية ومشاكلة للحياة، وشيئاً فشيئاً أخذ النثر يطغى على الشعر في الادب التمثيلي حتى كاد يستأثر به في عصرنا الحاضر، بل رأينا عدداً من الادباء في كل بـلاد العالم يجنحون الى استخدام اللغة الدارجة بدل اللغه الفصحى المنتقـــاة كاداة للحوار في المسرح، بل في بعض اجزاء القصة احياناً، وان يكن الامر عندنا بسبب الجهل والتخلف الناتجين عن الاستعمار قد تجاوز ازدواج اللغة في فصيحة ودارجة الى ازدواجها في فصيحة وعامية بل عدة لهجات عامية في اقطارنا العربية التي نجح الاستعمار في تمزيقها وفصم عرى وحدتها .

المسرح العربي الحديث

تلك كانت حال المسرح والأدب التمثيلي في العالم الاوروبي في القرن التاسع عشر، عندما اخذت علاقاتنا بذلك العالم تتوثق واخذنا ننقل عنه بعض فنونه وبخاصة فن المسرح الذي يلوح ان اول محاولة له في العالم العربي قـد ظهرت ببيروت سنة ١٨٤٨ بفضل التاجر الجوال « مارون نقاش » ثم انتشر في المشرق العربي بمدن لبنان وسوريا الى ان انتقل الى مصر حيث تأقـلم وازدهر بفضل اتساع الامكانيات وكثرة عدد الجمهور .

هذا وفي اعتقادي ان فن المسرح قد اخذناه كله نحن العرب عن اوروبا، ولست ارى جدوى في المماحكات التي يقوم بها بعض باحثينا عندما يروحون يلتمسون بذوراً لهذا الفن انحدرت الينا من العرب القدماء، او من الفراعنة في صور أدبية او شعبية (باهتة) .

فالعرب القدماء من المؤكد انهم لم يعرفوا فن المسرح ، ولا حاولوه ، وان اساطيرهم الوثنية او غير الوثنية لم تتخذ قط صورة المسرح او الأدب التمثيلي ، كما انهم لم ينقلوا هذا الفن عن اليونان في عصر الترجمة ، كما نقلوا فلسفتهم مثلاً ، وذلك لان المسرح اليوناني كان وثيق الصلة بديانتهم الوثنية ، وكان أبعد مايكون عن الحياة الروحية للمسلمين ،وإذا كان متّى بن يونس قد نقل عن أرسطو كتاب « الشعر » الذي يتحدث فيه الفيلسوف اليوناني عن فنون الشعر المختلفة بما في ذلك فن التراجيديا وفن الكوميديا ، فان متّى لم يستطع فهم ماترجم ، ومن ثم لم يستطع نقله على نحو يمكن فهمه ، ولا أدل على ذلك من ان تراه يترجم كلمة « تراجيديا » بكلمة فن المديح ، وفن الكوميديا بفن الهجاء ، وذلك نتيجة لتفسير خاطئ وفهم مضلل لتعريف أرسطو لفن التراجيديا بأنه فن جاد يعرض حياة الآلهة والملوك والابطال ، والكوميديا بأنها فن ضاحك يسخر من العيوب والمثالب .

وفضلاً عن كل ذلك لم يكن لمتّى بن يونس ولا غيره من المترجمين علم بصورة هذين الفنين ، ولا نماذج لهما .

وقد ضلت هذه الترجمة الخاطئة كبار الفلاسفة العرب انفسهم على نحو ما نشاهد في تعليقاتهم على كتاب « الشعر » وهي التعليقات التي أعاد نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي مع ترجمة متّى بن يونس ، وترجمة جديدة لكتاب « الشعر » في كتاب ظهر في السنوات الاخيرة .

وفي تعليق ابن رشد نراه يجهد نفسه في البحث في قصائد المديح وقصائد الهجاء العربي عن ابيات تؤيد كل خاصية من الخصائص التي ذكرها أرسطو لفن التراجيديا والكوميديا .

واما عن مصر الفرعونية وما يمكن ان يكون قد انحدر الينا عنها من فن التمثيل ـ الذي يبدو ان اجدادنا قد عرفوه ـ فان استمرار هذا الفن سراً من أسرار الكهنة وعدم خروجه من المعابد وعدم انفصاله عن الدين ، كما حدث عند اليونان ، ثم انقطاع الصلة تقريباً بين مصر الحديثة التي اصبحت عربية في كل شيء ، ومصر القديمة .

كل هذا كان من شأنه ان يستبعد احتمال وراثة الشعب المصري لهذا الفن عن الفراعنة ، واذا كانت مصر والبلاد العربية الاخرى قد عرفت خلال العصور الوسطى ، بل في العصر الحديث ايضاً ، بعض الفنون الشعبية التي تشبه فن المسرح من قريب او بعيدٍ مثل « خيال الظل » و « قراقوز » فانه من الشاق ان نحدد اصل هذين الفنين ، فهناك من الباحثين من يظن ان خيال الظل مثلاً نشأ اصلاً في الصين ، والفرنسيون لايزالون حتى اليوم يسمونه في لغتهم « الظل الصيني Ombre Chinoise » على حين يسميه الانجليز « لعبة الظل Shadow Play » دون تخصيصه بمصدر معين ، كما ان « القراقوز» هناك من يزعم انه فن تركي ، وان كلمة « قراقوز » مكونة من اللفظتين التركيتين « قرة » اي « اسود » و « كوز » اي « عين » اي العين السوداء ، بحجة ان من يعرضونه كانوا عادة من الغجر الجوالين ذوي العيون السود ، على حين يزعم المستشرق الالماني المشهور « ليتمان » ان كلمة « قراقوز » تحريف تركي للاسم المصري « قراقوش » وهو اسم لوزير من ايام صلاح الدين ، زعم المؤرخ « ابن تماتي » انه كان وزيراً مستبداً وشاعت عنه تلك الشهرة السيئة بين عامة الشعب الذي أخذ يسخر منه ومن ظلمه ومن حكم قراقوش كله ، بوساطة لعبة « قراقوش » التي تحورت بتأثير اللغة التركية الى كلمة « قراقوز » واتفق هذا التعريف مع المركب المزجي التركي « قره » و « وكوز » .

وعلى أية حال ففي رأينا انه من السخف، الزعم بأن « القراقوز » قد تطور فاصبح فن المسرح ، او ان خيال الظل قد تطور فاصبح « فن السينما » ، وانما المعقول والتفكير السليم هو ان نعترف بان « فن المسرح » قد أخذناه أخذاً عن الغرب ، بعد ان اخذنا نتصل به ، ونعرف آدابه وفنونه . ولا ادل على ذلك من ان هذا الفن ظل زمناً طويلاً جداً يعتبر دخيلاً على حياتنا وتقاليدنا وآدابنا ، بل نابياً إن لم يكن محتقراً ، وربما كانت هذه النظرة المريبة من الامور التي عاقت تأصله وازدهاره عندنا بالسرعة والعمق والاصالة الواجبة ، في حين نراه يتمتع بكل هذه الخصائص عند الغربيين ، وفي بيئاته التي نشأ وتأصل فيها ، بل اكتسبت نشأته ما يشبه القداسة بحكم ازدهاره في كنف

الديانات ، واعتباره مظهراً حضارياً وانسانياً بالغ الأهمية في عصور التاريخ الاوروبي المختلفة . إذن وفد الينا فن المسرح من اوروبا ، ونظر اليه جمهورنا وبخاصة الطبقات المحافظة منه نظرة ريبة وحذر ، بل احتقار له ولرجاله ونسائه ، ولذلك ظل جمهورنا ينظر اليه نظره التسلية الرخيصة إن لم تكن المنبوذة ؛ فلم يكن من السهل ان يلازم ظهور المسرح عندنا ظهور أدب تمثيلي رفيع .

وبالرغم من تعدد الفرق المسرحية ودور المسرح فانه لم تطبع مسرحيات لتنتشر وتصبح جزءاً من تراثنا الادبي ، كما هو الحال عند الغربيين، إلا بعد مرور ما يقرب من ثلاثة ارباع القرن ، أي في سنة ١٩٢٧ ، وهي السنة التي ابتدأ فيها شاعرنا الكبير احمد شوقي في نشر سلسلة مسرحياته الشعرية المعروفة : « مصرع كيلوبترة » ، و « مجنون ليلى » ، و « عنترة » ، و « قمبيز » ، و « علي بك الكبير » ، و « أميرة الأندلس » النثرية ، ثم كوميديا « الست هدى » الشعرية .

وفي الفترة نفسها أخذ الأديبان الكبيران توفيق الحكيم ومحمود تيمور ينشران مسرحياتهما النثرية الكثيرة ، كما استأنف اتجاه شوقي في المسرح الشعري شاعرنا التقليدي المعاصر « عزيز أباظه » الذي ألف في شعر رصين مسرحيات : « قيس ولبنى » و « العباسية » و « شجرة الدر » و « غروب الاندلس » ، و « شهريار » .

هذا . ومن الحق ان نقرر ان اهتمام شاعرنا الكبير احمد شوقي بالمسرح لم يبتدىء في سنة ١٩٢٧ ، بل ابتدأ منذ وجوده في فرنسا موفداً من الخديو في بعثة علمية ، لدراسة القانون والالمام بثقافة فرنسا ، حيث نراه يبدأ في سنة ١٨٩٣ بتأليف اول مسرحية شعرية ، متأثراً بما شاهده في فرنسا ، وهي الطبعة الاولى من مسرحية « علي بك الكبير » التي اعاد كتابتها بعد ذلك ، وصاغها صياغة شعرية جديدة ، بعد أن اكتملت له شاعريته ، وتملك ناصية الفن الشعري في أخريات حياته ، ولكنه فيما يبدو كان متهيباً لتلك المحاولة ،

وباستطاعتنا ان نلمح هذا التهيب في المقدمة التي كتبها للطبعة الاولى لديوانه ، حيث يحاول تبريره للخروج على تقاليد الشعر العربي ، الذي لا يعرف غير القصائد ، ويصف هذه التقاليد « بالافعوان » الذي لا يؤخذ إلا من خلف ، وبأطراف البنان .

وبالفعل لم تلق هذه المسرحية من الخديو غير قبول فاتر ، مما فضّل معه شوقي ان يعود الى التقاليد ، والى الدروب المطروقة ، وان يحاول قبل كل شيء أن يكون شاعر الأمراء ، لكي يصبح امير الشعراء .

وبالرغم من ان (شوقي) عندما أخذ يكتب للمسرح كان هذا الفن قد تطور واصبح النثر غالباً عليه ، كما ان التراجيديا الشعرية المقصورة على حياة واشخاص الملوك والنبلاء والابطال ، ومشاهير الرجال ، كانت قد اختفت مع الكلاسيكية ، وظهرت بفضل (هنريك ابسن) السنرويجي و (برنارد شو) الايرلندي الدراما الحديثة ، التي تستقي موضوعاتها وشخصياتها من حياة الشعب ومن بين افراده ، وتتجه وجهة واقعية اشتراكية ، ولو مزجت بين هذه الوجهة والوجهة الرمزية ، كما فعل (إبسن) او الوجهة الذهنية كما فعل (شو) - نقول بالرغم من كل هذا التطور ، فان (شوقي) الشاعر بطبعه ، والذي لم يكن واسع الاطلاع على تطورات الأدب والفكر الغربيين ، قد عاد في معظم مسرحياته الى المذهب الكلاسيكي ، الذي يستمد مسرحياته الجدية من حياة الملوك والابطال والمشهورين من الرجال ، ويصوغها شعراً مثل (كيلوبترة) و (قمبيز) و (عنترة) و (علي بك الكبير) ، كما خصّ الشعب ، بل سكان حي الحنفي بالسيدة زينب في القاهرة بالكوميديا الوحيدة التي كتبها شعراً ايضاً وهي كوميديا (الست هدى) .

ويطول بنا الحديث ، لو حاولنا ان نستعرض مسرحيات شوقي لنحكم عليها أو لها ، ونتبين فيها فن الدراما والبناء المسرحي أو طغيان النزعة الغنائية عليها ، فاعتذر عن هذا الحديث ، محيلاً إلى سلسلة محاضرات القيتها عن مسرحيات شوقي في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ونشرها المعهد

في كتيب خاص ، كما انني يؤسفني ألا استطيع ايضاً تفصيل القول في مسرحيات خليفة شوقي الشاعر عزيز أباظة ، وهي الاخرى مسرحيات يغلب عليها الطابع الغنائي .

وإذا كانت تحرص اكثر من مسرحيات شوقي على البناء المسرحي والحركة الدراماتيكية ، فانها من جهة اخرى لا ترتفع بطاقتها الشعرية وروعتها الغنائية الى مستوى الشاعر الفذ احمد شوقي ، كما ان في اسلوبها اللغوي كثيراً من العسر والتماس الالفاظ الغريبة الى الحد الذي جعل القاهريين يتندرون بها ، ويوصي بعضهم بعضاً بأن يصطحب كل منهم معجماً قبل ان يذهب لمشاهدة احدى هذه المسرحيات في دار المسرح .

واما المسرح النثري المعاصر ، فمن روادنا في الأدب التمثيلي الاستاذان توفيق الحكيم ومحمود تيمور ، وانه لما يستحق التسجيل ان نقرر أن فن المسرح لم ينته في مصر الى خلق أدب تمثيلي فحسب ، بل خلق ايضاً هذا الادب مستقلاً عن المسرح ، حتى رأينا اديباً كبيراً كالاستاذ توفيق الحكيم، يزعم انه لا يكتب كل مسرحياته لكي تمثل في المسرح ، بل يكتب بعضها لكي تقرأ كلون من ألوان الادب .

وقد اخذ يؤكد هذا الرأي دفاعاً عن الكثير من مسرحياته الذهنية التي تعالج مشكلات مجردة في حوار ممتع ماهر ، وإن كان لا يمكن ان يغني عن الحركة المسرحية الدرامية ، وعن الواقعية النابضة بالحياة ، التي اخذ الجمهور المصري والعربي يتطلبها في فنونه كافة ، على اثر الانتفاضة الاجتماعية الكبيرة ، والوعي السياسي الشامل ، الذي اخذ يتغلغل في اعماق الشعب وطبقاته المختلفة السائرة نحو التقارب والتجانس الاجتماعي والثقافي .

هذا وقد أثرى الأستاذ الحكيم تراثنا الأدبي المعاصر بألوان مختلفة وعدد كبير من المسرحيات الجدية والهزلية ، والذهنية والاجتماعية ، والرمزية والواقعية . ويعتبر بعضها من روائع هذا الفن ، مثل مسرحية (اهل الكهف) ومسرحية (رصاصة في القلب) و (نهر الجنون) ، ثم مسرحية (إيزيس)

التي مُثلت هذا العام على مسرح الاوبرا بالقاهرة ، واثارت جدلاً ومناقشات طويلة حول حق الاديب في التصرف في وقائع الاساطير القديمة الجوهرية ، ومضمونها الحيوي ، وحقه في تفسير رموزها تفسيراً جديداً ، وذلك لان توفيق الحكيم قد حاول ان يجرد هذه الاسطورة الفرعونية القديمة من بعض وقائعها الاسطورية الخارقة ، لكي يدنو بمضمون الاسطورة كله من واقع الحياة ، التي يظن انها لا تزال مستمرة من مصر القديمة إلى مصر الجديدة على نحو ما اوضح على لسان باش مهندس الري في قصته المشهورة « عودة الروح » ، حيث نرى هذا الباش مهندس يقرر ان الفلاح المصري لا يزال يحيا ويزرع ويروي الارض ويحصد القمح بالوسائل وعلى النحو الذي كان يجري عليه جده الفلاح أيام الفراعنة .

واما الاستاذ « محمود تيمور » فربما كان اكثر ادبائنا المعاصرين معرفة ودراسة لاصول مهنته كأديب ، فهو يتقن فن القصة والاقصوصة والمسرحية إتقاناً واعياً مستفيداً ، ويعرف كيف يبني عمله الادبي .

ولكن هذه الصنعة المتقنة ، وطبيعة تيمور كرجل حـــذر متحفظ هادىء الطبع ، تصيب أعماله الادبية احياناً بشيء من الفتور ، على نحو ما تصيب « تعادلية » توفيق الحكيم ، وخوفه الفطري من الجرأة بله التطرف ، بالفتور نفسه وبخاصة في مسرحياته الذهنية ، التي لا يمكن ان تنجح وان تستثير الناس إلا اذا خرجت عن الدروب المطروقة ، والأفكار السائـــدة القريبة المنال ، لتجبه الناس بجرأة الفكرة الخارجة عن المألوف ، او المعارضة له معارضة تنقدح منها شرارة الدراما .

على انه إذا كان ادباؤنا المخضرمون الذين دعوا الى التجديد في فنون الأدب العربي التقليدية ، فخلقوا الاقصوصة والقصة والمسرحية دون ان يتجمعوا حول مذاهب محددة للفكر والادب بوسائل واهداف واضحة متميزة ، وذلك لطغيان الفردية في النصف الاول من هـذا القرن ، والتمسك بالحرية للوطن وللفرد ، تمسكاً شديداً ، كرد فعل للاستعمار والطغيان وسيطرتهما على

الوطن والمواطنين ؛ فانه من الملاحظ انه منذ ان خلصتنا الثورة تخليصاً كاملاً نهائياً من الاستعمار وسيطرته ، ومن طغيان الملكية الفاسدة ، وجشع الاقطاع أخذت روح الفردية المتطرفة تكبح جماحها ، وأخذت بيئتنا الثقافية والروحية تهيأ لظهور مذاهب فكرية ادبية ، يقبل الادباء والمفكرون للنزول عن جزء من حريتهم وفرديتهم ليلتفوا حولها ، ولينهضوا بعمل جماعي ، ويحققوا هدفاً مشتركاً لا بدّ ان تجتمع عليه الافكار والقلوب والسواعد .

ولعل أول ظاهرة لهذه الروح الجماعية ، هي تلك الدعوة التي يستميت في سبيلها الآن جيلنا الادبي الناهض من الشبان ، الذين يتسع اليوم مجال نشاطهم الادبي والفني شيئاً فشيئاً ، ويسعون جاهدين ليحققوا فكرة الادب في سبيل الحياة ، والادب في خدمة الشعب والمجتمع ، ويستعيدوا لهذا الاتجاه الاصطلاح العالمي المعروف باسم « الواقعية الاشتراكية » .

وقد أخذت هذه الواقعية الاشتراكية تؤتي بوادر ثمارها ، وبخاصة بعد نجاح ثورتنا ، حيث نرى الآن الدواوين ، ومجموعات الاقاصيص ، والقصص والمسرحيات يتوالى خروجها من المطابع ، وكلها يعالج مشكلات المجتمع ، ومواضع آلام الشعب وآماله ، واشواق روحه ، باسلوب واقعي حاد .

وما من شك في ان هذا الاتجاه الجديد قد كان ذا أثر فعال جداً في تلك التعبئة الروحية الواسعة العميقة التي استطعنا بفضلها ان نجند الشعب كله لمقاومة العدوان الغاشم الذي تآمرت عليه الصهيونية والاستعمار ضد وطننا المفدى ، بل ضد العالم العربي كله .

وكم كان شائقاً ان يرى جمهور القاهرة في اثناء هذا العدوان دور المسارح مفتوحة على مصراعيها بالمجان ، ليشهد المواطنون بعض مسرحيات لكفاح الشعب التي كتبها عدد من ادبائنا الشبان ، ونالت نجاحاً شعبياً منقطع النظير مثل مسرحية « كفاح الشعب » للأستاذ انور فتح الله وزميل له ، وهي تحكي مرحلة من مراحل كفاح سكان القاهرة الابطال ضد الغزو الفرنسي في اوائل القرن التاسع عشر ، او مسرحية (دنشواي الحمراء) للأستاذ الرحيمي

التي تعرض مأساة قرية دنشواي الشهيرة في مديرية المنوفية ، عندما ذهب جنود الانكليز في سنة ١٩٠٦ ليصيدوا الحمام فيها ؛ فتعرض لهم بعض الفلاحين ليمنعوهم من صيد حمامهم ، ودارت بين الفريقين معركة اتخذها الاستعمار ذريعة لمحاكمة الفلاحين المعتدى عليهم محاكمة صورية ، ونصب المشانق في القرية ليُعلّق عليها هؤلاء الفلاحون المساكين أمام نسائهم واطفالهم وآبائهم وامهاتهم .

وهذه أمثلة توضح الى حد كبير كيف ان مجتمعنا الشرقي لم يغير من نظرته المريبة الى المسرح والمشتغلين به فحسب ، بل اصبح ينظر الى دور المسرح كمعاهد لا للثقافة والفهم والتوجيه وحدها ، بل للتعبئة الروحية ايضاً في اخطر مراحل تاريخنا وكفاحنا المقدس من اجل الحرية والاستقلال والكرامة .

وقد انبنى على هذا التغير الواسع في نظرة جمهورنا الى المسرح وغيره من الوان الادب والفن ، أن اهتمت ثورتنا الناهضة بهذا اللون من النشاط الحيوي ؛ فأنشأت (المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب) بلجانه المختلفة التي تدرس كل لجنة منها فناً من تلك الفنون لتتبين مصادره واتجاهاته وغاياته ، وتعمل على تشجيعه بجميع السبل ، ومن بين هذه اللجان لجنة للمسرح أتشرف بعضويتها وهي توالي اجتماعاتها كل اسبوع لترسم الخطط ، وتدرس الوسائل المفضية الى نجاح هذا الفن وانتشاره ، ووصوله مع المسرح الشعبي الى مدن الريف وقراه ، حتى يقوم المسرح الى جوار المدارس والمعاهد في تثقيف الشعب ، وتهذيب طبائعه ، ورفع مستواه الخلقي والاجتماعي ، فضلاً عن تطهير نفوسه من بعض آفاتها ، عن طريق الوعي واللاوعي معاً ، ثم تحبيب الحياة والعمل والنشاط الى جميع المواطنين ، وغرس الثقة في النفس وفي الغير من المواطنين .

محمد مندور

المحاضرة الثانية

فكرة العرب عن الجغرافية

الدكتور محمد محمود الصباد

= القيت بتاريخ ٨ / ٣ / ١٩٥٧ =

تمهيد

يخطىء الكثيرون منا حينما يجارون كتاب الغرب فيذهبون معهم الى ان الجغرافية الحديثة انما ترجع الى اواخر القرن التاسع عشر ، وكانت من قبل ذلك مادة مجموعة لاترقى الى مستوى العلوم ، وقد عاشت لاتستهدف سوى وصف مظاهر الكون وصفاً لايرمي الى غرض ولا يربط سبباً بمسبب حتى ظهر كارل رتر والكسندر همبولت فاتجها بها اتجاهاً جديداً اذ جعلا منها دراسة لتفاعل الانسان ببيئته وتبياناً لمدى ارتباط كل منها بالآخر ، وقام منهجها على استقصاء الظاهرة الجغرافية وتحليلها والربط بينها وبين غيرها من الظاهرات ربطاً يساعد على وضع قوانين تجعل الجغرافية شبيهة بغيرها من العلوم .

يخطىء من يذهب هذا المذهب ، فقد كان العرب اسبق في تطوير الجغرافية من رتر وهمبولت ، فقد ورثوا علم اليونان فلم ينقلوه كما هو وانما أضفوا عليه من شخصيتهم فجعلوا منه شيئاً جديداً ، لقد عنوا بالجانب الوصفي ما في ذلك شك ، وكانت ظروفهم تحتم عليهم العناية به ، فقد اصبحت لهم دولة واسعة الاطراف ، وكثرت حركاتهم في داخل هذا الملك الجديد ، وكان لابد من كتب تستعين بها الادارة في ضبط الاقاليم ، ويعتمد عليها الرحالة والمسافرون في حركاتهم وتنقلاتهم ، وهكذا ظهرت كتب « المسالك والممالك » وكانت مصنفات يمكن الاعتماد عليها الى حد كبير ، فقد اتسم كثير منها بالدقة وبالبيانات الشاملة والاحصائيات الكاملة وهو ما يعمد اليه الغرب الآن حينما يضع الكتب عن البلاد المختلفة لتقوم مقام الدليل لمن يزور هذه البلاد .

وليزيد العرب في فائدة مثل هذه الكتب ، زودوا بعضها بالخرائط والصور والرسوم حتى يمكن للجميع ان يفهمها فهماً صحيحاً كما يقول المقدسي

في مقدمة كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » .

ولم يهمل الجغرافيون العرب الجانبين الفلكي والرياضي من الدراسات الجغرافية فكانت جداولهم التي وضعوها عن حركات الشمس والنجوم وخرائطهم التي رسموها للقبة السماوية دقيقة للدرجة اعتمدت عليها مؤلفات الغربيين في عصر نهضتهم ، وكانت الآلات التي اخترعوها اساساً للآلات الحديثة التي تستخدم الآن في أكبر المراصد العالمية .

وعمل العرب على ان تصبح الجغرافية علماً نافعاً لامجرد ثقافة ، فكانت دراساتهم للتربة وما يحويه باطن الارض من معادن ، وعن فوائد هذه المعادن واستخداماتها ، وكانت دراساتهم للرياح واتجاهاتها وحركات المد والجزر ومواعيدها ، مما سهل على الملاحين حركتهم في المحيطات ، وقد سبق العرب ملاحي الغرب في الكشف عن كثير من البحار الآسيوية ولكن وجد ملاحو الغرب من يتحدث عنهم ويشيد بفضلهم ، وبقي ملاحو العرب مغمورين واصبحنا نحن المحدثين نعرف عن فاسكودي جاما وكولمبس اكثر مما نعرف عن المهري وابن ماجد علماً بان دي جاما ما كان في استطاعته ان يصل الى الهند لو لم يقيض الله له ان يلتقي ابن ماجد على الساحل الشرقي من افريقية فيكون له نعم الدليل في عبور المحيط الهندي .

وكانت البيئة واثرها في الانسان من الموضوعات التي اهتم بها جغرافيو العرب وكتابهم وهو موضوع لم يطرقه علماء الغرب الا منذ مائة عام على اكبر تقدير .. لقد تكلم البيروني عن نظام الطبقات في الهند فارجعه الى اسسه الاقتصادية السليمة ، ووضع ابن خلدون اسس الجغرافية البشرية في مقدمته فاحتفل بها الغرب واحلها المكان اللائق بها .

اني اهيب بالدراسين العرب ان يعودوا الى هذا التراث فيقرأوه ، وحينئذ سيرون ان كثيراً مما نقرأ في الكتب الاجنبية انما هو بضاعتنا ردت الينا ... انها كنوز تنتظر من ينقب عنها وستجد المنقبين في القريب ان شاء الله .

ساهم العرب في بناء الحضارة العالمية بقدر لاينكره منصف ، وكان لهم دورهم في تقدم العلوم وتطورها ، ولكن العلماء من السلف الصالح لايزالون مظلومين معنا نحن العرب المحدثين ، فما بذلنا الجهد الذي يحتمه الوفاء في سبيل دراسة آثارهم ، وما حاولنا ان نكشف عن الخدمات التي بذلوها في خدمة العلم سابقين لامسبوقين ، ومبتكرين لا مقلدين ، وكانت جهودهم في سبيل تقدم علم الجغرافية من أقل النواحي ظفراً باهتمامنا ولن يبرر ذلك ان عدداً كبيرا من كتب الجغرافية التي نسمع عنها وعن قيمتها العلمية قد ضاع أو لم يكشف عنه بعد ، ولن يقوم عذراً لنا ان طريقة البحث في الجغرافية قد تغيرت وان منهج الدراسة فيها اليوم غير منهجها بالأمس .

لقد ورث العرب القدامى تراثاً ثقافياً أخذوه عن اليونان والرومان ولم يكونوا مجرد نقلة لهذا التراث ، بل عملوا على تطوره حتى وصلوا به ليكون أساساً للنهضة التي خرجت بأوربا من ظلامات العصور الوسطى الى نور العصر الحديث ، وان من المغالطة ان نقول مالنا ولهذا التراث وقد اصبحنا نعيش في عالم غير العالم ، وفي كل يوم نشهد جديداً من النظريات والأفكار ، اننا بهذا نتناسى ان المعرفة كالكائن الحي لها طفولتها وشبابها ، ولن تفهم حياة الشاب الفهم المتكامل اذا انت جهلت ماضي طفولته وما كان فيها من احداث .

ولقد كانت الجغرافية من العلوم التي تمثل مساهمة العرب في تطورها

مرحلة بارزة في تاريخها ، مرحلة حفلت بالآثار الواضحة للجغرافيين العرب ، وتزيد اهميتها اذا نظرنا الى هذه الآثار في ضوء الاحوال التي كانت سائدة في الوقت الذي كتب فيه هؤلاء الكتاب ما تركوا لنا من كتب ومصنفات .

بلغت الدراسات الجغرافية القديمة ذروتها حينما وضع جغرافي مصري هو كلاديوس بطليموس الاسكندري كتابيه المعروفين « الجغرافية » و « المجسطي » وليس من المبالغة ان قصة الكشف القديم انتهت بظهورها ، اذ بدأت روح البحث تنعدم حينما فشل علماء الاغريق الوثنيون والآخذون بفلسفتهم في الظفر برضى علماء المسيحية في عصورها الأولى ، وما كان لهم إلا أن يفشلوا وبعض القديسين امثال « سانت امبروز » يجهر بأن دراسة الكون ووضع الارض لن يفيد الانسانية في تحقيق املها في الحياة الآخرة ، وأدى هذا الى ان بدأ الكثيرون يحقرون الرغبة في المعرفة ويعتبرون مثل هذه الامور ضروبا من السحر .

وكان الجغرافيون العرب أول من خرج على هذه المعتقدات ، وعادوا الى بعث النظريات الاغريقية ، وربطوا بذلك بين العلم القديم والعلم الحديث واختلفوا عن الاغريق والرومان معاً ، فقد كان الاول اصحاب حضارة وثقافة ، وكان الآخرون قوم حروب وفتوح ، اما العرب فقد قاموا بالعملين جميعاً ، أسسوا امبراطورية واسعة منظمة ترتكز على أسس وقوانين ثابتة ، وبنوا في الوقت نفسه حضارة عالمية لم تكتف بالحدود المحلية بل أخذت من الحضارات التي سبقتها في مصر والهند وفارس واليونان ، وحينما تم لهم فتح سورية اتصلوا « بالنساطرة » وكانوا قد اصبحوا سدنة العلوم القديمة والقوانين عليها فأكرموا مثواهم ونقلوا من علومهم ومعارفهم ما اتسعت له الحضارة الجديدة ومالم يتعارض مع التطور الحديث .

ولم تستخدم كلمة جغرافية للدلالة على العلم الذي يدرس الارض إلا في عصر متأخر وكان القدماء يستعملون اللفظ للدلالة على كتاب بطليموس الذي اشرنا اليه ، وعلى كتاب آخر بنفس العنوان ألفه جغرافي شامي هو

مارينوس الصوري .. ولعل اخوان الصفاء هم اول من استعمل كلمة جغرافية للدلالة على علم خاص وذلك في رسائلهم المشهورة .

وكانت عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروف البيئة الى حد كبير فقد نشأوا في وسط يحتم عليهم ان يلموا ما وسعهم الالمام بالمعلومات الجغرافية المختلفة ، فما كان في استطاعتهم ان يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية في الصحراء الواسعة الارجاء ، إلا اذا عرفوا شيئاً عن النجوم والكواكب، يتخذون منها علامات وبالنجم هم يهتدون ، وما كان لهم ان ينتقلوا بابلهم واغنامهم وهي أثمن ما يمتلكون إلا اذا عرفوا موارد الماء ومنابت الكلأ ، وعرفوا الوحش من حيوان البادية وأين يعيش .

وقد اشتملت اشعار العرب على كثير من الحقائق الخاصة بوصف بيئتهم الطبيعية ، وبذلك اصبح الشعر العربي القديم مصدراً هاماً من مصادر الكتابات الجغرافية الاولى ، فهو غني بالاعلام الجغرافية من أودية وآبار وجبال وتلال .

وانتقلت هذه المعلومات من جيل الى جيل على ألسنة الرواة ، فقد كانت رواية الشعر من أهم ما عنى به العرب على مر العصور ، ولذلك لم يكن غريباً ان نجد الجغرافية بين الفنون التي يشتغل بها اللغويون .

وكان الاصمعي (القرن الثامن الميلادي) وهو من نعرف من علماء اللغة من العارفين بجغرافية بلاد العرب معرفة المدقق الخبير ، وظلت هذه الصلة بين الجغرافية واللغة حتى عصر متأخر . نجدها في معجم ياقوت وهو من كتب الجغرافية ، ونجدها في تاج العروس للزبيدي وهو من معاجم اللغة..

وهكذا لم يكن غريباً ان يساهم العرب في بناء صرح الجغرافية بكثير من اللبنات ، حتى قبل أن يبدأ عهدهم بالجغرافية المنظمة التي تقوم على اساس علمي سليم .

ولعلّ أقدم ما صنف في الجغرافية العربية ، هو ما كتبه هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٨٢٠ م ، والذي يقول عنه صاحب الفهرست (ص ٩٧) انه كتب ما لا يقل عن عشرة كتب في المسائل الجغرافية لم يصلنا مع الاسف شيء منها . ومع ان كتبه كانت خاصة ببلاد العرب ، إلا انه يظن انها لم تخل من اشارات عن البلاد الاخرى .

ولم يمض قرنان على ظهور الاسلام حتى كانت الدولة العربية قد شملت مساحات فساحاً في قارتي آسيا وافريقية ، وكان زمن التوسع والفتح قد بدأ يترك محله لفترة هدوء وثقافة .

وكان للخلفاء العباسيين مساهمة مشكورة في تشجيع البحوث العلمية فأسس هارون الرشيد بيت الحكمة لترجمة أمهات الكتب ، وكان متسامحاً الى ابعد حدود التسامح ، فاستخدم المترجمين من كل البلاد دون نظر الى جنسياتهم او عقائدهم . وبلغت النهضة اوجها في عصر ولده المأمون الذي راح يجمع الكتب من كل جهات العالم دون النظر الى ثمنها ، وكان فيما يقال يدفع المترجمين عَدْل كتبهم ذهبا وبلغ من شغفه بالعلم والعلماء ان يعرض على امبراطور بيزنطة صلحاً دائماً ومبلغاً ضخماً من الذهب مقابل ان يرسل الى بغداد واحداً من العلماء .

وأدى التوسع السياسي وقيام اخوة واسعة النطاق الى زيادة اهمية المعلومات عن اطراف العالم الاسلامي ، وبدا ان للجغرافية الوطنية ضرورةً عمليةً بعد اتساع الامبراطورية ، اذ اصبح من الضروري معرفة الطرق التي تربط بين اجزاء هذه الدولة الفسيحة .

وكان لابد من معرفة المسافات بين الاماكن بعضها وبعض ، فقد كانت السياسة والادارة والتجارة وما اليها ، مما يتطلب وصفاً دقيقاً للامكنة والبقاع . ومن قبل كان الحج يتطلب معرفة بطرق القوافل الى مكة والمدينة ، وكان هو نفسه عاملا له اهميته في زيادة التعارف بين المسلمين

وتبادل المعلومات ، فقد كانت مكة ملتقى آلاف من الحجاج يفدون اليها من كل الجهات وهم من اجناس مختلفة ولكل منهم بيئته الطبيعية والاجتماعية ، ومن ثم كان الحج الدارسين اشبه بالمؤتمرات في عصرنا الحديث يرحلون اليها ويشتركون فيها .

وكانت الكتب التي صنفت عن المزارات الاسلامية اوفى كثيراً بالغاية من الكتب التي صنفت عن غيرها من المزارات ، ومن خير امثلة هـذه المؤلفات كتاب الاشارة الى معرفة الزيارة للهروى (ت ٦١١ هـ - ١٢١٤م) والرحلة المغربية « للعبدري » (ت ٦٧٨ هـ - ١٢٨٩ م) وكان هؤلاء الرحالة رجالا تعددت نواحي ثقافتهم وكانت ملاحظاتهم قوية لدرجة تدعو الى الاعجاب ويعلم الله والعلم كم بذلوا من جهود لمقابلة كثير من العلماء وكم تحملوا من مشقة للحصول على المعلومات .

ولم تكتف كتب الجغرافية الوصفية بالحديث عن البلاد المعروفة بل كانت تعتمد على معلومات الرحالة والتجار في الحديث عن بلاد اخرى بعيدة فقد ضرب العرب بسهم وافر في هذا السبيل ، ولم تكن المعلومات التي يحصل عليها هؤلاء تدون في رسائل مستقلة في اول امرها ، ولهذا كانت تدمج اخبارهم في كتب الجغرافية الوصفية .

كان ميدان الجغرافية الوصفية اذن اول الميادين التي كتب فيها الجغرافيون العرب ، وظهر عدد من الكتب تصف البلاد المعروفة ، اقدمها فيما نظن كتاب « المسالك والممالك » الذي كتبه ابن خرداذبة حوالي سنة ٨٤٦م وكان عاملاً على البريد في مقاطعة جبيل ، ويخيل لنا انه استغل وظيفته في الحصول على معلومات دقيقة عن المسافات ، ولا يتبع ابن خرداذبة نظاماً دقيقاً في تأليفه ، وربما بدا لنا هذا لان كتابه لم يصلنا الا مختصراً ، ولم يقتصر ابن خرداذبة على العالم العربي المعروف له ، بل يتحدث عن جهات بعيدة عن هذا العالم كالصين وكوريا واليابان معتمداً على ما استطاع ان يجمعه من المعلومات .

كذلك صنف الكندي الفيلسوف المعروف (ابو يوسف يعقوب ت ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م) كتاب « رسم المعمور من الارض » وكتب تلميذه احمد ابن الطيب السرخسي (ت ٨٩٩ م) كتاباً سماه باسم كتاب ابن خرداذبة « المسالك والممالك » لم يصل الينا ، كما الف « رسالة البحار والمياه والجبال » .

ومن قبيل كتاب ابن خرداذبة « كتاب البلدان » لابن واضح اليعقوبي وهو جغرافي مصري ساح كثيراً في البلاد الاسلامية فشرق حتى الهند ووصل غرباً حتى المحيط الاطلسي ثم عاد الى وطنه مصر بعد كل سياحاته الطويلة (مات بها في ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م) ويعطي كتابه وصفاً مفصلا لكثير من الاماكن ويحاول بين الحين والحين ان يتناول بعض مظاهر الجغرافية الطبيعية وان يلم ببعض نواحي الجغرافية البشرية ، وكان اليعقوبي مغرماً بالاحصاءات وبالوصف الطبوغرافي للمدن .

وشبيه بكتاب ابن خرداذبة ايضاً كتاب « المسالك والممالك » للمروزي (جعفر بن احمد ت ٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م) وكتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وكتاب « الاعلاق النفيسة » لابن رسته .

كل هذه الكتب تزودنا بمعلومات جغرافية ، ولكنها على أي حال ادخل في باب كتب الادب . وقد كتب ابو الفرج قدامه بن جعفر في كتابه « الخراج » مختصراً لجغرافية الامبراطورية العربية والبلاد المحيطة بها . كما كتب الجاحظ رسالة عنوانها كتاب « الامصار وعجائب البلدان » لا تزال مفقودة ، وكتب الجيهاني كتاب « المسالك والممالك » ولكنه ضاع ايضاً ، ويظن ان الادريسي اعتمد عليه في وصفه لكثير من جهات آسيا ، وقد أثنى عليه المقدسي .

وعلى اي حال ، فيمكن أن تقسم كتب الجغرافية الوصفية ، التي خلفها العرب الى ثلاث مجموعات هي :

١ - كتب تتناول العالم المعروف بأسره . ومنها الكتب التي ذكرناها

آنفاً ، يضاف اليها كتب اخرى أمثال كتاب « مسالك الممالك » للاصطخري و « صورة الأرض لابن جوقل » ، وقد كتبه بعد رحلات استغرقت ثلاثين عاماً ، وكتاب « آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » ، كتبه اسحاق بن حسين المنجم (بين سنتي ٩٥١ — ١٠٦٣ م) في مراكش وهو معجم جغرافي اعتمد عليه جغرافيون مشهورون امثال الادريسي وابن خلدون، و (كتاب حدود العالم) الذي صنفه (في ٩٨٢ — ٨٣ م) مؤلف لا نعرف اسمه ، وهو شبيه في تبويبه بجغرافية بطليموس ، والكتاب الضخم الذي ألفه المسعودي بعنوان (مروج الذهب) ، ويظهر ان المسعودي قد درس بتعمق المؤلفات الجغرافية التي كانت موجودة في عصره ، ومن ثم كان في استطاعته أن يشير الى مراجع كثيرة لم تصل الينا ، وقد دعم دراساته برحـــلاته الطويلة التي وصل فيها الى بحر الصين والى سواحل افريقية الشرقية .

ومع ان المسعودي من اصحاب الجغرافية الوصفية ، إلا ان كتاباته لم تخل من شرح وتفسير لكثير من ظاهرات الجغرافية الطبيعية ، فهو يعتقد بكروية الارض ، وبالغلاف الغـازي المحيط بها ، ويصف الرياح الموسمية في المحيط الهندي والبحر العربي ، ويذكر المواقيت الصالحـة للملاحة في تلك المياه ، معتمدة على الرياح الموسمية .

ويستطرد فيذكر ان البحارة العرب في استطـاعتهم بعلامات خاصة اكتسبوها بالمران ان يعينوا هبوب الرياح وطبيعتها .

وشرح المسعودي حركتي المد والجزر وناقش موضوع نشأة البحار وامتدادها وملوحتها كما حلل دورة التعرية النهرية . ولم يغفل الاشارة الى التبخر والتكاثف والاشعاع وغير ذلك من موضوعات الجغرافية الطبيعية .

وفي القرن الثاني عشر اصدر الادريسي كتابه « نزهـــة المشتاق في اختراق الآفاق » وعمل كرة ارضية ويعتبر كتابه احسن مؤلف تلتقي فيه الجغرافية القديمة بالجغرافية الحديثة . ومعلومات الادريسي عن نهر الينجر فوق تمبكتو وعن السودان ومنابع النيل دقيقة لدرجة تدعو الى الاعجاب .

واسهم كاتبان شاميان في هذا الميدان بمؤلفين جديدين لهما اثرهما الواضح. فأتم ياقوت في سنة ١٢٢٨ م كتابه معجم البلدان ورتبه على حروف العجم وهو اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية والتاريخية واخبار الرحالة، ولم يخل الكتاب من مباحث لغوية وفلكية، وكان ياقوت على دراية واسعة بالمعلومات الجغرافية التي تركها السلف، وكان من أعظم العلماء الرحالة في عصره.

وفي القرن الثاني أصدر ابو الفداء امير حماه (ت ١٣٣٨) كتابه «تقويم البلدان» وهو لا يقل في قيمته العلمية عن معجم ياقوت وكان تقسيمه للعالم المأهول الى ٢٨ اقليماً تقسيماً فريداً في بابه.

وظهرت في القرن الرابع عشر موسوعتان هما «نهاية الأرب في فنون الادب» للنويري (ت ١٣٣٢) و «مسالك الابصار في اخبار ملوك الامصار» لابن فضل الله العمري (ت ١٣٤٨) وفي هذين الكتابين مادة جغرافية غزيرة.

ولا نريد ان نسترسل في ضرب الامثال خوفاً من الاطالة والاملال ولكن يمكن أن نقول في اجمال، ان عهد المؤلفات الجغرافية العامة قد انتهى بظهور الكتب التي شهدها القرنان الثالث عشر والرابع عشر واصبح المكان الاول لكتب الجغرافية الاقليمية وبدأت النزعة القومية تظهر بوضوح.

٢ ـ اما المجموعة الثانية فتشمل كتباً عنيت بدراسة اقاليم بعينها:

واتسمت بالطابع الجغرافي التاريخي ويأتي في مقدمتها كتاب ألفه ابن الاصبح السلامي في حوالي سنة ٨٤٥ م بعنوان «اسماء تهامه واماكنها» وكتاب «فتوح مصر» لابن عبدالحكم (ت ٨٧١ م)، وكتاب «فضائل مصر» للصفدي، وكتاب «صفة جزيرة العرب» ألفه الجغرافي اليمني ابن يعقوب الهمداني (ت ٩٤٥) وتناول فيه جغرافية شبه الجزيرة العربية الطبيعية، وتحدث عن اجناسها وقبائلها وغلاتها الحيوانية والمعدنية، وطرقها

ومسالكها الى غير ذلك من النواحي ، ووصف ذلك كله وصف العارف الخبير .

ووصف محمد بن يوسف الوراق (ت ٩٧٣) بلاد العرب في مصنفه « المسالك والممالك » . وقد فقد هذا الكتاب ولكن البكري اعتمد عليه في القرن الثاني في تأليف كتابه . ووصف احمد بن محمد الرازي (ت ٩٥٥) الاندلس ، وقد ضاع الكتاب ولكن تشير اليه كثير من الكتب الاندلسية المتقدمة .

وأوفد الخليفة المقتدر احمد بن فضلان في صفر ٣٠٩ هـ (يونية ٩٢١ م) في سفارة الى ملك بلغار نهر اتيل (الفلجا) فوصل اليه في ١٣ محرم ٣١٠ هـ (١١ مايو ٩٢٢ م) وعند عودته الى بغداد وصف رحلته في كتاب يعتبر أول ما يعتمد عليه في وصف تلك الجهات التي لم يكن معروفاً عنها حينذاك سوى القليل .

وألف المهلبي كتاباً فريداً في جغرافية السودان ، كتبه للعزيز الخليفة الفاطمي سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) وكان اول كتاب من نوعه في جغرافية هذا الاقليم وعليه اعتمد ياقوت اعتماداً تاماً في كتابة جغرافية السودان .

وقام ابن سليمان الاسواني برحلة في النيل الى النوبة حوالي عام ٩٧٥ م ووصف رحلته في كتاب « أخبار النوبة » الذي حفظ لنا المقريزي فقرات منه .

ولقد أضاف الجغرافيون العرب الشيء الكثير الى معلوماتنا عن افريقية التي لم يكن يعرف عنها الرومان سوى انها البحر المتوسط وسواحله والصحراء الحافة به ، ولكن العرب بعد فتحهم لمصر مباشرة توغلوا في الصحراء . وقد حملتهم الرغبة في نشر الاسلام وفي التوسع التجاري الى الجنوب عبر النطاق الصحراوي الواسع فوصلوا الى السنغال والنيجر . وعرفوا الكثير عن سر النيل الاعلى وامتد نفوذهم على الساحل الشرقي حتى ناتال الحالية .

ولم تدخل اوروبا ميدان الكشف عن القارة المظلومة ، إلا بعد سنين طوال .

وقد جمع البيروني معلومات قيمة عن جنوب افريقية وعن موزمبيق او سفالة الزنج كما يسميها عن طريق التجار العرب ، وعلى أساسها استطاع ان يقول انه أثناء صيفنا يكون شتاء عندهم ، وان يذهب الى ان البحر الجنوبي (المحيط الهندي) يتصل بـ (المحيط الاطلسي) عن طريق فتحة في الجبال على طول الساحل الجنوبي لافريقية . ثم يضيف : « لا شك في وجود هذا الاتصال بالرغم من ان احداً لم يستطع اثباته بشهادة العيان » .

٣ ـ أما النوع الثالث فكان أكثر تخصصاً ، اذ كاد يقتصر على وصف المدن ، وهي كلها كتب مصبوغة بالصبغة التاريخية وبالتراجم ، ومن أقدم مؤلفات هذا النوع « أخبار مكة » للأزرقي (ت ٨٩٣) وقد سار على منواله الخطيب البغدادي (ت ١٠٧٠ م) في كتابه « تاريخ بغداد » ومن العسير إحصاء كتب هذا النوع لكثرتها .

وقد ازدهر التأليف في الخطط في عهد الايوبيين والمماليك ولدينا من آثار هذا العهد طائفة قيمة من الكتب تشمل معلومات جغرافية واحصائية عن مصر والشام منها قوانين الدواوين لابن مماتي (ت ١٢٠٩) ووصف الفيوم للنابلسي (ت ١٢٤٣) وفضائل مصر للصفدي (ت ١٣٦١) وايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل لابن المتوج (ت ١٣٢٥) « والتحفة السنية باسماء البلاد المصرية » لابن الجيعان (ت ١٣٧٥) « والانتصار » لابن دقماق (ت ١٤٤٢) « وزبدة كشف الممالك » لخليل الظاهري (ت ١٤٥٠) « وحسن المحاضرة » للسيوطي (ت ١٥٠٥) « ونشق الازهار في عجائب الاقطار » لابن اياس (ت ١٥٢٨) .

ومنذ اوائل القرن الحادي عشر بدأت الدراسات الجغرافية العربية تضمحل مع اضمحلال النفوذ السياسي ، فلم تظهر كتب واسعة شاملة كالتي شهدناها في القرنين التاسع والعاشر .

واقتصر الانتاج على مصنفات محدودة اقل في قيمتها من الكتب القديمة، ففي المغرب كتب عبد الواحد المراكشي كتاب المعجب (كتبه في ١٢٢٤) وكتب القيرواني (ت ١٤٥٠) المؤنس وكان الحسين بن محمد الوزان الزياتي (وتعرفه كتب الغرب باسم ليوافريكانوس) آخر من اشتهر بهذا التأليف الجغرافي العربي في بلاد شمال افريقية .

اما في المشرق فقد حلت الفوادح بالعراق والجزيرة واصبحت لغة التأليف هي الفارسية وظهر فيها عدد من الكتب باللغة الفارسية مثل كتاب حدود العالم، وكتاب سفرنامة لناصري خسرو، وكتاب نزهة القلوب لحمد الله مستوفي (ت ١٣٤٠) وغيرها .

وأهم ما نلاحظه على كتاب الجغرافية الوصفية انها فهمت الجغرافية مرتبطة بالتاريخ :

نلحظ هذا في كتب اليعقوبي والبلخي والمسعودي، ولكنهم لم يخلطوا بين العلمين بل نجد كاتباً مثل المراكشي في كتابه المعجب يؤكد انهم يدركون الفرق بين العلمين ادراكاً واضحاً .

وقد عادت الجغرافية بعد ذلك بسبعة قرون تؤمن بان الفصل التام بين التاريخ والجغرافية أمر غير ميسور وظهرت في السنوات الاخـــيرة كتب تفسر التاريخ والاجتماع على ضوء الاحوال الجغرافية السائدة، ومن امثال ذلك كتاب « فيرجيريف » الجغرافية والسيادة العالمية، وكتاب جوردن ايست « الجغرافية من وراء التاريخ » وكتاب بوفدز « الجغرافية من وراء السياسة » .

وهكذا ادرك الجغرافيون في القرن العشرين صحة المنهج الذي سار عليه العرب قبل ذلك بقرون .

★ ★ ★

وقد ادرك العرب بفطرتهم السليمة اهمية الخريطة كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية .

وكان محمد بن موسى الخوارزمي من اسبق الكتاب العرب عناية بهذه الناحية، فقد اضاف مجموعة من الخرائط الى كتابه « صورة الارض » الذي يقول عنه المستشرق الايطالي نللينو انه لاتستطيع امة اوروبية في فجر نهضتها ان تنتج مثله .

وفي القرن العاشر نشطت حركة التأليف الجغرافي بشكل ملحوظ وقامت في بغداد مدرسة يمكن ان نسميها مدرسة البلخي اعتمدت على الخريطة اعتماداً قوياً في الوصف الجغرافي للاقليم .

ووضع البلخي اول اطلس عربي الحقه بكتابه « صور الاقاليم » الذي لم يصل الينا نصه الاصلي ، ويشمل هذا الاطلس في تسلسل منتظم خرائط للعالم وللجزيرة العربية ولبحر فارس « المحيط الهندي » والمغرب ومصر والشام وبحر الروم « البحر المتوسط » ونحو اثني عشرة خريطة اخرى للجهات الوسطى والشرقية من العالم الاسلامي .

ولم يبق في المكتبة الجغرافية من مصورات مدرسة البلخي الا مصور العالم في كتابي القزويني وابن الوردي كما تظهر هذه المصورات بشكل اقل وضوحاً ، مصورات العالم المستديرة الواردة في كتاب الادريسي .

وكان من ثمرات المجهودات التي بذلت في عصر المأمون عمل نوع من الخرائط يسميها المسعودي (التنبيه والاشراف ص ٣٣ - ٤٤) الصورة المأمونية .

ويذكر ان الارض في هذه الخريطة قد صورت على طريقة بطليموس المصري .

ويمثل المقدسي (ت ١٠٠٠ م) آخر الجغرافيين العظام في هذه المدرسة وقد كتب « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وعمره اربعون سنة (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م) وبدأه بنقد دقيق لمن سبقه من الجغرافيين وخلص الى طريقة يرى انها هي من احسن الطرق .

ومن الغريب ان نلاحظ مبلغ اقترابه من فهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدامها كأداة للتثقيف العام فيقول : « وأرى ان هذا العلم من الاهمية بمكان للرحالة والتجار » (ص ٢ ، ٣) .

ورسم المقدسي خرائط مستقلة لكل قسم من الاقسام الاربعة عشر التي قسم اليهـــا العالم الاسلامي واستخدم في تلك الخرائط طرقاً لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة حتى يمكن للجميع ان يفهمها فهماً صحيحاً فرسم « الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة والانهار بالزرقة والجبال المشهورة بالغبرة » ص ٩ .

وكان الادريسي رسام خرائط ممتاز فقد ابتكر طريقة لمساقط خرائط السماء والارض ، وقبـة سماوية وكرة ارضية من الفضة بين عليها اقاليمه المناخية السبعة كذلك صنع خريطة للعالم على شكل طبق من الفضة، وقد اتم ذلك كله في بلاط روجر ملك صقلية .

وتأتي بعد ذلك خرائط العالم للقزويني وابن الوردي وهي على اسلوب مدرسة البلخي، وقد صنع عبد الرحمن الصوفي في نحو سنة ١٠٤٠ م كرتين سماويتين في القاهرة .

وفي سنة ١٧٥ م عمل ابن هوله الموصلي كرته الارضية البرونزية .

وبالرغم من ان الجغرافيين العرب قد استمدوا الكثير ممـــا كتب بطليموس الاسكندري الا انهم في الواقع لم يقـــلدوه في خرائطه بل كانت معلوماتهم اوسع كثيراً من معلوماته ، وقد خرجوا عن فكرته القائلة باتصال افريقية بجنوب شرق آسيا والتي تجعل المحيط الهندي بحراً داخلياً مقفولاً .

وقـد ساعد على تقدم الخريطـــة العربية اتساع رقعـــة البلاد الاسلامية ونشاط الملاحة البحرية فلم يكد يمضي قرن واحد على ظهور الاسلام حتى اصبح البحر الاحمر بحيرة عربية واصبح للعرب السيادة على السواحل الشرقيه والجنوبية والغربيـة للبحر المتوسط وامتلكوا كثـيراً من جزره واصبح لهم مناطق استقرار معروفة وان لم يكن لهم نفوذ سياسي على طول

ساحل ملبار وكرومندل في الهنـــد وفي جزر ملاديف وسيلان واندمان وسومطرة وجاوة .

وقد قامت سيادة العرب ونفوذهم التجاري على اساس قدرتهم الفطرية على التجارة فلم تكن تجارتهم في تلك الانحاء النائية تستظل بعـــلم سياسي وساعدتهم بساطة معتقداتهم الدينية على اكتساب صداقة العناصر غير المسلمة ولم تضطرب الاحوال في تلك الجهات الا بعد ان وصل البرتغال اليها بتجارة اوربا وبالاستعمار الاوربي ، ويحدثنا التاريخ عن كيفية تعاون العرب مع سكان البلاد الاصليين لصد هؤلاء الغزاة .

ولكن مما يؤخذ على الخريطة العربية ميلها الى التزويق وربما كان السبب في هذا ان العرب بدأوا في رسم خرائطهم في الوقت الذي لم تكن فيه الخريطة في اوربا سوى تزويق وزخرفة للكتب الدينية ، ولكن العرب كانوا اكثر دقة واكثر فهماً للغرض من الخريطة من الاوربيين .

ولم يهمـل الجغرافيون العرب الجانبين الفلـكي والرياضي ، وكان اتصالهم بالثقافتين الهندية والفارسية مما ساعد على هذا الاتجاه .

وقد ترجم عن الهندية كتاب السدهانا وكتاب اركند ، وقـد ألفهما الفلـكي الهندي « براهما جوبتا » في سنة ٦٢٨ وقام بهـــذه الترجمة الفزاري ويعقوب بن طارق بمساعدة علماء من الهنود امثال « انكة » وابن ديان .

ونقل ابو الحسن عن الفارسية الزيج البهلوي الذي صنف في اواخر حكم الدولة الساسانية .

وشجع العباسيون وبخاصة في عصر الرشيد والمأمون حركة النقل عن الثقافات العالمية واشتهر اربعة من المترجمين هم :

يعقوب الكندي وحنين بن اسحق وثابت بن قرة والبطريق ، وكان الكندي من اشهر المترجمين عن اليونانية .

وقد جمع الفلـكيون والرياضيون اعمالهم فيما سمي باسم « الزيج المأموني

الممتحن » الذي كان مما اشتمل عليه جـــداول خاصة بميل سمت الشمس واستقبال نقطتي الاعتدالين وطول السنة الشمسية وغير ذلك من النواحي الهـامة .

واسهم اولاد موسى بن شاكر وهم محمد واحمد وحسن بقسط ضخم في هذا الميدان ، وتحتل اعمالهم مكانة ممتازة بين اعمال مدرسة بغداد ، فقد عمل الثلاثة في المـدة بين سنتي ٨٥٠ ، ٨٧٠ م في جمع الارصاد في مرصد باب الطاق المشمول برعاية الدولة والقائم على نهر دجلة .

وقد كتب الرئيس ابو على الحسن بن سيناء ابحاثاً كثيرة في الفلك ومركز الارض في الكون ومنزلها من الاجرام السماوية ، وقد اقتصر المجسطي وظلت رسالته عن المعادن المصدر الاول في الدراسات الجيولوجية في اوربا حتى عصر النهضة .

وفي نهاية القرن العاشر كانت مصر قد استقلت عن الخلافة العباسية واصبحت مركزاً جديداً للحركة الفكرية ، وأنشأ العزيز (٣٧٥ هـ - ٩٩٦ م) مرصد القاهرة وقام ابو الحسن بن يونس (ت ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م) بدراسات واسعة معتمداً الى حد كبير على ما خلفه اولاد موسى بن شـاكر واخرج الزيج الحاكمي « المشهور الذي حل محل المجسطي ومحل الرسائل التي اخرجتها مدرسة بغداد » .

وفي شمال افريقيا ساهمت مدارس طنجة ومراكش وفاس في هـذه الحركة العلمية . وكان من اشهر علمائها ابو علي الحسن بن عمر المراكشي صاحب كتاب « جامع المبادىء والغايات » الذي يقول عنه سارطون ان « ابحاثه من أهم الاضافات الى الجغرافية الرياضية » ولم يبذل احد من كتاب العصور الوسطى ما بذله المراكشي في شرح الرسائـل والاجهزة العلمية الفلكية .

وأسهمت اسبانيا العربية في الحركة ولكن ضاع لسوء الحظ معظم ما كتب في تلك الفترة . وقد اختصر مسلمة المجريطي (ت ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) جداول البتاني وكتب ابن رشد كتاباً في الاجرام السماوية .

وبعد ان انحلت السلطة الرئيسية في بغداد وضاعت الخلافة لم تمته التقاليد العلمية ، بل سارت في طريقها ترعاها الاسرات الاقليمية التي آل اليها الحكم ، كبني بويه والاسرة الغزنوية وغيرها من الاسرات .

* * *

ومع ان بعضاً من جغرافيي العرب اهتموا بالجغرافية الكونية ، او ما نسميه الآن « الكوزموجرافية » فعنوا بجميع العجائب في السماء والارض ، واغرق بعضهم في الخيال ، إلا ان اغلبهم كان يحاول محاولات جدية لتفسير الظاهرات الطبيعية وتعليمها بطريقة علمية منظمة .

ومن أشهر من كتب في الجغرافية الكونية القزويني ، وهو عربي صميم ولد في إيران وعاش في العراق في اواخر حكم العباسيين (ت ٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م) وقد ترك مصنفاً كبيراً في هذا الموضوع بعنوان عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وقد ظل للكتاب شهرته حتى العصر الحديث . ولكن له بجانب هذا كتاباً آخر في الجغرافية الوصفية سماه « عجائب البلدان » ويعرف في بعض المخطوطات باسم آثار البلدان ملأه بالمعلومات التاريخية ، والتراجم وزينه ببعض الصور والرسوم .

كذلك كتب ابو عبدالله الانصاري الدمشقي (ت ٧٢٧ هـ - ١٣٢٧م) « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » وكان كاتباً مبتكراً يجتهد في اختيار المعلومات ويتحرى الدقة في جمعها من مختلف المصادر .

* * *

ولم يهمل العرب الجغرافية الطبيعية بفروعها ، فاهتم كثير من الباحثين بالفزيوغرافية وبالمناخ وبعلوم البحار . وكان من اطرف الدراسات واقدمها في هذا الميدان رسائل « اخوان الصفاء » التي قامت بها جمعية علمية اتخذت البصرة مقراً لها « القرن الرابع الهجري » .

وعنيت بالجغرافية بين ما عنيت به من العلوم الاخرى وتناولت

الجانب العلمي منها بالبحث والتحليل ، فشرحت كسوف الشمس وخسوف القمر ، وتناولت علم المناخ على ادق الاسس ، فوصفت الغلاف الغازي وطبقاته المختلفة ، ولم يفتها ان تذكر ان هذه الطبقات وان تميزت عن بعضها البعض، الا ان الهواء يستطيع ان يتوغل فيها جميعاً .

وتناولت الرسائل التكوين الجيولوجي للارض ، ووصفت ما بها من معادن ، وتحدثت عن الزلازل والبراكين ، وحاولت ان تربط بين الظاهرتين كما اشتملت على فصول في الجغرافيا الحيوية ، فدرست النبات وتوزيع الحيوان وخصائصه .

وهكذا كانت رسائل اخوان الصفاء محاولة جديدة مبتكرة ، في دراسة الجغرافية الطبيعية على الاسس العلمية ، التي لا تزال تدرس عليها في الوقت الحاضر .

وكان للمقدسي شأن في هذا النوع من الدراسة ، فقد قال بأن الارض كروية على وجه التقريب في شكلها ، وان خط الاستواء يقسمها الى قسمين متساويين ، وقسم محيطها الى ١٨٠ درجة ، ٩٠ درجة من الاستواء الى كل قطب ، وادرك ان نصف الكرة الجنوبي يتكون معظمه من الماء بخلاف النصف الشمالي الذي يتركز فيه اليابس (ص ٩٩ — ١٠٠) وهو امر لم يلتفت اليه علماء الغرب إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وتحدث حمدالله المستوفى في « نزهة القلوب » عن خط الاستواء ، ووصف ما عليه الاقليم من غنى نباتي موفور ، وتحدث عن الينابيع الحارة، وآبار الزيت عند بحر الخزر . وكان للمسعودي كما اشرنا التفاتات طريفة الى الجغرافية الطبيعية حيث تحدث عن الرياح الموسمية وحركات المد والجزر .

وثمة جغرافي آخر من المسلمين وان لم يكن من العرب ، ولكنه كتب بلغتهم هو ابو الريحان البيروني (ولد في ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ م) وكان

أوحد أهل زمانه علماً ومعرفة ، وقد خدم الجغرافية في كل نواحيها خدمات تذكرها له بالخير .

لقد تناول الجيولوجيا والتكوين الجيولوجي ، تناول العالم القدير ، ونراه يقول عن سهول شمال الهند ، انها كانت قاع بحر ردمته الرواسب وهو ما تقول به الجغرافية الحديثة ، وهو يفرق بين الخليج والمصب الخليجي ، ويرى ان الاول ذراع من البحر يتوغل في اليابس ، وان الآخر جزء من نهر غمرته مياه البحر وهذا ما نقول به الآن .

وقد فهم البيروني حركة المد والجزر وربط بينها وبين اوجه القمر كما يقول العلم الحديث تماماً ، وتناول استدارة الارض وتحديد حركاتها ، وحدد خطوط الطول والعرض لكثير من الامكنة والبقاع بما لا يختلف كثيراً عن وصفها الصحيح .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا لاهميته وطرافته معاً ، تقرير سفير تركي جاء الى بلاط السلطان محمود الغزنوي ، فلاحظ فيما وراء البحر الى القطب الجنوبي ان الشمس تظهر على الافق في وضع يصبح حدوث الليل والنهار معه ظاهرة لا وجود لها ، ولم يصدق السلطان مثل هذه الغريبة فاستدعى البيروني ليحقق هذه الظاهرة ففسرها تفسيراً سر له السلطان .

* * *

وكانت البيئة واثرها في الانسان من الموضوعات التي اهتم لهـــا الجغرافيون العرب ، وهو موضوع لم يطرقه علماء الغرب الا منذ أقل من مائة عام . ويبدو هذا واضحاً في كتاب « الحيوان » للجاحظ ، وفي الارجوزة السنية لابن سيناء ، كما يبدو عند المقدسي والمسعودي ، وعند البيروني الذي يفسر امتناع الهنود عن أكل لحوم البقر بأسباب اقتصادية معقولة .

ولكن هذه الجهود جميعاً لا يمكن مقارنتها بما أحدثه ابن خلدون في مقدمته فقد وضع فعلاً الاسس الاولى لعلوم الجغرافيا البشرية ، فكان بذلك

الرائد الاول للعلوم الاجتماعية في شكلها الحديث . وكانت محاولاته في تفهم أثر البيئة الطبيعية من سطح ومناخ ونبات على الحياة البشرية ، الاساس الذي تطورت عليه الجغرافية البشرية وعلوم الاجتماع .

وسبق ابن خلدون (ت مارس ١٤٠٦) الجغرافي الامريكي الزورث هنتجنتون بخمسة قرون في اهتمامه بأثر المناخ على الصفات الجسمية والعقلية للناس ، وحاول ان يفسر التاريخ على اسس من الجغرافية والانثربولوجية ووضع لأول مرة التقسيم الاولي لانماط الحياة ، ففرق بين البدو والحضر وفسر الظاهرات الاجتماعية على أسس من مظاهر البيئة .

وتناول ابن خلدون علماً لم تعرفه اوروبا الا في القرن العشرين وهي ما اطلقت عليه اسم Urbau Geography أي جغرافية المدن ، فناقش عوامل قيام المدن وازدهارها واسباب اضمحلالها ، ونقد العرب الاوائل لانشائهم كثيراً من حواضرهم دون النظر الى البيئة الجغرافية وظروفها مما ادى الى زوال هذه الحواضر بزوال النفوذ السياسي الذي كان من ورائها .

وتناول ابن خلدون الجغرافية الاقتصادية فحلل المظاهر التي قامت عليها الزراعة الراقية في الاندلس على عهد العرب وناقش نشأة الصناعات ونموها وحلل تجارة الصادر والوارد وتتبع تطورها واختلاف اتجاهاتها كل اولئك في اسلوب رصين لا مبالغة فيه ولا تعقيد .

* * *

هكذا عرف العرب كل فروع الجغرافية الحديثة في شعبتيها الرئيسيتين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، ونجحوا في تفهم كثير من المسائل الجغرافية وتفسيرها ، ولكن اخفقوا في بعض الاحيان وما كان اخفاقهم لنقص في ادراكهم بل لان الوسائل العلمية وطرق البحث لم تكن تقدمت الى الدرجة التي هي عليها الآن .

ولم يعتمد العرب في جمع معلوماتهم على مجرد السماع أو النقل بل سلكوا

السبيل الصحيح للبحث وهو طريق التجربة او المشاهدة ، فأجروا دراساتهم الفلكية في عدد كبير من المراصد انشئت في كل جهات العالم الاسلامي وكان من اشهرها مرصد شمسيه في سهول تدمر (أنشيء في ٢١٦ هـ) ومرصد جبل قاسيون بالشام ومرصد باب الطاق على نهر دجلة ومرصد المقطم في مصر وغيرها كثير .

وما كان للعرب ان يقوموا بتلك الاعمال الضخمة التي حفظت لنا الكتب قليلاً منها لولا وجود الاجهزة العلمية الدقيقة التي اخترعوها او نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا فيها اوحسنوها .

وقد كان لصفيحة الازرقلي أبعد الأثر في اوربا فيما يختص بتحسين الاصطرلاب واستعمالاته وظلت معروفة لعدة قرون عند الفلكيين والملاحين .

وقد صنع الخوجندي (ت ٣٨٢ هـ) (٩٩٢ م) الذي عاش في بلاط فخر الدولة البويهي جهازاً عرف باسم « سداس الفخري » يستخدم في معرفة ارتفاعات الامكنة وهو أساس الجهاز الحديث المعروف باسم « صندوق سكستان » وألف الجلي (ت ٩٧١ هـ - ١٠٢٩ م) كتاباً عن الاصطرلاب .

وكان في مرصد شرف الدولة في بغداد (حوالي ١٠٠٠ ميلادية) كثير من مهرة صناع الاجهزة العلمية اشتهر من بينهم الكوهي والصاغاني .

واعتمد العرب في دراساتهم الوصفية على الرحلة والانتقال في البر وفي البحر على السواء .

ونقرأ الكثير عن رحالة قضوا سنوات في السياحة في انحاء الامبراطورية العربية ، بل وان منهم من تخطاها وأوغل في بلاد لم يكن قد وصل اليها الاسلام .

وكان من اعظم هؤلاء الرحالة في البر اليعقوبي وابن حوقل والمسعودي والمقدسي والبكري وابن جبير وابن بطوطة ، وكان من رجال

البحار سليمان التاجر وابن ماجد والمهري ، وقد ترك هؤلاء وهؤلاء كتابات جغرافية خالدة القيمة .

وينقد المقدسي الكتّاب الذين لم يحفلوا بالرحلة والاسفار فيقول عن ابن خردادبة انه جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيفية المسالك اليها ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ...

ويقول عن البلخي ، انه اختصر ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا اوضح الامور النافعة ، وترك كثيراً من امهات المدن فلم يذكرها . ثم يرميه بأنه لم يدوخ البلدان ولا ووطّىء الاعمال ، ثم يشرح منهجه في البحث فيقول انه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا أخذ منه بنصيب وانه انفق في اسفاره اكثر من عشرة آلاف درهم ويذكر تجاربه فيقول : قد تفقهت وتزهدت وتعبدت وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي بالعصائد ...

وسحت في البراري وتهت في الصحاري ، واشرفت مراراً على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ، ومشيت في السمائم والثلوج ، ونزلت عرصة الملوك وسكنت بين الجهال ، والحق انها تجارب حرية بأن تخلق جغرافياً ممتازاً كالمقدسي .

وكان ابن ماجد اقدم من كتب في الافيانوغرافية ، وكان له الفضل في ان يصل فاسكو دي جاما الى الهند .

فقد قابله في شرق افريقية وكان دليله في المحيط الهندي حتى رست مراكبه في قاليقوط سنة ١٤٩٨ .

وقد نشر ابن ماجد كتبه الثلاثين في المدة من ١٤٦٢ الى ١٤٩٠ وكان اهمها وآخرها « كتاب الفوائد » الذي اشتمل على معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهم الملاحين في البحر الاحمر وفي المحيط الهندي وفي بحر الصين .

وقد جمع فيه خبراته الكثيرة التي اكتسبها من هذه البحار وأعماقها وشطوط المرجان فيها وجزرها وموانيها والرياح التي تهب عليها الى غير ذلك من الامور التي تهم الملاحين ، فكان جديراً بالاسم الذي أطلقه عليه معاصروه ومن خلفهم حينما سموه باسد البحر الهـائج . وكان من عادة البحارة حينما يخرجون من البحر الاحمر الى مياه المحيط الهندي ان يقرأوا الفاتحة زيادة في شرف الشيخ ابن ماجد وظل هذا التقليد حتى منتصف القرن المـاضي على وجه التقريب .

* * *

على هذا النحو عاشت الجغرافية العربية لعدة قرون ، حتى قـدَّر الله ان تصبح السيادة لتركيا على البـــلاد العربية ، وعلى منـاطق اخرى واسعة من ديار الاسلام .

وبذلك انتقل مركز الحركة العلمية الى عاصمة الملك الجديد منذ اوائل القرن السادس عشر .

واعتمد الاتراك على ما كتب جغرافيو العرب وترجموا الكثير من مؤلفاتهم الى التركية ، وكانت لهم محاولات في تلخيص المعلومات الجغرافية التي كانت سائدة حتى ذلك العهد .

وكانت لهم كتب في الرحلات والاسفار ، مثل كتاب « مرآة الممالك » لمؤلفه سيدي علي ، وكتاب « تاريخ السياحة » الذي تحدث فيه اوليا جلبي عن رحلاته في انحاء امبراطورية بني عثمان ، وليس من اهداف هذه المحاضرة ان اتحدث عن الجغرافية عند الاتراك .

★ ★ ★

ايها السادة

ان لنا ماضياً مجيداً فلنذكره ، ولنتخذ من امجادنا عـــدة لبناء

مستقبلنا ، وان جهات كثيرة من اراضينا لا تزال في حاجة الى ان نكتب جغرافيتها وفق المنهج الحديث ..

لقد فعل السلف الصالح الشيء الكثير ، وكانت المعلومات عن ارض العرب أوفر منها عن اي ارض اخرى ، ولن يرضى علماؤنا ان تفقد بلادنا هذه المكانة ولن يغفر لنا الوطن ان نترك للاجانب مهمة الحديث عن أراضينا ...

ان على الجغرافيين العرب في العصر الحديث واجباً يجب ان يؤدوه ، ولا أخالهم إلا فاعلين ان شاء الله ، وعلى الله قصد السبيل .

دكتور محمد محمود الصياد

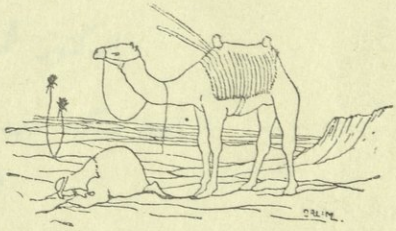

المحاضرة الثالثة

التجديد الفكري في العالم العربي في القرن التاسع عشر

الدكتور محمد أحمد خلف الله

امين مكتبة معهد الدراسات العربية العالية
بالقاهرة

= القيت بتاريخ ١٥ / ٣ / ١٩٥٧ =

سبراني ساري :

عنوان المحاضرة فيما تعلمون « التجديد الفكري في العالم العربي في القرن التاسع عشر » . وهو عنوان لا ينطبق تماماً على هذا القرن . والسبب واضح . فالتجديد فيما نعرف جميعاً ليس إلا الاتيان بجديد ، جديد لم يسبق اليه ، في ميدان الفكر أو في غيره من الميادين ، سياسية كانت او اجتماعية او اقتصادية ، وليس في المفكرين العرب من أتى بجديد في هذه الميادين طوال هذا القرن .

نعم : ان للتجديد معنى آخر يذكره رجال الدين حين يروون لنا : « انه في رأس كل مائة سنة يبعث الله في هذه الامة من يجدد لها امور دينها » ، وهو معنى لا يبعد كثيراً عن معنى الكشف ، الكشف عن قديم تراكمت عليه التفسيرات والتأويلات حتى باعدت بينه وبين الحياة . إن عملية التجديد عند هؤلاء ليست الا الرجوع الى المصادر الاولى للدين ، انه التفاتة إلى وراء يقصد منها رد الناس الى قديم انصرفوا عنه ، وأظنكم ترون معي ان هذا ليس من التجديد .

وانا حين أقول هذا القول عن هذا القرن ، لا اقصد الى الغض من شأنه ، فاني ـ علم الله ـ أجله وأقدره من حيث انه نفع بلادي وأفاد عالمي . ان حقيقة القرن التاسع عشر ايها السادة انه قرن التحولات . فقد أخذت

فيه الحياة تتحول من حياة شرقية خالصة إلى حياة تحاول ان تكون غربية ، واخذت فيه القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية تتحوّل من قيم بدوية الى قيم مدنية ، وليس هذا بالشيء القليل . انه قرن التحولات ، وقرون التحولات هي التي تحدد مصائر الأمم .

إن التجديد في هذا القرن لا يفسر بمعنى الاتيان بجديد لم يسبق اليه ، جديد نتيجة اختراع او توليد ، وانما يفسر بمعنى آخر هو استيراد جديد لم يصل إلى العالم العربي بعد . انه تسرب افكار جديدة او تسرب الحضارة الغربية بكل ما فيها من مظاهر الى محيطنا العربي .

تلك هي حقيقة هذا القرن ، وهذا هو معنى التجديد فيه .

انتقل الآن سيداتي وسادتي الى نقطة اخرى هي عرض أعمال رجال الفكر العرب في هذا القرن ، لنتبين اعمالهم ، ونعرف من أين بدأ التجديد وإلى اين انتهى .

وقبل ان اقوم بهذا العرض ، استسمحكم في اني سأضرب المثل ، وسأستمد الشواهد من اعمال رجال الفكر في البيئة المصرية . وليس ذلك عصبية مني وانما لأن مصر في هذا القرن كانت تتميز بشخصية لا تلحقها فيها أي بلد عربي آخر ، ومن اجل هذا كانت مهبط الاحرار من رجال الفكر ، لا من العالم العربي وحده وإنما من بلاد السلطنة العثمانية اجمع .

إن الدور الذي لعبته مصر في إيواء هؤلاء الاحرار غير منكور ، ومصر من هذه الناحية لا تمثل نفسها وانما تمثل العالم الشرقي اجمع . ورحم الله اديب اسحاق حين قال : وقد زعم بعض الناس انك تختص مصر في سعيك ، وما علموا ان شمول البلاء قد عمّ الشرقيين ، فما يقال في فريق منهم ينطبق على الآخر ، فان خصصت فقد حصل التعميم ، وإن عممت فان ذلك هو النفع العميم .

* * *

حين نستعرض أعمال رجال الفكر في هذا القرن لا نستطيع ان ندعي ان لهم جهوداً تذكر في النصف الأول منه . ان هـذا النصف يلحق فيما نرى بالقرن الثامن عشر وما سبقه من قرون .

وكان من الممكن ان نهمل النصف الاول من هذا القرن فلا نتحدث عنه ، ولكنا احببنا الوقوف عنده فترة نتبين فيها هذه التربـة التي انبتت هؤلاء الرجال ، الذين أدوا ادوارهم في إخـلاص في النصف الثاني من هذا القرن .

ليست هذه التربة الا المجتمع ، والمجتمع العربي في ذلك الحين ينقسم الى طبقات ، وبعض هذه الطبقات لا يصلح في اي حال من الأحوال ان يكون التربة التي ينبت فيها المجددون من رجال الفكر .

(١) خذوا الطبقات الأولى طبقات البدو والفلاحين . إنهم الاكثر عدداً ، وانهم يعيشون حياة لها تقاليدها . انهم لا يحبون التغيير من باب أولى لا يحبون التجديد . انهم يكرهون الدولة لتدخلها في شئونهم ، انهم يحبون ان يتركوا وشأنهم . وليس هذا حالهم في المجتمع العربي وحده ، وإنما هو حال هـــذه الطبقات في كل مجتمع .

(٢) وخذوا الطبقات الثانية طبقات الصناع وأصحاب الحرف اليدوية. انهم عنصر له أهميته من الناحية الاقتصادية ، وكان من الممكن أن يلعب دوراً هاماً في تجديد الحياة الاقتصادية بالبلاد العربية . ولكنهم ظلوا كما هم ، وحتى بعد أن أخذ التحول الكبير في سبيل الانتاج يهدد حياتهم . انهم محافظون شديدو التمسك بالاشكال التقليدية في ميادين الحياة والاقتصاد . انهم عاجزون عن تغيير مركزهم عن طريق قوتهم . ومن هنا لم يكن لهم نصيب في الحياة السياسية .

وليس هذا حال اخوانهم من عمال الغرب الذين مكنتهم النقابات من لعب الدور الأول في الحياتين الاقتصادية والسياسية .

(٣) وخذوا الطبقات الثالثة طبقات المثقفين ورجال الدين . ان ثقافتهم لغوية خالصة او دينية خالصة . انهم يتعلمون في المساجد أو في الاديرة . وتعليمهم لا يعدو حفظ بعض الآيات أو النصوص الادبية . وكانوا مع قلة عددهم اصحاب سلطان كبير ، ولكن سلطانهم وقف عند حد المحافظة على التقاليد الدينية والسياسية والعلمية . ومن هنا كنا نراهم يبذلون الجهد تلو الجهد في خنق أية امارة او علامة يستشف منها نمو فكرة جديدة ، انهم كانوا عقبة في سبيل التجديد .

(٤) اما الطبقة الرابعة وهي طبقة الاعيان وذوي الثراء ، فلم يكن من المستطاع ان تتحقق فكرة التجديد على ايديهم . ان مصالح هذه الفئة تنحصر في تحقيق الرخاء المادي لطبقتها . ومن هنا رأيناها تقاوم فكرة انشاء الدولة الحديثة في المجتمع العربي . انها تقف من الوظيفة القومية موقفاً ينم عن العداء . انها تعارض اي تجديد يحدث في اي ميدان من الميادين .

(٥) بقيت فئة واحدة واخيرة هي فئة العسكريين . انها الفئة التي حملت علم التجديد وذلك عن طريقين :

الاول : استخدام الاسلحة الحديثة واستقدام الفنيين من رجال الغرب لتدريبهم عليها . فلقد كان هؤلاء من بواعث التجديد . لقد قدموا وفي ادمغتهم افكار حديثة لقنوها لمن اتصل بهم من الضباط والامراء .

ولقد أنشئت المدارس الحديثة ، مدارس الجيش والمدارس التي تتصل بها كمدارس الطب والهندسة ، وكانت هذه المدارس جميعها هي البيئة التي يتلقى فيها ابناء المجتمع العربي دروساً جديدة وافكاراً جديدة .

الثاني : عن طريق البعثات ، فلقد كان المتفوقون من ابناء هذه المدارس يرسلون في بعثات الى الخارج . إلى فرنسا بصفة خاصة ، وكانوا يعودون وقد اتصلوا بالحضارة الغربية وآمنوا بها . وكان منهم الامراء الذين سيتولون امور البلاد . هذه الفئة هي التي حملت علم التجديد ، ورجالها هم اعلام القرن التاسع عشر .

★ ★ ★

أيها السادة

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتبين تيارات فكرية ثلاثة ، تيار يتمثل فيه اصحاب الثقافات القديمة ، الثقافات اللغوية والدينية . وتيار يتمثل فيه اصحاب الثقافات الجديدة . الثقافات العسكرية والمدنية.

ولقد كان وجود هذين التيارين الى جانب بعضهما ضاراً بمصالحنا . إنه ازدواج في التفكير . إنه عامل فرقة وانقسام في الرأي . إنه الذي يدفع الى أن يكون لنا في كل مسألة رأيان . رأي ديني ورأي مدني . ولقد كانت المحاولة في القضاء على هذا الازدواج هي المنشئة للتيار الثالث .

والتيار الثالث يتمثل فيه القديم والجديد . إن اصحابه يحاولون القضاء على الثنائية في التفكير . انهم يقربون بين المدنية والدين .

هذه التيارات هي التي لعبت الادوار المهمة في عملية التجديد الفكري في العالم العربي في القرن التاسع عشر . وسنعرض عليكم الآن الدور الذي لعبه كل جماعة من هؤلاء .

وأصحاب التيار الاول لا يعدون من المجددين في شيء . انهم على العكس من ذلك تماماً فلقد كانوا من أهم العقبات التي قامت في سبيل التجديد . ولقد كان من السهل علينا ان نتجاهلهم او ان نهمل شأنهم، لولا ان من المجددين رجالاً وقفوا انفسهم على السخرية بهم والكيد لهم . لقد كان أصحاب الثقافات القديمة الألهية التي يتلهى بها امير المؤمنين ويلهي بها الناس، ولقد كان ولي الدين يكن من القلائل الذين صوروهم فأحسنوا التصوير . انه يدلنا على حقيقتهم من الناس ومنزلتهم من الدين ومكانتهم عند امير المؤمنين . انه يفضحهم . استمعوا اليه حين يقول : رجال الدين في كل أقطار الارض حرب على الناس . فهم يبدون غير مايخفون ويأمرون بما لا يعملون ..

هؤلاء الرجال يحللون من الامور مايوافق اهواءهم ، ويحرمون منها مايخالف اهواءهم . يسطون على الناس بسيوف من الايمان الكاذب ..

فما تحكم عبد الحميد بالامة الا بنصر هؤلاء . أما جنوده فأولئك منخدعون ولقد فطنوا لذلك . فجعلوا صلواتهم وابتهالاتهم كلها وقفاً لظالم الامة . استجلبوا له القلوب الخالية والنفوس الطامعة فوقفوا كلهم لقاء الاحرار . يكيدون لهم كيداً ، وكانوا يدعون المنفيين في بلادهم اعداء الدين والدولة . وكانوا يذمون الشورى ويذمون من يدعو اليها . ولو أمكنتهم غرة من الاحرار لاجتثوا أصولهم وأبادوا أعقابهم ، فاذا طهرت البلاد من شر هذه الفئة راجعتها السعادة .

واستمعوا إليه ايضاً حين يقول مصوراً الخليفة واعوانه ، ورأى بني الشرق مولعين بقديمهم ، لايريدون ان يبدلوا منه غيره ، فمشى على أهوائهم وفتنتهم بالهبات ، وفتح لهم باب الحسد ففرق بينهم ، وجعل بعضهم رقباء على بعض .

ثم دلته تجاربه ان خير ما يؤيد به عرش في بلاد لم تزل على عهد البداوة ان يبدو من السلطان تعصب للدين . فجعل يستدني من مجلسه اولى العمائم ويعمر لهم التكايا ويشيد لهم المساجد ويواصل بره أهل النسك والزاهدين فيقولون هذا سلطان تقي بار يحب أهل البر والتقوى ، وهم لا يعلمون ماوراء بره وتقواه . على انه نال بغيته فجعل لنفسه منزلة في قلوب المسلمين .

هؤلاء هم اصحاب التيار الاول وهم كما ترون لم يكونوا من المجددين وانما كانوا من العقبات في سبيل التجديد .

أما أصحاب التيار الثاني فهم المجددون حقاً ، انهم بعثوا الحياة في القديم ، واستجلبوا من الخارج جديداً لم يكن قد وفد بعد .

بعثوا الحياة في الشعر العربي فأعادوا له تقاليده الأولى وجزالته ورصانته . ان شعر البارودي في هذه الفترة لايقل روعة عن شعر الشعراء الاقدمين .

وادخلوا فن التمثيلية وأنشأوا المسرح العربي . ان التمثيليات التي عربها أديب اسحاق وسليم نقاش ، والمسرحيات التي لعبها القباني والسيد عبد الله نديم خير مايقدم من شواهد .

وفي ميدان المعارف نجد رفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك .

أما الميدان السياسي فهو الميدان الذي انصرف اليه الاحرار في ذلك الزمان ، ومع ان عددهم لم يكن كبيراً الا انهم بذلوا من المجهودات ما يعد عظيماً لقد كتبوا في كل شيء يمكن ان يكتب فيه .

كتبوا في الوطن والوطنية ، وكتبوا في الحقوق المدنية والسياسية ، ووقفوا طويلاً عند الحريات السياسية والنظم النيابية ، وتحدثوا في شؤون المرأة وحقوقها ، وبعثوا الوعي القومي من مرقده ، ونادوا بفكرة التحرر والتخلص من نفوذ الاجنبي وسيطرته .

كتبوا في كل هذا وخطبوا وحاضروا . وخير من يمثل هذه الفئة من المجددين الكاتب السوري الاصل أديب اسحاق ، صاحب جريدة مصر والتجارة ثم جريدة القاهرة .

تحدث أديب اسحاق عن مسائل كثيرة وحاول ان يدفع الناس الى الامام . طالبهم بالتحرر من ربقة الاجانب ومن ربقة الظلمة والمستبدين . وبشر بالفكرة الدستورية وطالب بالحياة النيابية .

ثم كان من الذين يبصرون الناس بما لهم من حقوق وبما عليهم من واجبات .

ان كتابه الدرر يزخر بالكثير من الافكار الحية النابضة ، وقد يكون من المستحسن ان اعرض عليكم من الفقرات مايبين مذهب الرجل السياسي وجهاده في سبيل الامة العربية .

واليكم أولاً ما كتبه عن « المبعوثان » وهو المجلس النيابي الذي لم يكد عبد الحميد يفتتحه حتى اغلقه .

ان اديب اسحاق يسخر من هذا المجلس ومن نوابه ، انه يحض اخوانه العرب ، وخاصة ابناء سورية على ان تكون لهم نظمهم النيابية السليمة ، استمعوا اليه حين يقول تحت عنوان « مجلس المبعوثين » .

ولا أقول المبعوثان وان كرهت مستعربة الترك او مستتركة العرب . مجلس لم تنشئه ثورة الخواطر ، ولم تؤيده ارادة الامة ، ولم يؤلفه الرأي العام، وانما كان منشأه القصد الذاتي ، وعماده الارادة المفردة ، ومصـــدره آراء الزعماء ، فما ظهر حتى اختفى ، وما بنى حتى عفا .

تألف من قوم مختلفة اجناسهم ، متنوعة لغاتهم ، متباينة آراؤهم ، متغايرة اهواؤهم ، فمثل البرج القديم في بابل العثمانيين ، وتلا فيه هاتف وحي الاستبداد ، لانطق الا باللسان المستعار الحروف، الملفق الالفاظ ، فامتثلوا ، وقالوا لا قيد في البيان ولا حجر على الافكار فاستبشروا ، حتى اذا عدل نبهاؤهم عن طريق المداجاة ولم يسجـدوا لصنم الخضوع ، أتاهم النذر بالعذاب انهم كانوا غـير مخلصين ، ثم اهبطوا من العاصمة مبعدين .

ولا يجحدُ ذكاء النبهـاء من اهل تلك الندوة خصوصاً أبناء اللغة العربية ، ولاتمحى من الاذهان مقالات مبعوثين من حلب وسوريا والحجاز ، وانما يلام اولئك الاذكياء على ان رضوا بالبعثة غير صادرة عن الرأي العام ، وغير مؤيدة بمن يغضب لردها على صورة تنفر منها النفوس. اذ لو كانت المبعوثية صادرة عن آراء الامة لما نقضتها الدولة جزافاً مخافة ان يغضب الناس لنوابهم فتقع الفتنة في البلاد تزيد احوالهـا فساداً ، واعمالها كساداً ، ولكنها صدرت عن رأي واحد او غير واحد من رجال الدولة . او كما يقول احدهم : عن محض القريحة السلطانية الجليلة ، فكانت من قبيل الصدقة والاحسان وما على المحسن من سبيل وما استرداد الهبة ، واستعادة الاحسان ، بأعجب من إلحاح السائل المردود ، وابرام الملتمس المطرود ، فقد رأينا في احدى الصحف مقالة ضافية الذيول يسأل صاحبها سؤال مقرر : ماذا جرى على مجلس المبعوثان ؟ ثم يبسط تاريخه وما حصل له من الوقع والشأن عند الاجانب فضلاً عن العثمانيين . ويعترف اعتقاداً ، او استرضاء بأن الدولة تبرعت بانشاء ذلك المجلس رحمة ومنـة وإحسانا ثم يلتمس اعادته محتملاً ذل الكدية في جنب المصلحة العامـة مبارياً في النشد والسؤال قراء سورة يوسف وان جل عن ذلك مقاما .

فما لاخواننا السوريين يرتضون السؤال مبرمين فيه والعهد بهم ان

يأنفوا من الصدقة غير مسؤولة ، وما بالهم ـ أنعم الله بالهم ـ يعالجون داء عقاما ، ويستمطرون سحاباً جهاماً ، ويعودون الى التجربة بعد سبق الاختبار ووفرة اسباب الاعتبار .

أيأملون النفع من مجلس تتصل أسباب حياته بارادة واحد من الناس متعرض كسائر ابناء النوع للصفو والكدر ، والرضا والغضب ، أم يرجون البقاء لهيئة لا تثبت الا بمقدار ما تنحصر اعمالها في دائرة الخداع ، وتدور اقوالها على محور المداجاة ، فان تجاوزت ذلك الحد ، وجب عليها الزجر والحد وكان الفض خاتمة اعمالها ، والنفي جزاء رجالها ، افليس الاجدر بشأنهم ان يعدلوا عن ذلك السعي الى تقوية مجالسهم البلدية ، بتوفير الحقوق ، وتنظيم الانتخاب ، لتكون مغارس للنواب ، ثم يسعوا الى واليهم الصادق العزم بأن يجعل مجلس ولايتهم العالي مجلساً نيابياً ينتخب أعضاؤه بالرأي العام للنظر في شؤون الولاية تدبيراً واصلاحاً .

ذلك رأي وطني يضرب في الارض التماس الحرية ، يبديه لاخوانه ومواطنيه ، فان صادف القبول فتلك رمية من غير رام ، وإلا فهي مظنة ذي غيرة فلا تثريب ولا ملام .

هذه ايها السادة ـ أقوال أديب اسحاق في القرن التاسع عشر يوم ان كانت سورية ولاية عثمانية ـ اي يوم ان لم يكن لها من امرها شيء . وهي اقوال ترون فيها الصدق والاخلاص في الايمان بالفكرة الدستورية والتربية الوطنية انه يعلم اخوانه السوريين السبيل المؤدية الى قيام حياة نيابية سليمة .

حياة نيابية تبدأ بالتمثيل السليم في المجالس البلدية لتكون المدرسة السياسية التي تعلم السوريين كيف يؤدون واجباتهم ويحرصون على حقوقهم في الحياة النيابية .

ثم ها أنتم قد سمعتم رأيه في النشأة السليمة للحياة النيابية ، انه لا يريد ان يكون البرلمان او حق التمثيل النيابي منحة من الجالس على العرش او من امير المؤمنين . انه يريده ان يكون حقاً للشعب ، يحرص عليه الشعب ويحميه .

كان أديب اسحاق ديمقراطي المـــذهب السياسي ، وكان يؤمن في الوقت نفسه بالقومية العربية .

يريد القوة لاخوانه العرب ، ويريد توحيد سياستهم امام العدو ، يريدهم اقوياء احرارا .

واليكم ما كتبه مبشراً فيه بالجامعة العربية وداعياً فيه الى قيام الوحدة على الاساس اللغوي لا الاساس الديني .

يقول تحت عنوان « دولة العرب » :

شعلة سرت من الحجاز فأنارت الشام ، والعراقين ، ومصر ، والمغرب ، والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً ونارا ، فهي بنورهـا تستضيء ومن نارها تقتبس ، ثم هبت عليها عاصفة الفتنة ، ونكباء المحنة ، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصور في أفق التذكر ؛ بل آية رسمتهـــا يد القدرة في كتاب الايام ، فتلتهـــا ألسن العزيمة على محل الاقدام ، فدفعت جاهلية العرب الى الغارة على من اترفتهم النعمة من متمدنة الارض .

فمن رأى العرب مئات من الرجال يفتحون مصر الفراعنـة ، وملك القياصرة ، وبلاد القساطلة ، وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم إذ يراهم ألوف ألوف يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت .

ومن سمعهم يقولون لاميرهم : ان رأينا فيك اعوجاجاً قومناه بحد السيوف ، يعجب من رضاهم بفساد الاحكام ، وصبرهم على التواء الحكام . ومن وقف على شروح ابن رشد ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبر ، وتقارير الغزالي ... يندهش اذ يلقاهم مقتصرين من العلم على مالا يجلب خيراً ، ولا يدفع ضيراً ، يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام او بأضغاث الاحلام ، او ينيطون اسبابهـا بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لايعلمون ، وينذهلُ إذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين ، والجهلة المتجاذبين ، يقبّلون منهم أكفاً لاتعرف الطهارة ، ويستحلبون منهم ابداناً أنفت منهـا الستارة ، حتى

صار الكسل عندهم من المعايش ، والخمول من المفاخر ، والجهل من الملاجيء والذهول من الكرامات ، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدد الاوهام ، ويبدي الحقيقة للافهام ، وكأن لم يكن بينهم من عابد فاضل يدفع البدع الشنيعة ، ويجلو حقيقة الشريعة ، وكأن لم يقم فيهم من شجاع نبيه يسعى في ضم العصبة ، ولم الشمل ، وجمع الكلمة ، على اقامة امر العدل .

كلا والله ثم كلا ؛ انهم لا يعدمون عالماً ناصحاً ، ولا نزيهاً صادقاً ، ولا نبيهاً همهاماً ، وانما اولئك نفر يمنعهم الخوف من الاقدام ، ويردعهم اليأس من الاهتمام .

ولكن لاخوف ياقوم ولابأس : وكيف تخافون ومنكم القائل لايبعد من رزق ولايقرب من اجل ان يقول المرء حقاً ، وكيف يتأسون وتاريخ آبائكم يقرب الآمال .

ألستم في الارض التي اقلتهم ، وتحت السماء التي اظلتهم ، او ليس ماؤكم هو الذي وردوه ، وهواؤكم هو الذي انتشقوه ، فما بالكم تعجزون عما استطاعوه ؟ اشاخت الارض فصار ما تنبت ضئيلاً لايستطيع الى النمو سبيلا ... وإلا فما للحجاز محجوز الانوار ، وما للشام مشؤوم الاحوال ، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، ومالحلب متوالية النوب ، وما لليمن فاقد اليمن ، وما لتونس عديمة الانس ، وما للغرب منهمل الغرب .

ألم يكن في كل هذه الاقطار نفر من اولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون أحوالها قبل التلاف متظاهرين ، متوازرين كالبناء المرصوص أو كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلا حصيناً لا تؤثر فيه العواصف ولا تضعضعه الزلازل .

بل ماضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد ، قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة تليها العاصفة ،

فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ووقعت الواقعة فصرنا كأن لم نغن بالأمس ولم نكن شيئاً مذكوراً . فهلمّ ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن إخوان تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وإن تعددت الأفراد إنسان .

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سوى ، أم لا يعلمون أن مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرا في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وإرهابا ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

تلك صنوف مما كان ينشر في الجرائد المصرية لذلك الحين ، يقرر فيه الكتاب السياسيون حقوق المواطنين . ويبصرونهم بما عليهم من الواجبات ويشدونهم شداً إلى مثل سياسي أعلى لم يتحقق الا في القرن العشرين .

ولست في حاجة إلى القول بأن هذه المسائل جميعها كانت جديدة بالنسبة للبيئة العربية في ذلك الوقت . فلم يكن الأساس المدني للحكم قد عرف فيما قبل . ولم يكن الشمتيل النيابي على هذه الصورة قد استقر في أي بلد عربي ، ولم تكن فكرة القومية العربية مؤسسة على جامعة اللسان لا على المذهب والدين قد سمعت فيما قبل القرن التاسع عشر . إن هذه جميعها أفكار جديدة .

ولو تركنا الجانب السياسي واكتفينا بما ضربناه من مثل أو أوردناه من شواهد ورحنا نجول الميادين الاجتماعية لوجدنا فصولا قيمة كتبها الكاتبون عن حقوق المواطن . فهناك التعليم وجعله قومياً مدنياً بعد أن كان دينياً وبطل هذا في مصر علي باشا مبارك .

وهناك حقوق المرأة . حقها في التعليم وحقها على زوجها ، وبطل هذا الميدان الشيخ احمد فارس الشدياق . وقد يكون من المستحسن أن نقص عليكم رأي الشدياق في الحياة الزوجية ، إنه لايرضى عن التعدد . إنه يطالب

بزوجة واحدة ، ويورد على ذلك دليلا ما اصدقـــه . إنه يقول لنا ان المولى سبحانه وتعالى حين خلق آدم خلق له زوجة واحدة هي حواء . خلق له زوجة واحدة في الوقت الذي تطلب فيه الأرض العمار وكثرة النسل ، ولولا ان الأصل في الزواج الوحدة لما خلق الله له حواء واحدة وانما خلق له حواءات كثيرات.

ويؤسفني في حديثي عن اصحاب هذا التيار ان اقرر ان الجـانب السياسي قد شغلهم عن كل شيء . وان الحرية كانت قبلتهم التي يتوجهون اليها صباح مساء . ومن هنا كانت جهودهم في غير هـذا الميدان قليلة . بل قد لانرى لهم جهوداً في ميدان مثل ميدان الاقتصاد . ان السياسة قد شغلتهم كما قلت ولن اطيل اليكم في الحديث عنهم فقد يكفي ما مضى ، غيراني اشير الى شيء اخير هو ان السياسة المصرية في ذلك الوقت لم تكن تمشي مع السياسات العربية الاخرى . لقد كانت مصر في ذلك الزمان مستقلة استقلالا داخلياً . وذلك بدوره جعـل الصراع السياسي في مصر بين الشعب وبـين الخديو ، ومن هنا لم تتولد الكراهية بين الشعب والخليفة كما هو الحـال في البلاد العربية الاخرى وانما تولدت بين الشعب والخديو .

هذا الذي نقول جعل تعلق المصريين بالخليفة اقوى من تعلق غير المصريين به . وهذا احد الأسباب التي جعلت الفكرة العربية مختلطة بالفكرة الاسلامية في اذهان كثير من المصريين . ولعله ان يكون السبب في ان ظهور فكرة القومية العربية في مصر قد كان متأخراً .

★ ★ ★

ننتقل الآن سيداتي وسادتي ، الى الفئة الثالثة نتحدث عنها فئة الذين جددوا بمقدار او الفئة الذين جمعوا بين القديم الخالص والجديـد الخالص وسترون انهم قد لعبوا دوراً كبيراً في الحياة العربية . دوراً يجعلنـا نعتقد ان اثرهم كان اكبر من اثر السابقين . زعماء هذه الفئة كما ذكرنا السيد جمال الدين الافغاني ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي .

قلنا إن الفئة الثالثة التي جمعت بين القديم والجديد قد حاولت جاهدة ان تقيم التجديد على اساس من الدين. حاولت ان تقوم باصلاح ديني تنتهي منه الى اصلاح سياسي. وابطال هذا الميدان ثلاثة هم السيد جمال الدين الافغاني، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده المصري، والسيد عبد الرحمن الكواكبي السوري الحلبي.

كان هؤلاء يتمثلون الاصلاح الديني على الشاكلة التي تم بها في الغرب. كانوا يعرفون الحركة البروتستانتينية وما ادت اليه من يقظة عقلية وحركات سياسية فحاولوا ان يفعلوا ذلك في مجتمعنا هذا. وانا حين اقول عنهم هذا القول لا استنتج ولا افترض فقد صرحوا هم بهذا في اكثر من موطن.

يتحدث السيد جمال الدين مع الشيخ عبد القادر المغربي عن احوال المسلمين وما هم فيه من انحطاط وتأخر، فيسأله الشيخ المغربي عن الوسيلة الى النهضة فيذكر له الاصلاح الديني والحركة اللوثرية.

ويتحدث السيد عبد الرحمن الكواكبي عن احوال المسلمين في كتابه «أم القرى» فيرى رأي الافغاني من حيث التأخر والانحطاط. وهو حين يصف الداء والدواء يسردهما على اسماعنا في شكل محاورة يقوم بها نفر من المسلمين من البلدان المختلفة، ولا ينسى ان يجعل احد المتكلمين مستشرقا أسلم بعد ان كان يؤمن بالمذهب البروتستانتي. وهذا المستشرق يقص على اسماع اخوانه من المتحاورين ما ادت اليه هذه الحركة من نشاط.

والاصول التي يبني عليها الشيخ محمد عبده تجديده الديني تقوم هي الاخرى على اصول تشابه تلك التي قام عليها الاصلاح البروتستانتي. انها فيما يذكر تلميذه الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ثلاثة:

«الأول منها: تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان.

والثاني : اعتبار الدين صديقاً للعلم لا موضعاً لتصادمهما ، اذ لكل منهما وظيفته التي يؤديها . وهما حاجتان من حاجات البشر لاتغني احداهما عن الاخرى .

اما الثالث فهو : فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى .

ومنابع الاسلام في سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه : « هي الكتاب وقليل من السنة في العمل »

والصلة واضحة بين هذا الذي يذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق وبين الاصلاح البروتستانتي ، فقد قام هذا الاصلاح على اساس منح العقل البشري حقه في فهم الكتاب المقدس دون الرجوع الى الرهبان او القساوسة وتلك كانت خطوة في سبيل تحرر العقل البشري من سلطان رجل الدين وهذا هو الذي اراده الاستاذ الامام .

والاصلاح الديني حين حرر العقل البشري من سلطة رجل الدين حرره أيضاً من سلطة رجل الدنيا . ذلك لأن الذي منح نفسه حق مناقشة ملكوت السموات يستطيع أن يمنح نفسه حق مناقشة ملكوت الارض . إنها الحرية العقلية التي اكتسبها العقل البشري ولا عليه أن يستخدمها في كل مجال . وتلك كانت خطوة هامة في سبيل الاصلاح السياسي والتقدم العلمي . وهذا أيضاً من المسائل التي أرادها الاستاذ الامام .

على أنا لو استمعنا إلى هذا الذي يذكره الاستاذ الامام عن حق المسلم في فهم كتاب الله ، وعن مركز الخليفة لتبين لنا إلى أي حد يتصل إصلاح أولئك بهؤلاء .

يقول الاستاذ الامام : أصل من أصول الاسلام انتقل اليه ـ وما أجله من أصل ـ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها .

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عنـــد

الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يدع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه. على أن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمناً ولا مسيطراً..

ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الارض ولا في السماء. بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده. ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده. وليس لمسلم - مهما علا كعبه في الاسلام - على آخر - مهما انحطت منزلته فيه - إلا حق النصيحة والارشاد..

وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسول الله.

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم..

فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه. الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم. ولا هو مهبط الوحي ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة..

هو - على هذا - لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ولا يرتفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الاصابة في الحكم.

ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره.

والآثار التي ترتبت على هذا المنهج في الاصلاح كثيرة:

فأولاً قام الاستاذ الامام بتفسير القرآن الكريم في دروسه التي كان يلقيها على طلابه في الأزهر ـ وهي التي جمعها السيد رشيد رضا في تفسير المنار ـ وفي هذا التفسير نجد حلولا لمشكلات كثيرة كما نجد فهما جديداً لمشكلات قديمة.

نجد فتاوى بشأن أكل اللحوم المجففة والمعلبة التي ترد من الغرب، ونجد فتاوى بشأن الأرباح التي تؤخذ عن النقد المودع في صناديق التوفير. ونجد أحاديث كثيرة عن حقوق المرأة في التعليم، وعن حقوقها في الزواج ونجد أحاديث قيمة من الناحية الاجتماعية عن الطلاق وتعدد الزوجات.

يقول الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق عن هذا الجانب من حياة الأستاذ الامام « وجهة الطرافة في تفسير الأستاذ هي حسن الطريقة في البحث ولطف التصوير لمعاني القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وادراكها حاجاتها. والشيخ في كلا الامرين متأثر بمنهاج الفكر الحديث ».

وثانياً: حاول الاستاذ الامام ان ينهي الخصومة بين العلم والدين، تلك الخصومة التي اثارها انصار القديم حين حرّموا تعليم العلوم الحديثة وعملوا على تنفير الناس منها. فقد قرر الاستاذ الامام في صراحة ان لا غنى للمسلم عن تعلم هذه العلوم لا لانها اساس من اسس تقوية الشعوب وتحضرها فحسب وانما لان الدين نفسه لا يستغني عنها. ان الايمان بوجود الله يجب ان يقوم على العلم اولاً وقبل كل شيء. ان دور الكتاب والسنة في هذا المقام ليس بذي اثر فعّال. واليكم ما قاله الاستاذ الامام في هذا المقام « للاسلام في الحقيقة دعوتان ـ دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده، ودعوة الى التصديق برسالة محمد عليه السلام.

فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب..

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي . فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية .

فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة ، فانه لا يعقل ان تؤمن بكتاب انزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز ان ينزل كتاباً ويرسل رسولا » .

والاستاذ الامام يمضي على هذا في تفسير كتاب الله ، وارى انه متأثر في هذا الذي يرى بالفلسفة الطبيعية .

هذه هي الاسس التي يقوم عليها الاصلاح الديني عند هؤلاء ، وهي اسس تنتهي الى منح العقل حريته التامة في فهم الدين ، وهي كذلك تحاول ان تمنحه الحرية التامة في الفهم السياسي والمواقف السياسية .

يقوم الاصلاح السياسي عند هؤلاء على اساس العلاقة التي تقوم بين الفرد والدولة او بين الدولة والدولة .

وفي العلاقة الاولى يرى هؤلاء ان للافراد حقهم الذي يقرره الدين في التوجيه وفي النصح والارشاد . ان القرآن الكريم يقرر الشورى . وان الامة التي لا يكون لها في شأنها نصيب لا تلبث ان تضعف وتضمحل .

جاء في العروة الوثقى تحت عنوان « الامة وسلطة الحاكم المستبد » ما يلي : ان الامة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ، ولا اثر لارادتها في منافعها العمومية ، وانما هي خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون ، ومشيئته نظام ، يحكم مايشاء ويفعل ما يريد . فتلك امة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير . فتعتورها السعادة والشقاء ،

ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر. ويتناولها العز والذل.»

أما في العلاقة الثانية فيرون رأياً يخالف رأي السابقين. إنهم ينادون بالوحدة الاسلامية لا الوحدة العربية. ويريدون من وراء هذه الوحدة ان يكون المسلمون أقوياء يقفون في وجه العدو ويتغلبون عليه، أو على أقل تقدير لا يمكنونه من أنفسهم وبلادهم. وإليكم ماجاء في العروة الوثقى تحت عنوان:

الوحدة الاسلامية

اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. اخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الارض الا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم..

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها اساتذة العالم.

واخذت ممالكهم تنقص اطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم ان لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الاجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته.

ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض اعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما اصاب ملتهم من تفرق الآراء وتضارب الاهواء، ولولا وجود الغواة من الامراء، ذوي المطامع في السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم بغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم، ولبى جميعهم نداء واحداً.

ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم الا الى تنبه افـــكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفـــاق آرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم الناشيء عن احساس بما يطرأ على الملة من الاخطار . .

ان من أدرنه الى بيشاور دولاً اسلامية متصلة الاراضي ، متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن الخمسين مليونا ، وهم ممتازون بين اجيال الناس بالشجاعة والبسالة .

أليس لهم ان يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم ؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم .

فالاتفاق من اصول دينهم ، هل اصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ؟ .

هذا آن الاتفاق ، هذا آن الاتفاق ، الا ان الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . .

ولعل امراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة اعمال الســالفين وهموا بملافاة امرهم ، قبل ان يقضى عليهم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم .

ورجاؤنا ان اول صيحة تبعث الى الوحدة وتوقظ من الرقـــدة ، تصدر عن اعلام مرتبة واقوام شوكة .

ولا نرتاب في ان العلمـــاء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف ، والله يهدي من يشـاء ، ولله الامر قبل ومن بعد . .

* * *

هذه سيداتي وسادتي ، الفئات التي قام على اكتافها التجديد الفكري في القرن التاسع عشر ، وتلك هي الخطوط الكبرى للتيـارات الفكرية في

هذا القرن عرضتها عليكم في ايجاز ، وارجو المعذرة من التقصير فليس جهدي الا جهد المقل .

وقبل ان اترك هذا المقام اشكركم اهالي حلب . اشكركم ان مكنتم البلدية من ان تقوم بهذا الجهد الضخم ، جهد استقدام محاضرين من مصر ، واشكركم ان مكنتم مدير دار الكتب الوطنية من القيام بهذا المجهود العلمي الذي يقوم به ويخدم به الثقافة العربية والثقافة الانسانية .

ثم اشكركم على ان تفضلتم فحضرتم للاستماع الى موضوع ليس ابن الساعة الا عن بعد .

والسلام عليكم ورحمة الله

الدكتور

محمد احمد خلف الله

المحاضرة الرابعة

بين المعري وطه حسين
وأثر المرأة في كل منهما

الأديبة السيدة وداد سكاكيني

= ألقيت بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٥٧ =

لاح لخاطري طيف ابي العلاء حين كرمتني هذه الدار بدعوتها للمحاضرة والزيارة ، فقلت لنفسي : كيف أجوز بلدة المعرة وجارة أبي الفداء إلى دارة الحمدانيين التي أحبها ابو العلاء وقدره قدره علماؤها وحكماؤها ، ولا أتحدث بأدب هذا الانسان الفذ ، الذي طالما شغل الباحثين والمفكرين في الشرق والغرب ؟ .

وإذا قيل ما اكثر ما قيل في المعري ، فان الحديث عن هذا الأديب العبقري لا ينقطع ولا ينتهي ، ولو مرت الف عام ثانية على ذكراه ، فان فيه جوهراً لا يبلى ، وشعاعاً لا ينطفىء ، ولئن تعددت المؤلفات في شأنه وأثره فان لكل كاتب او ممحص رأياً وفناً او زاوية ووجهة يرى منها ما لا يرى غيره . .

وقد أفسح أدب الغرب مجـــال القول أمام الصور الفنية والفكرية حتى أن رواية « Amphitrion » التي وضعها الشاعر الهازل اللاتيني « Plaute » في القرن الثاني قبل الميلاد ، لكي تمثل على مسرح آثينا المدرج ، أعطاها روح التداول والتجدد خلال العصور فمارس فكرتها بعده كثيرون ، منهم « Rotrou » الفرنسي الذي صنع رواية مثلها في أعقاب القرن السابع عشر ، وسماها باسمها ، وقد استقت روحها من الاولى ، وبعد هذا الأديب أعجب موليير بهذا الموضوع فأعاده بشعره ، ولقد تسلسل وتواتر على أقلام الكثير حتى أدرك عصرنا ، فوضع الكاتب المشهور جان جيرودو رواية امفيتريون

مرقومة بالعدد الثامن والثلاثين ، فليس عليَّ حرج إذا اخترت موضوعي « بين المعري وطه حسين وأثر المرأة في كل منهما » .

ولعلكم ايها السادة والسيدات ، تذكرون كلمة ترجمها العصور والأجيال ، ويرويها خلف عن سلف ، وكأنها اسطورة تقول : كثيراً ما تلتقي المصادفة والأحداث وتتشابه فيأتي كل الف عام إلى العالم انسان فنه ، وقد جاء هذا الانسان معرة النعمان ، معجزةً فكرية خالدة على الزمان ، قال فيه شاعر بلدكم حلب الامير ابو الفتح ابن ابي حصينة (١) وكان من صحبه :

تتصرَّمُ الدنيا وتأتي بعدهُ أمم وانت بمثله لا تسمعُ

وقد ترادفت قرون وشعوب ، حتى أتى زماننا بعد حوالي الف عام من وفاة المعري بمعجزةٍ فكرية في نده وصنوه طه حسين ، وكأن القدر قد ربط بين هذين العلمين برابطة وثيقة فلما طلع عبقري مصر على دنيا العرب بأدبه الحر النضر ورسالته التجددية في البحث والفكر والانبعاث كانت عنايته الاولى منصرفة إلى دراسة المعري وتحليل أدبه وفلسفته ، وتصوير حياته وعصره ، إذ رأى بينه وبين هذا المكفوف العجيب ترابطاً روحياً قوياً ، وتشابهاً في هذه الآفة المحتومة لحقت كلاً منهما في أول صباه ، فأثرت في حياته وادبه اثراً غير قليل (٢) .

لقد عاش طه حسين مع ابي العلاء ، في مقامه وسفره ؛ وفي شبابه وكهولته ، ووقف عمره على النظر في شعره وسيرته ، وفي رأيه وحكمته منذ عام ١٩١٤ ، لم يفارقه يوما ، وما استطاع ان يغفل عنه وينساه ، مهما شغلته الظروف والحوادث ، فاذا وقف ليخطب أو جلس ليحاور ويدرس استشهد بشعر المعري ، وإذا انتقل من بلده وبيته صاحبه خيال صاحبه ، وجدد ذكراه بمقال او كتاب ، ولم يكن القدر بتصاريفه هو الذي جعلهما

---

(١) أبو العلاء وما اليه ٢٥٨ سنة ٢٥٩

(٢) ذكرى ابي العلاء ص ط من المقدمة

يلتقيان على بعد في الزمان والمكان ، بل إن حياة الفكر وروعة الأدب وضراوة المحنة هي التي جمعتهما وشدت الوثاق بينهما ، لكنهما اختلفا في مواضع كما اتفقا في مواضع اخرى ، ففي ضوء هذا الاتفاق وظلمة ذلك الاختلاف أبسط كلامي .

* * *

لعل اول ما جمع بين الاثنين هو ضمور النور في اعين الأديبين ، لقد تبرم ابو العلاء بعماه فكان مصدر شقائه وبلواه ، ولولا العمى هذه الآفة العنيفة التي يسميها علماء النفس في عصرنا مركب نقص لما كان أبو العلاء بماشق على نفسه وكلفها ، وفيما آتاه الله من بصيرة وعبقرية وإلهام ، أعجوبة الدهر وأحدوثة الفكر في تاريخ العرب .

كانت هذه العلة الوبيلة التي شاركت في تكوين المعري وتركيب مزاجه وطبعه تنغص نفسه ، وان لم يعش من أجل هذه النفس ، فقد وهب حياته للفكر وللانسانية المعذبة .

لكن نفسه المنغصة التي ظلمها بسجون ثلاثة كانت دائماً مصدر قلقه وثورته ، فحملها هموم الدنيا واخذها بالعنف والمكروه ، ولما ضاق ببعض الغلاظ والحساد ممن لم يتورعوا عن الاساءة إليه هان لديه المكروه الذي ابتلي به وإن كان منه مكابرةً وتجلداً ، إذ كان يعتاده الشعور بالكمد والنقمة حيناً ، وحيناً يجد في ذهاب العينين صون الجسم عن التطوح ، وإذا اضطرب ظلامه وضجت آلامه دعا إلى رحمة الأعمى ، على ان ابا العلاء قد استطاع ان يرى بلحظ الغيب والبصيرة ما لم ير المبصرون ، فقد تصور في حدة ذكائه ان القراءة للمكفوفين يمكن ان تكون باللمس فسبق بهذه الفكرة الرائعة اختراع « برايل » صاحب الكتابة البارزة التي فتحت للعميان عالم المبصرين منذ القرن الماضي ، واليها اشار المعري بقوله :

كأنَّ منجمَ الأقوام اعمى لديه الكتب يقرؤها بلمسِ

رأى ابو العلاء ببصيرته الالهية الأعاجيب ، ولا يستطيع ان يدرك

سر ذلك الظلام المنير الا من كابره وعاناه من ذوي المواهب والعبقريات ، ولو ان المعري اتيح له ان يرى ليلته الطويلة التي صابرها موصوفة في كتاب او قصة كالتي وصفها اندره جيد في ظلام عيني جرترود فتاة قصة « السمفونية الرعائية » لو قيض له ذلك لعزاه ان في الادب الغربي منذ عهد ملتون الشاعر المكفوف حتى قصة آندره جيد دنيا عجيبة يشعُّ ظلامها بأكثر مما يشع النهار بالنور .

ولئن هون ابو العلاء على نفسه خمود البصر ، فانه اطلع في لياليه كواكب ، ورصد بروجاً ، ووصف غيداً حول اعناقهن النجوم ، وربما لعب الشطرنج وساجل ملاعبيه ، اما طه حسين الذي احس بينه وبين صنوه المعري تشابهاً وتقارباً ، فقد تحدى العمى بأكثر مما صنع ابو العلاء ، إذ راح يشهد المسرحيات وروايات السينما ، ويتحدث عنها بكتبه ومقالاته ، ويزور المصايف والعواصم فيصف آثارها ومفاتنها ، ويعمق الوصف على التصور والتخيل والسماع والاحساس ، ويجوز حدود المكابرة والتحدي ، فيقول في حديثه وكتبه : رأيت كذا وشهدت كذا ...

ففي كتابه « رحلة الربيع » وصف زورته لهياكل اليونان التي اقيمت في القديم لدينها وفنها ، في آثينا وحولها ، وصفاً لو ردَّ اليه بصره لجاء وصفه لها دون ذلك اذ كان يجوس خلال الاكروبول والبارتنون بعيني بصير وشعور متشوف ملهم ، وهذا من الوجهة التحليلية لأنفس العميان هو الظفر والعز الذي يجدونه في عالم المبصرين ، فانهم يعمقون الوصف والتصوّر ، ويتقنون الاحاطة بالشيء احاطة مكعبة بأبعاده الثلاثة ، وقد يوغلون في التجسيم والتجسيد ، حتى لكأن الموصوفات تبدو جاثمة تنتفض بالنور والوجود ، وهذا مما يعزيهم عزاءً طويلاً مريحاً ، ويشعر قارئهم وهم يجرون تلك الاوصاف بأنهم يبطنون في ضمائرهم التحدي للمبصرين ، على ان طه حسين لم يعجبه وصف المعري الا في الاشياء المعنوية ، وقد عدَّ تصويره للمبصرات محاكاة وتكراراً لما كان يترامى الى سمعه ، ولعلنا نتساءل كيف تجاوز هو عما آخذ به

ابا العلاء في هذا التقليد والترديد !

وكما يحن الغريب الى الغريب والحبيب الى الحبيب ، فقد احسَّ طه حسين منذ بدأت حياته الادبية ان عبقرياً من بلاد الشام سبقه بألف عام ، قد وقف له في مفترق الطريق فعرف انه نجم هداه الذي طلع في سمائه الخالية من النجوم ، فراح يهتدي بنوره مثل اعرابي في البيداء ليصل الى مرابض حيه وما لاح له من واحة او ضياء ، وقد وصل طه حسين الى قمة الادب المعاصر بهدي نجمه الخالد ، ونبوغه وكفاحه .

لقد سيطر ابو العلاء على طه حسين وفتح في آفاقه ما لم يستطع في عصره ان يفتحه لنفسه . فأبو العلاء يعود الينا في طه حسين ويقرأ فيه ويدرس ، ونحن في عصرنا نقرؤهما معاً متداخلين متزايلين حيناً ، وحيناً متناقضين متفاوتين ، ولو لا ان طه حسين قد بعث عصر ابي العلاء وحياته وآراءه في موضوعاته التي بناها على خطة منطقية مرسومة وتمحيص علمي محكم ، وما ظهر بعدها من كتب ومحاضرات لغيره ، لما استطعنا ان نفهم هذا الانسان على حقيقته وعبقريته .

وقد كان المعري يقرأ في زمنه وكل بلد عربي قريب او بعيد ، وها هو طه حسين يقرأ معه ووحده ايامنا في الشرق والغرب ، وفي بعض لغات العالم ، اذ نقلت اليها طائفة من كتبه وآثاره .

اما اختلاف العمى في المذهب والمزاج لدى هذين الاديبين ، فانه يعود للحال النفسية في كل منهما ، وللظروف والملابسات ، فالمعري الذي يعطينا صورتين من حياته في شبابه الذي كان فيه مثل غيره من الناس يعيش كما عاشوا ، ويلهو كما لهوا تصدت له احداث ورزايا لا ريب في ان واحدة منها او اكثر هي التي كونت فيه حياته الثانية منذ فضل الاعتزال ، ولم يكن خشية وكرهاً واستئثاراً ، وما آثر النبات على لحم الطير والحيوان لعلة فيه او انزوى في محبسه لخيبة آماله بمنصب أو مال ، وقد أتيحا له وتأبى عليهما ، ولم يكن العمى بضائره عند قومه وكبراء البلاد ، بل عاش مع نفسه الكبيرة في عراك

وصراع ، حتى غلبتها ارادته وكرامته ، فأشقته واشقاها لينعم غيره بما اراد للناس وما ترك للعربية وللانسانية من تراث لا يبلى ، وقد تكون في البلايا التي اضنته وعاناها بلية بامرأة نغصته وجعلته يكره من اجلها بنات جنسها ، داعياً الى الحذر من فسادهن ـ في رأيه ـ طبعاً وعنصراً ، فاذا تقصينا المعري مع اهله ـ وكان ابوه عالماً ميسوراً وعمه قاضياً وامه من بيت وجيه في حلب كانت ترعاه وتفديه ـ لم نجد في هؤلاء وذويهم من ساءه بشيء ، ولم نجد في شعره ما يشير الى اذية منهم ـ ولقد رثى والديه رثاءً بليغاً حنوناً وقال : ان عظامه يوم القيامة سوف تبكي عندما يلقى امه ...

إذن فامرأة غيرها قريبة او غريبة لا بدَّ ان تكون تصدت له في صباه وهواه بالخيبة والتنغيص ، فتنكب عنها وانقلب سوداوي المزاج متشائم الفكر حتى لبست نفسه الحداد على ذاتها فعاشت مظلمة ظالمة .

اما طه حسين فقد غالط عماه منذ المعركة الاولى وتحداه ، فلم يعش صريعاً بسلاحه ، وما كاد يتحرر من قيود الازهر ، وينتقل الى الجامعة المصرية ثم الى باريس وجامعة السربون فيها حتى تبدل كل شيء في نفسه ، وكاد ينسى انه مكفوف ضرير ، اذ ان المرأة التي اخذت بيده في مطلع شبابه ودار غربته ودراسته ، كانت له نوراً بعد ظلمة وأنساً بعد وحشة ، عرفت كيف تغنيه عن البصر .

وان الثقافة التي تلقاها بعد انفلاته من الأزهر ناقماً ثائراً ، بدلت رأيه وحولت تفكيره الى آفاق جديدة ، فان صوتاً عميقاً كان يدعوه اليه كتلك الاصوات التي يخيل الى بعض الناس انهم يسمعونها مدوية في الاعماق مترامية على الآفاق ، هو صوت الحياة التي تنادي الانسان لتفرغ في نفسه وجسمه مطالبها وتفجر مواهبها ، فيمن اختصتهم برسالة الفكر والحرية .

من اجل هذا سكت طه حسين عن التبرم والشكوى من عماه ، ولم يحاوره لائماً ناقماً لانه فلسف الآفة ولم يفلسفها المعري ، وكان ابو العلاء

اجدر بذلك لغلبة الفلسفة عليه ، وهل كانت فلسفتها الا الرضى بالواقع ، ذلك الذي اشتمل على شعور طه حسين وانام في اعماقه الاحساس بالضجر والثورة على هذه المصيبة .

واذا قبلنا مبادىء التحليل النفسي المعاصر ، والآراء التي تتعلق بالعقدة النفسية التي تكون بسبب عضوي اوروحي امكننا ان نعلل اندفاع المعري الى النبوغ كما اندفع طه حسين اليه ، لكن هذا التحليل والتأويل يجافيهما الصواب ، فان اكثر المكفوفين نراهم كغيرهم من الناس او ادنى لا تميزهم موهبة او مزية ، فنبوغ هذين الاديبين اذن نعزوه الى ما اوتي كل منهما من مواهب وخصائص ، وحين احس طه حسين انه يختلف عن ابي العلاء في الشعور الذي يتعلق بالنظر انشأ كتابه « مع ابي العلاء في سجنه » وهو اثر نفسي وخلقي تارة ، وتحليل ادبي تارة اخرى ، وفيه مقابلات ومقارنات بينه وبين المعري ، يخرج منه القارىء ، وقد استيقن بأن طه حسين كان كالمبصرين من الكتاب المفكرين ، ويتراءى له وان لم يصرّح بهذا طه حسين ان قلبه الكبير ومراد نفسه وآمالها فيما تعي من حب المرأة واقبال الدنيا عليه قد خلق له العزاء والرجاء ، لكن الحوادث كانت تخرجه احياناً عن طوره في التحامل على ذاته وطاقته ، فيتلقاها بالسخرية والتهكم ، ولئن خلق بشار بن برد الشاعر اعمى وعاش دون توحد او تزهد ، فقد لابس المجتمع ومارس الدنيا وعد العمى من الذكاء ، فان ذكاء كل من المعري وطه حسين يكاد يكون متشابهاً .

ولست الآن بسبيل الروايات التي تحدثت بذكاء المعري ، على ان ما وصل الينا من اخبارها يكاد لولا صدق ما نعرف من حقيقتها ان يكون من الاساطير ، ومهما يكن امر المستيقنين منها او المرتابين في روايتها ، فان آثار ابي العلاء نفسها تؤكد ألمعيته وابداعه ، وان روائعه في « الفصول والغايات » و « اللزوميات » و « رسالة الغفران » تعد بدعاً في ادب العرب ، وسبقاً فكرياً افاد منه أدباء الغرب ، حتى استطاع المعري بذكائه ان يستظهر شوارد اللغة وأوابدها ويأتي على المعجمات .

فليس عجيباً اذن ان نعد ذهن المعري وذاكرته الخارقة كآلة التسجيل في دقة الحفظ والالتقاط لكل ما يطرأ عليها ويفيض منها ، حتى ان كلاماً مسروداً بالفارسية والازربيجانية والعبرية ، مرَّ بسمع ابي العلاء في سوانح متفاوتة دون ان يفهم معناه ، حفظه كما سمعه ، ثم أعاده على من يفهم لغته فأدهشهم ، وقد امتحنه في حفظه امراء حلب وكبراؤها واهل بغداد ممن اتصلوا به مودةً وعلماً ، او تحدياً وتجريباً فأفحمهم وقهرهم .

ولما سئل المعري عن سر هذا الحفظ والتذكر أجاب :

ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته ، لكن هذا الحفظ تضاءل على الكبر وزحمة الهموم فقال :

رضيتُ ملاوة فوعيتُ علماً وأحفظني الزمان فقلَّ حفظي

ولم نجد في آثار المعري مما وصل الينا ما يدل على انه وقف خطيباً ساعات طوالاً ، وانما كان يلقي مجهوده على كتبه ومؤلفاته ، والتدريس لبعض مواطنيه وزائريه ، وفي بعض المجالس والمساجد ، حيث كان يقعد بين يديه علماء وادباء ليقرؤا عليه صحفاً من تصانيفهم ، او يملي عليهم من قريحته وتأملاته شرحاً وتأويلاً لما يقرؤون ، وربما اتم احدهم عنده السنتين والسنوات ، وقد عد تلاميذه بالمئات .

وكان من اعاجيب القدر ان اوتي طه حسين مثلما أوتي المعري من قوة الحافظة والذاكرة ، لا تفوته شاردة ولا واردة في العربية ولا حقيقة من حقائق النقد والادب والمجتمع ، فهو حجة في اللغة والرواية وكانت الحضارة الثقافية التي أشاعتها الطباعة والصحافة وشريط التسجيل والمذياع عوناً لطه حسين ، وسجلاً لبعضها التي وأملى من احاديث ومحاضرات ، فهي مع كتبه المنشورة بين نقد وبحث وقصص وتحليل وتاريخ ادب شواهد ثابتة ناطقة على قوة حفظه في العربية وإتقانه للفرنسية واللاتينية ومعرفته بالانكليزية .

ولو جمعت الساعات الطوال التي وقف فيها طه حسين خطيباً او محاضراً

يسرد الادب والفن ويقرر الاتجاه لبلغت الساعات اياماً من عمره وليالي ، وبهذا وحده يمتاز من المعري ، ولم يفلّ الزمن وترادف الحوادث والتطور من حدة حفظه ودقة وعيه وإحاطته بموضوعه وفكرته وحرصه على رسالته.

سمعته من قريب ومن بعيد ، وما فاتتني محاضرة من محاضراته بمصر تسع سنوات وكأنه كان يتناول القول من وحي يتلقاه جنب أذنه او من قلب يفيض علماً ونوراً ، ولن انسى تلك الضحوة التي جئت فيها الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، لأشهد افتتاح الموسم المجمعي منذ ثلاثة اعوام وكان على طه حسين ان يقول خطاباً مجمعياً عنوانه « الرجز وكيف صنع بأعيننا » .

وقف طه حسين يحدثنا عن رؤبة والعجاج الراجزين الأمويين اللذين طأطأت لهما اللغة بعنقها وتطامنت طوع لسانيهما غرائب الالفاظ وشواردها حتى قسرا فن الرجز وجعلاه أسير قافية واحدة ، وحين أزف الاستشهاد به بدأ طه حسين يأتي بالبيت بعد البيت من رجز الشاعرين ، ولو قام أي متمرس بكلام العرب وفقه اللغة بقراءة تينك الارجوزتين لحيَّره اللفظ واعياه المعنى ، فما بالك بطه حسين الذي كان يزجي البيت تلو البيت كأنه يقرؤه من صفحة او يفيض من نبع ، مما حيَّر ألباب المستمعين .

وقد حدث ان تريث لحظات بعد شطر وعرٍ ، فما هي الا لمحات حتى جاء به طه حسين على رسله وأتى على الارجوزتين متسلسل البيان بليغ الأداء رائع الالقاء ، وبهذا الالقاء الساحر استطاع طه حسين ان يدخل القلوب من غير استئذان حتى قلوب الأعداء والحساد ، فقد وهب غنة ناغمة وحنجرة صافية وعذوبة في اللفظ وروعة في المنطق ، فتنساب نبراته الموسيقية الى النفوس انسياب الماء في الظامئين ، ولو ان نجمه لم يطلع في عالم الأدب لتألقّ في دنيا الطرب .

ولقد عاش كل من المعري وطه حسين مستعيناً بغيره في الاملاء وإثبات التعبير في الطروس والتسجيل ، وقراءة الكتب والنصوص .

إن العصور والاجيال لا تفقد روح التداول والمعاودة والتجدد ، فأفذاذ العالم في العقل والابداع والبطولة ، ونوابغ الفكر والأدب على اختلاف مواهبهم ومزاياهم وتفاوت ديارهم وأيامهم يشبه بعضهم بعضاً ، في كثير من من الشؤون والحوادث ، وكأن الدهر يعيد هؤلاء كلما خلا زمن من امثالهم بأعيان من اندادهم ليكونوا على دروب الامم مصابيح بعث ويقظة ورسالة ، وهذا التشابه والتداول في الاحداث والظروف والافذاذ معهود في التاريخ ومحسوب حتى قيل : التاريخ يعيد نفسه ...

وهكذا نرى المعري في طه حسين هذا العصر مع قليل من الفروق ، غير أن اختلافاً في المنبت والمزاج والثقافة والاتجاه قام بين الاثنين مباعداً موازنا ، فكان المنبت الذي أطلع المعري في شمال الشام جافاً جافياً ، وأهله في ضنك وإعواز يخضعون لعوادي الحكام والأيام .

وقد أفاض أبو العلاء في تصوير الفتن التي ضجت منها البلاد لطغيان المتنازعين على الحكم والامارة والسيطرة من ذوي المذاهب الحزبية والدينية التي اصطنعوها لتحقيق مآربهم وأهوائهم ، ولم تكن هذه المحن الوبيلة وليدة السنين التي أطل فيها أبو العلاء على الدنيا ، بل كانت سليلة العصور والتنازع الموروث حتى استفحلت في أيامه وتطاولت ، ولم يتفق إلا في القليل أن يولد إنسان ويموت في اليوم والشهر المتماثلين (١) .

كان مولد المعري أيام استيلاء بكجور في اعقاب الدولة الحمدانية على مدينة حلب ، وكانت المعرة في إقطاع هذا الغاصب الذي كان غلاماً لغلام سيف الدولة ، وحين أدرك ابو العلاء من عمره سنوات بدأت الحوادث الجسام تؤثر في وعيه وشعوره ، فكان هذا الوعي المبكر أول انطباع في ذهنه عن التنازع والغلاب بين أصحاب حلب حتى جاء سعيد الدولة حفيد سيف الدولة وسلطان حلب فكان عمر المعري إذ ذاك ثلاثين

---

(١) ولد المعري يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأول ٣٦٣ هـ وتوفي يوم الجمعة في الثالث من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ .

عاماً ، استجمع في خلالها ثقافته ومعرفته بشؤون الدين والدنيا ، وأعـد رسالته لخير الانسـانية والبحث عن الحقيقة وقد انعكست في قصائده الاشتراكية المثالية التي تسعى إلى تحقيقها بعض المـذاهب الشائعة في زماننـا .

وطال التنازع السياسي بين الحكومات العربية والاسلامية في مصر والشام وبغداد كشأنه اليوم حتى ابتليت بـلاد الشام في عصر أبي العـلاء بمستعمر من الروم اخذ انطاكية عام ٣٥٨ ثم اللاذقية أيام الامبراطـور نيسفورفوقاس ، وقد دخل البيزنطيون هذه المدينة وبقـوا فيها تسعة ايام، ولولا الثورة التي قامت في القسطنطينة ضدهم لما كشف الله عن حلب هذه البلية ، ولقد كان بقايا الحمدانيين وولاة الفاطميين يردون الطامعين مدحورين، ويغضب المعري لهذا العدوان من المستعمر فيندد بجوره ويثني بشعره على عمال حلب الذين قاوموه بحمية وشمم ، ولم يتحرج أبو العلاء من نصيحـة احد الرؤساء بأن لا يغادر البلاد والروم له ولقومه بالمرصاد .

لقد سلسلت ولاة حلب فوجدتهم في فسحة عمره قـد بلغوا اثني عشر والياً بعضهم كان يعلن الاستقلال وبعض ينفرد بالحكم والاستغلال ، وآخرون كانوا يتبعون الفاطميين الطامعين بحلب ، على أن حفيد سيف الدولة أبا الفضائل تأبّى عليهم واستجار بباسيل الثاني ملك الروم لرد مطامعهم نكاية وتحـديا ، وتعاقبت الخطوب والحـوادث بين الفريقين اللذين تداولا النصر والهزيمة على حساب الشعب ، فضاق أبو العلاء بما آل إليه هـذا الأمر وسئم المقام في منزله وموطنه وتمنى أن يهاجر ، ولكن كيف يفارق البلد والعالم العربي يموج بالمحن والجو غيم بالاحداث فأخـذ يعلن نقمته على السياسة الغاشمة التي كانت تقوم على الاهواء المترنحة والمصالح الخاصـة والتنازع على الولاية والرعاية ، فأهاب بالناس ان يتحرروا من الملق والنفاق ويثوروا على الخطباء والشعراء المضللين ، ولم يجد ابو العلاء بداً من الرحيل إلى بغداد ، وبغداد يومئذ تزهو بمدارس النحو والفلسفة والرواية ، فشده

الشوق إليها والى مجالس الشيوخ والأعيان وحل فيها بعد عناء ، فقوبل بالعناية والمؤانسة اياماً حتى عرف قدره وذاع خبره في الرأي والقصيد والاحاطة باللغة وعلومها غير ان بعض الحساد والمتنقصين ازعجوه بالتحدي والتنغيص ، وساءه الشريف المرتضى باللمز والتعيير ، فرأى المعري ان ماء بلاده أنجع مشرباً وان البشر سواء في اللؤم والعدوان وان السياسة في كل ارض ملتوية طاغية يسيطر عليها شياطين مسلطة ..،

ولما ارتد الى بلده عاش حيناً متشائماً ناقماً ، وحيناً متحبباً مجاملاً لبعض الحكام درءاً لأذاهم عن قومه فلا يأنف من التحدث والاستعطاف من اجلهم وتأليف كتب ينسبها إليهم فيما يدعون او يصنعون ، لكنه ما كف يوماً عن نقد الذين يستخفون بالرعية والطغاة الذين يحابون في اخس المطامع ، وفي خلال الأبيات التي اودعها سخطه واسفه وصف ما كان يلف المجتمع من لهيب الحوادث في الظلم والانحراف فكان عنيفاً في ثورته لا يختلف عن احرار الفكر في ايامنا حتى دعا أبو العلاء الى مثل المقاومة السلبية في قوله ؛

وأرى ملوكاً لا تحوط رعية فعلى م تؤخذ جزية ومكوس

وكما حمل على من يهملون الرعايا ولا يحمونها من الضيم والفقر كذلك حمل على غواة الناس الذين وجدهم في هرج ومرج واصحاب الامر جباة خرج ، فكانت نقمته على المحتكرين والمستغلين صارخة عنيفة لم تنقطع في لزومياته ، وقد حاور ما يقتات به الفقراء وسبق الى التماس العدل الذي ينتظم الناس حتى ضاق بسخريته ورسالته خصوم للمعري وحساد رموه بالهوس والشذوذ وشنعوا عليه العمى والشرود في مجاهل الكفر واستنكار عقله الطبقات المتفاوتة بالمال والاستغلال ، ووصموه بالكفر والالحاد ، فلم يعبأ بدس المغالطين والموتورين ولما ترامى إلى سمعه عواء حسود مسعور قال :

عوى لي ذئب فانتبهت لزجره رويدك إن النيرات عوال

وما خلا صاحب عبقرية أو رسالة من متربصٍ ودسيس ، لكن سدود السيل لا تلبث ان تنهار أمامه وقد ضاع بين سمع الارض وبصرها أعداء المعري وذهبت ريحهم ، ولم يذكر التاريخ منهم إلا من علقوا بحواشيه ، وبقيت آثاره واخباره شواهد عليه محدثة بفضله وادبه .

وكان هذا شأن طه حسين في نقده للفساد والاستبداد ، فقد دب في شعوره وخواطره روح الثورة والتمرد والتأبي على الزيف والتمويه منذ ملك الفكر وضمته أروقة الازهر ، وكانت حياته الاولى في بقعة ريفية من صعيد مصر بدأت عام ١٨٩١ ، وقد اتسمت بطابع الثورة والتطور الذي رافق النهضة المصرية الحديثة حتى يومنا هذا .

لقد خرج طه حسين من قريته الى الازهر ليصير شيخاً من اشياخه المرموقين على عادة المصريين المتنورين في ذلك الحين واسوة بلداته واترابه من المكفوفين ، لكن القدر تناوله من اول الطريق وارصده ليحمل بقلبه الحرية والنور وبيده رسالة الفكر الحديث والثورة على القديم ، وليكون في الطليعة الاولى لتجديد الثقافة والحياة الادبية في مصر والعالم العربي كله ، فقد حول دفة دراسته الى الجامعة المصرية بعد ان ضاق بالازهر وبزي أهله وتلقيبه واساليبه ثم جاز البحر على امل وتخوف الى الجامعة الفرنسية والبيئة الغربية المتحررة .

جاء دنياه والزمن لم تتغير فيه إلا ارقام السنين ، فالانسانية التي ارتقى عقلها واتسع علمها ما تزال هي هي في عيوبها ومطامعها ، ولما ظهر طه حسين وجد ان العصر الذي يحتويه مصاب بما أصيب به عصر المعري من جور الحكام وكيد المستعمرين وفساد المجتمع من جراء الاضطراب والخلاف .

وكانت دواهي الاستعمار في حياة المصريين وبيلة طويلة ، عبر عنها طه حسين في مقالاته السياسية وفاقاً لرأي رائد الفكر في مصر أحمد لطفي السيد إذ كان يرى المهادنة والمداورة في ذلك العهد المظلم أجدى من

العنف والتمرد ريثما يعم التعليم الذي تأخذ به الشعوب ما تريد حتى أقام طه حسين رسالته في أدبه وحياته على اساس المطالبة بالتعليم لقومه فهو الذي كان ينقلهم مما هم فيه الى حياة جديدة تحررهم من كيد الاستعمار وتفتح أعينهم على الدنيا وتعطيهم مكانهم في الوجود .

وعاد طه حسين من الغرب وهو ممتلىء النفس حباً ومعرفة وطموحاً ، وقد تبدلت حياته ومعيشته بما حقق لنفسه من الدراسة الجامعية في الغرب والوظيفة التي مكنته بسببها من مباشرة التجديد والاصلاح الذي يريد ، وكان في الجامعة المصرية التي خرجته مرموق المكانة مرجواً لمصر والمصريين ، فهو أول حامل لارفع القابها العلمية ، لكن طه حسين ضاق بنطاق الجامعة فانفلت الى الصحافة الادبية ينشر فيها بحوثاً في ادب العرب وقصصاً مترجمة عن ادب الغرب شاقت القراء وراقهم جديدها واسلوبها .

كما ايقظ طه حسين الخاملين والمتعصبين للقديم فيما نشر من موضوعات طريفة جريئة ، ولما طلع على الناس بكتابه (الشعر الجاهلي) وفيه من الرأي والاستنباط والتحليل ما لم يألفه الناس في الدين والادب هاجت الرجعية وماجت في مصر وردد صداها العالم العربي ، وظهرت المؤلفات في نقض أفكاره ودحض حججه حتى أقصي عن الجامعة وصودر كتابه واتهم بالكفر والالحاد ، وتصدى خصومه من الازهريين وغيرهم للطعن في منهاجه الفلسفي المبني على الشك والانكار ، للوصول الى الحقيقة وكانت هذه الثورة بادرة المعارك الادبية التي اوقد نارها طه حسين ووسع ساحتها وشغل الناس باخبارها وحوادثها ، وحين خمدت نار الرجعية والتعنت اعيد طبع الكتاب المصادر بعد تعديل في اسمه وموضوعه، وعاد طه حسين الى دراساته الشائقة القائمة على حرية الفكر والبحث ، والى الصحافة الادبية والحزبية يشارك في تحريرها وقد تمرس بالسياسة حتى اصبح من اهلها ، وكان لكلماته ومقالاته دوي في محافل الحكم والدولة وقد تقيم وزارة أو تقعدها .

وضاق وقت هذا الاديب الكبير فقد حمل اثقل التبعات وشارك في الحياة العامة مشاركة قوية حتى حرم الراحة والاستجمام الا في سوانح الصيف ، فكان لا يخلو الى نفسه الا لماما ، فبابه يطرق على استئذان وغير ميعاد ، والصحافة تلاحقه بطلباتها دون اشفاق ولا امهال ، وقد تقلد وزارة (المعارف) مستشاراً ثم وزيراً ، وحمل تكاليف الدولة وتبعاتها الضخمة ، ولهذا كانت مؤلفات طه حسين اقل من مؤلفات المعري عدداً لان المعري الذي فضل المحبسين والثلاثة ، وتأبّى على الحكم والولاية وكان سلبياً في حياته وفلسفته وفي رأيه وثورته قد اتسع وقته للتأليف والتفرغ للغة والادب ونقد الحكومة والمجتمع ، أما طه حسين الذي كان ايجابياً في ثقافته واندماجه في الحياة والدولة فانه على الرغم من تجاوبه مع الوجدان الفكري والاجتماعي وتذوقه لاصفى ما في الحياة من بهجة ونعمى ، لم يكن يوماً راضياً مطمئناً ساكنا ، لا مع نفسه ولامع سواه فيما لا يروقه ولا يطيقه ، ولقد ضاق بأساليب الازهر منذ جاءه طالباً وضاق بما يقيد وطنه وقومه من اغلال الاستعمار وملق اعوانه والتصاق الحرمان والهوان بحياة بلاده ، فكان لا يكف عن الانتقاد بأسلوب يختلف باختلاف الظروف والاطوار التي عاشتها مصر وعاش فيها حاملاً مشعل النور والحرية والثقافة .

كان ايمان طه حسين بالتطور لايقف عند حد حتى ان هذا الايمان العلمي قد مشى على طائفة من آرائه وخواطره التي القاها بعد عودته من الغرب وتأثره بمناهج الفكر والدراسة وقد حسبها القوم لسبقها وجدتها بدعاً في الرأي وارجافاً في التاريخ وعدواناً على المذاهب المألوفة والقيم الادبية الموروثة ، لقد عاد طه حسين الى آرائه وخواطره فبدل بعضها بعد سنين .

رجع الى الجامعة المصرية حوالي ١٩٤٦ يلقي محاضرات في الشعر الجاهلي ، واذ به بعد عشرين عاماً من انكاره لاكثر الشعر في الجاهلية

يعود الى نفسه فينكر عليها دون ان يصرح ان نفسه هي موضع الانكار والتساؤل قائلا بوجود الشعر الجاهلي الذي جمعه ونفاه وعده انتحالاً واختلاقاً من الرواة والنحاة وبعض الشارحين والمستنبطين ، لقد ارتد طه حسين الى هذا الشعر القديم معترفاً به لاكثر قائليه ورواته بحضور تلاميذه ومحبيه وشهود ثقات مخلصين .

وان تاريخ النقد الادبي في مصر ليذكر ان طه حسين كان من اوائل الثائرين على الطريقة البالية ومسالك الرجعية في البحث والسيرة والتحليل ، فاصطنع النقد الادبي لزحزحة هذه التقاليد من طريق الانتاج الفكري الجديد ، واقبل على هذا المحصول القيم الذي قدمته مواهب الادباء والمفكرين امثال العقاد والمازني واحمد امين والرافعي وهيكل والحكيم ، فنقد طه حسين آثار هؤلاء الافذاذ نقداً غلبت عليه الذاتية والعنف تارة ، وتارة ظهر انتقاد طه حسين متعطفاً مترفقاً وبعد سنين مسح الغبار والدخان عن آثار بعض الكبار امثال شوقي والمنفلوطي والمازني وهذا ليس بضار في ادب طه حسين لان تطور الفكر والرأي لا ينبغي ان يسكب قوالبه الفولاذية على آثار الشعراء والكتاب بنقد مدموغ ، ولان الحياة الفكرية نفسها تشبه تياراً او نهراً يفيض حيناً صافياً ، وحيناً معكراً كدراً ، وقد يفيض او يستحيل .

وكان طه حسين في ثوراته النقدية كالطود الشامخ يتلقى الهجوم المباغت والتعيير المبيت وهو صامد لا يريم وقد اتهم بالالحاد ووصم بما وصم المعري الذي اتهمه أعداؤه بانه يحاكي القرآن ويعارضه في كتابه (الفصول والغايات) وهي تهمة باطلة ، وقد سلم الكتاب من التلف والاذى ، ولم يسلم طه حسين من لمز الحساد وحقد الخصوم ، وهم لم يكونوا بنجوة من ادبه اللاذع وسخريته المرة ، فقد أنشأ فصولاً تهكمية نقدية في عهد الضغط الحكومي قبل الثورة ، زعم فيها أنها رسائل تنسب الى الجاحظ ، ويراها هو محمولة عليه لأن تكلف التقليد فيها ظاهر ، وقد بدأها برسالة الشكر

والكفر ونشرها متفرقة في الصحف المصرية ثم مجموعة في كتابه « مرآة الضمير الحديث » مطبوعة في لبنان .

على ان طه حسين قد التزم في هذه الرسائل الحيطة والتقية في نقده للاصدقاء والاعداء ، مصوراً فيها حياة مصر بين النعيم والجحيم إبان القلق المستحوذ على النفوس والتمرد المكبوت ، كما اخرج طه حسين « جنة الشوك » حنظلاً وعلقماً في توريات وكنايات استعاذ بها من الضغط على الحريات ، فنفس بهذا النقد الرمزي الرائع عن كربه وكرب الثائرين الاحرار .

وتحدث عن المعذبين في الارض حديثاً قصصياً صوَّر فيه فساد الحكم وتفاوت الطبقات ومعيشة الكادحين والمكافحين ، ولم يكن طه حسين سبَّاقاً الى هذا اللون من الادب ، فقد سبقه المعري والجاحظ من غير تحرج فيه ولا تكتم . وطه حسين في هذا الضرب من النقد لم يكن ناقماً متشائماً ، قانطاً من الاصلاح والتغيير في حياة قومه ، بل كان يرتقب من الوعي والتطور مظاهر جديدة أوشك الضغط والزمن أن يأتيا بها لتكون فاتحة لعهد جديد وفي ادبه الفكري والاجتماعي تحس روح البناء والتداول ، فكان يعطي ويأخذ ، وربما اعطى اكثر مما اخذ . اما المعري فكان يعطي ويجود ، ويضيق بتنازع المختصمين والمتحكمين ، في بلده ، ويتوق الى النقلة والرحيل ، فيمضي الى بغداد وينطلق الى انطاكية ثم الى اللاذقية ثم يرتد الى محبسه في المعرة . اما طه حسين فقد احب الرحلة والتطواف ، وربما انتقل الى الغرب صيفاً بعد صيف. وما كانت رحلاته للمؤتمرات الفكرية والثقافية فحسب ، بل كان بعضها للمتعة والتسرية عن النفس ومرافقة الزوجة والولد ، ولا يكاد طه حسين يغادر مصر وينأى عن منزله وعمله حتى تنطلق خواطره ويتهيأ له الاملاء والتأليف ، وما عاد من رحلة طويلة من غير كتاب يدفعه الى المطبعة أو فكرة يسعى الى تحقيقها .

أما الجوهر الذي باعد بين شخصية المعري في الحياة وبين شخصية طه حسين فهو عنصر من عناصر الوجود وتركيبه الاول ، هو أنفع للكون من كل حادث كان او سيكون ، هو سر الدوام للانسان والحافظ للحضارة والقومية والقيم الروحية والاخلاقية ، ولولاه لهلك العالم وبدت تفاهته وساء المصير .

هو المرأة ... فالمرأة هي الكائن الحي الذي كتب عليه أن يحمل الحياة مع الرجل ، وربما كان حملها اثقل وهمها ابقى ، فاذا صدق حكم العقل في تحليل الحوادث النفسية كان إزراء المعري بالمرأة وجعلها في رأيه مصدر الشر وعداوته لها نكبة نفسية كبرى شفت عنها خواطره في المرأة واصراره على ان طبعها فاسد دون الرجل كأنما اختصت بهذا الفساد وحدها حتى وجد دفنها مكرمة وتعليمها مضرة وعكوفها على المحراب لا ينجيها من الغواية وان جاءت المنجم سائلة فليست بمنجمة من الضلالة ، ولهذا فهو يوصي بحجبها في البيت ومنعها من الحج وان لا يدخل عليها الوليد ، واذا لم يرض اهل البنت بدفنها حية فليزوجوها من يراعيها ، على أن يخوف من النسل ، فان العاقر أولى لان في النسل الشقاء للولد والوالدين ...

وقد رأى المعري حمل المغازل للنسوان أولى بهن من حمل الاقلام فاذا تعلمن اثمن ، إلا إذا تعلمن سوراً قصاراً من القرآن للصلاة ، وهن في الحرب لا يدفعن غارة او مضرة ، وفي السلم هن حرب وكرب للرجال وللحياة ، فهذه البغضاء للمرأة كانت من اسباب تشاؤمه في الوجود ولقد اتخذها شريعة لعقله فقطعت ما بينه وبين الحياة لا بالانتحار المفاجىء بل بالانتحار البطيء ، ولكن اذا كان هذا رأيه في التناسل والزواج، فلماذا لم يقترب من المرأة ليجد عندها الحنان والأنس والرأفة ؟.

لا ريب في ان المعري ظلم نفسه وظلم المرأة والناس جميعاً بهذه العداوة والنقمة إذ لم يقصر دعوته على ذاته ، وانما اراد ان يمارسها

الناس ويستجيبوا لها ، وقد نادى بنقص الحياة وافنائها ، فخالف مجرى الطبيعة ، لكن جبروته العقلي ثبت امام الطبيعة فلم تستطع ان تجرفه إلا بعد ان عاش عمراً طويلاً . ولقد اطلت بحث قضية المرأة عند ابي العلاء فلم اقف لديه على معنى واحد يدل على عداوته بسبب الحب والغرام ، وانما كانت نزعته اخلاقية وفلسفية ، وفي « لزومياته » وهو ديوانه الاكبر الذي وصل الى ايدينا تأيتان مطولتان ، إحداهما أطول قصيدة له في « اللزوميات » صبها ناراً وزيتاً حميماً على رؤوس النساء .

ذم أبو العلاء جمال المرأة وهو لم يره ، وهـــذا الجمال زينة الحياة وريحانتها ، وسفه اخلاقها وعقلها ، وكانت أشعته الملونة التي عكسها من محبسه المظلم على المرأة وهي في مسرح الوجود شتيتة الظلال في المقابح والعيوب ، وأستغفر الله في أمر المعري مع المرأة زوجة وبنتاً لأنه كان براً بأمه عدَّ مصابه بموتها من اكبر الفجائع في حياته ، لكن عقله الجبار الذي غطى أسرار قلبه وعفى على عواطفه فكظمها ودفنها ، او بدلها وحولها ، جعله مرة يعود باللوم على أمه لأنها جاءت به الى الدنيا كما لام بذلك أباه .

فما أبعد برزخ المرأة الذي فرق بين المعري وطه حسين ، إن هذا العبقري المعاصر مدين بنبوغه وادبه للمرأة ، اذ وجد فيها شعاع العين الذي فقد ، وبصيرة الروح التي اخذت بيده في ظلمات الدنيا ، علمته وعلمها ، كرمته فكرمها ، وكان لها عوناً ونصيراً وداعياً لتبصيرها بشؤون الحياة واعدادها على هدى وثقافة لما خلقت له في البيت والمجتمع ، ولما تريده مواهبها وفنونها .

لقد وجد طه حسين نفسه في المرأة ، ووجد المرأة في صميمه وذاته ، فما شذَّ ولا عادى ، وما انهزم او تبرم ، ولا انكر عليها حقاً او عزا إليها المنكر ، لأن المرأة كانت نور حياته ورونق فنه ومفتاح عبقريته ، وحين قامت في عصرنا عداوة تقليدية للمرأة استغلها مدعوها

تشفياً او تعسفاً ، ثم غدت هذه العداوة وسيلة ادباء الى الشهرة واثارة الضجة حول انفسهم لترويج آثارهم ، وكان طه حسين يضحك في سره وجهره ويعلم ان وراء العداوة المزعومة ما وراءها ، فدعا الى انصاف المرأة وتبصيرها بحقيقة نفسها وحقيقة الحياة وشارك في اعدادها لما هو افضل لها وانفع واولى في حياة الفكر والثقافة ، وليس في مصر ادبية بالعربية او الفرنسية الا وقد حظيت بتأييد هذا النصير العظيم .

جلس طه حسين للفتيان والفتيات في الجامعة يعلمهم الادب والنقد وحرية الرأي والبحث ، لم يفصل بين الجنسين في الميزان والمعرفة والطريقة والامتحان ، ولا فضل بعضاً على بعض الا في الجد والمواهب والمزايا . وقد يكون هو بتلاميذه وتلميذاته أبرّ منهم وأوفى ، فمن طبعه الوفاء حتى لمن لا يستحقونه ، وكان المعري وفياً لتلاميذه وشيوخه . ولو لم يقم من نفسه عدواً للمرأة لكان لها معلماً ونصيراً ، ولكانت له في الحياة محبة وفية ، ومفدية مكرمة .

ان اعداء المرأة هم من الناقمين المتشائمين ، وقد حملوا راية سوداء جعلوها شعار حياتهم ومذهبهم ، وظهرت تلاوينها في طوابعهم ومنازعهم الفكرية والاجتماعية ، وما خلا ادب الشرق والغرب من امثال المعري في عداوته للنساء . غير ان الحق يقتضيني ان اذكر بان المرأة نفسها كثيراً ما تكون هي سبب العداوة ومن اجلها وفي سبيلها ، ولو أتيحت لأبي العلاء امرأة تحنو عليه او تسعى اليه بالمحبة والاخلاص لغلبته على نفسه المظلمة الظالمة ، ومن يدري فقد يكون وراء كل متشائم ناقم على المرأة او مسفه لطبعها ومواهبها صدمة منها ولطمة لشعوره وآماله ، فلا بدع اذا طبعت المرأة ابا العلاء بطابع الشؤم والعداوة لها وللانسانية التي هي عنصرها الاول ، وجوهرها الذي لا يفنى ، فانفصال الرجل عن المرأة كان له شأن خطير في حياتنا العربية والادبية ، شأن كبير دوى في فضاء الفكر والنفس حتى اليوم ، هو مثل التحام ذرتين يشكلان الجوهر

الفرد ، وقد توصل عصرنا الى اثبات الخطر الجسيم الذي ينشأ من هذا الانفصال بين الذرتين ، فانطلاق القوة التي يخشى ان تفني العالم ـ لاسمح الله ـ هو من هذا الانفصال الذري ، وأبو العلاء المعري في عـــداوته للمرأة وجحود مزاياها ، فصل ذرتها عنه فحدث ذلك الدوي الهائل في عالمه الفكري البعيد .

ولولا المرأة ، لما كان طه حسين الا نسخة ثانية حيةً من المعري ، لكن هذا العنصر النافع الفدائي بدل حياته وحوله من الظلام الى النور ، ومن الوحشة الى الانس ، فضحك طه حسين للدنيا وضحكت له ، وفلسف عماه فلسفة تفاؤلية أريستيبيه ، ولم يكن يقول بالكون والفساد كما قال بعض المتشائمين من فلاسفة القديم والحديث .

ومن أعاجيب الحياة ان مبدعها اودعها سر الصدى ، وما هو سر الصدى ؟ .

هو مبادلة المودة ورجع الشوق وعودة المحبة ، فمن احب الحياة احبته هي بمثل ذلك الحب او اكثر ، ومن ابغض الحياة ابغضته اضعافاً وسقته مراً وزعافاً .

وكره المعري الحياة فعاداه جمالها ونعيمها ، واحبها طه حسين فبادلته حبها ومباهجها وأقبلت عليه بخير ما فيها ، ولم تحرمه سوى النور في العينين وقد عوضته بصيرة لا يؤتى مثلها المبصرون وعبقرية فذة يختص بها خالقها بعض الموهوبين المعدودين ، فعرف المرأة والولد وظلال السكينة ونعمة العافية والمودة في الارض والبحر والسفح والجبل مقيماً ومتجولاً ، وأحس بما في الوجود من متعة وبهجة وروعة وسعادة فتلمسها على نحو لم يتمكن من ادراكه المبصرون .

احب طه حسين المرأة فأحبته مخلصةً تفديه ، وتأخذ بيده الى آفاق المجد والثقافة والادب فزحزحت عن عينيه الظلمات ، وكان شأنه

معها شأن عارف بفضلها مؤمن برسالتها ، ولقد كانت المرأة التي شاركته الحياة وولدت له الولدين هي ذاتها الفتاة التي شغفته حباً وعلمته لغة وادباً ، وصقلت نواحي نفسه فرأى في يوم مبكر من شبابه محاسن الدنيا بعينيها ، واتصل حسّه بحسّها ونفسه بنفسها ، وكان بينهما في مبدإ دراسته بالغرب ود عقلي خالص ، قوامه حب الأدب الذي كانا يقرآنه معاً وقد سجل طه حسين سوانح هذا الحب وتباريحه في سطور من النثر تنبض بالشعر وتفيض بالعاطفة والوجدان .

وهكذا وجد حب المرأة في طه حسين ضالته ، بعد ان ظل هذا الحب مشرداً أو بعيداً عن طائفة من المفكرين كرهوا المرأة ولم يجدوا فيها نفحات العواطف ولا بواعث الالهام والاقدام ، وانما هي عندهم متاع للحس ووعاء للنسل وخادمة للبيت ، وما اشبه شعلة الاصلاح والتحرير بشعلة الالعاب الاولمبية يوقدها موقد ثم يحملها شوطاً ويدفعها بعد ذلك الى حامل جديد ، مثلما اوقد قاسم امين المشعل وحمله مدة حتى تسلمه طه حسين وانداده من انصار المرأة فدعوا لتحريرها من معوقات الوعي واليقظة ورواسب الجهل والخمول ، وقد وجدوا من المكابرة ان يحمل الرجل وحده بناء الفكر والفن ، فان للمرأة عبقرية ومواهب اذا استطاعت ان تكشفها وتعرفها شاركت في هذا البناء على قدر طاقتها وثقافتها .

وكان طه حسين من هؤلاء المؤمنين بفضل المرأة الداعين لتعليمها ونصرتها ، خلافاً لمذهب ابي العلاء الذي كره الحياة وكره المرأة وضاق بالدنيا على رحبها لان نفسه هي التي ضاقت به وحصرته في العلم والتعليم والنقد والتأليف والتعمق في مشكلات الوجود ، وما وراء الطبيعة ، وقد تمرس بالمذاهب الفكرية التي عرفت في عصره مازجاً فيها فلسفته التي باتت مظلومة بين يديه لأنه سخرها لهواه . ولولا ان البشرية نزاعة بطبعها

إلى دحض التشاؤم لكان لدعوة المعري أثر في منازع الهـــدم واليأس والتخلف .

اما طه حسين وان لم يكن صاحب مذهب فكـري ينسب اليه ، فانه كان في ادبه ورأيه هادماً للرديء بانياً للحقيقة والخير ، وقد اتصل إشراق نفسه بأسلوبه فكان يمثله في سـلوكه وادائه . ولا ريب في ان مزايا خاصة بطه حسين جعلت له الصفة الدائمة القائمة في ادبه ورسالته ، مع المعذرة للمعري بفارق العصر والمصر والمزاج ، فاتسع لطه حسين الأفق الذي جال فيه من عالم الى عالم ، ومن عهد الى عهـد مرسلاً اشعاعاً قوياً من روحه وتفكيره على ناحية من نواحي الأدب او التـاريخ ، ليعـود منها بصيد جديد فيه متعة الفن والاداء ، ولم تخلُ حياته الجامعية والصحافية والوزارية من ضجات ما كانت تفتر الواحدة حتى تدوي الأخرى ، وما هذه الضجات إلا خفوق رياح الشهرة التي تهب مثل العواصف في حياة النوابغ والموهوبين ، وقد تكون لهم أيدٍ فيها أو أنها تجري على كـره منهم . والمعري لم يسلم من ضجات قامت حوله ومن اجله ، وان لم تكن له يدٌ في اكثرها . اما ضجات طه حسين فهو المسؤول عنها لأنهـا من صنعه ، وكان اولها بسبب كتابه « الشعر الجاهلي » . ولو انه طلع اليـوم بمثلها لما وجد مخالفاً او منكراً إلا القليل ، فقـــد اتسعت لدينا ثقافة « الشرق والغرب وتطور الفكر والبحث ، وعمم التعليم والاطلاع ، لكن بعض السخفاء ممن ادعوا حرية الرأي في المناهج العلمية طلعوا على الناس بمخالفات مريبة او مستوردة تشيع الجدل الموقوت في الجمهـــور ، وهم يحسبون انهم يحاكون طه حسين في ضجاته الكبرى ، فكان نصيبهم التهكم والازدراء ، ولمحاكاتهم الملامة والفضيحة .

ويضيق المجال عن تعداد الضجات التي قامت كلما برز طه حسين برأي او توجيه في الحياة الفكرية والثقافية ، منها ما قام حول تيسير الكتابة العربية ورسم الحروف والحركات كما تلفظ ، ولم يكن هو السابق الى هذا الاقتراح ، ومنها الموضوع التقليدي بين القديم والحديث والنقد الذي دار بينه وبين

اقطاب الفكر والبيان، فكان لطه حسين يدٌ في تطور الفكر والتأليف والثقافة ما تزال تمده بالحركة والمفاجأة .

وبعد ، فان ثمة نواحي عديدة ، ربطت فيها الاسباب بين المعري وطه حسين لا يتسع الوقت لذكرها ، فآثرت التنقل حول الاطراف ، والتجوال في القمم دون الانحدار للسفوح في حياة الاديبين . ولا بدَّ من ان اسائل نفسي كيف خالفت العرف والمصطلح عليه في دراسة الغابرين والمعاصرين ، فتحدثت عن ميت وحي — استغفر الله — فان الذي مات هو جسم المعري، وكل جسم الى فناء ، وما يكاد الاديب المبدع ينقطع عن حياتنا الفانية، حتى يتصل الخلود بآثاره على ترادف الزمان والاجيال .

ولهذا جمعت بين المعري وطه حسين اللذين تشابهـــا في كثير من المواهب والخصائص ، واختلفا في الاتجاه والاداء ، ومن كان شبيهاً بأحدهما خرج عن طوق ذاته وحيز صفاته ومزاياه الى دائرة المجموع فلم يبقَ ملك نفسه ، وانما اعتقته المواهب والفنون ، كما كان يعتق العبد فصار ملك الناس ، وقد تتنازعه غير امته وتتقاسم مجده الحدود ، او يجتازها ويصبح ملك الانسانية كلها .

كانت سبع مدن اغريقية تدعي كل واحدة منها ان هوميروس من بنيها ، وبالامس تنازع العرب والعجم في ابن سينا ، ومن حظنا ان كان المعري وطه حسين من بلاد العرب التي تعتز بهما وتعرف أن في ادب كل منهما قيمة التاريخ وكرامة الشعب والتراث ، والدليل المنصوب على درب الامم الحرة المفكرة .

ولقد سئل احد كبراء الانكليز عن قيمة شكسبير فقال :

— لو خيرنا بين التخلي عن الهند او شكسبير لاخترنا شاعرنا الخالد..

فاسمحوا لي إذن ، ان ازهو بمن اطلعت جارتكم المعرة وان عاش لجنسي عدواً ، وبمن انجبت مصر ، فكان للعروبة وللادب المعـــاصر تاريخ بعث

وتحرر ، ومنار تبصير وتطور في حياتنا الفكرية الجديدة ، فلا قدر للأمم إلا بالقيم الروحية والفنية ، فهي مراكز الثقل والرسوخ في حياة الأمة ونهضتها ، فما هو دور سورية في نهضتها الراهنة ، وهل تلفتت في زحمة الحوادث والمحن إلى الأفذاذ والموهوبين ، الذين يمثلون الحرية والفن والابداع لتجعل منهم معالم لوثبتها وبناء رسالتها ؟

إن مغارس الأدب عندنا منذ عهد الغساسنة والأمويين ما تزال رياحينها عابقة على مرّ السنين ، وليس للظروف الطارئة أن تشغلنا عن ادبنا الذي يشدون رأسه حيناً الى الوراء ، أو يؤخذ به حيناً الى لغو العابثين ولغط الثائرين ، فما أجدر حلب التي جادت بالثقات المصلحين ، وطلع من صوبها منار تحرر وابداع وتجديد بأن تستعيد أمجادها الأدبية ، وتتعهد الأدب الحديث بما يرفع شأنه وموضوعه ويحفظ آثاره ، ويجعلها لائقة بثقافة سورية وعروبتها المرجوة .

حلب — وداد سكاكيني

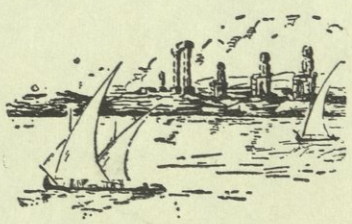

المحاضرة الخامسة

نظرية السبب في الفقه القانوني
وموقف قانوننا المدني منها

الدكتور الشيخ مصطفى الزرقا
الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة دمشق

= ألقيت بتاريخ ٣٠ / ٣ / ١٩٥٧ =

ليس لبحث السبب محل الا في الالتزامات العقدية دون سواها من الالتزامات الناشئة عن المصادر الاخرى غير العقد كما سنرى ، ولذلك يبحث عن السبب في نظرية العقد فقط .

ونظرية السبب بمعناه الاصطلاحي المقصود في الفقه القانوني طارئة على نظرية الالتزام ، وليس لها اصل في القانون الروماني . واذا كان للسبب ذكر في القانون الروماني في عهد متأخر فبمعنى السبب المنشىء الذي سيأتي بيانه .

ثم نشأت فكرة السبب تبعاً لمبدأ الرضائية في العقود كنتيجة لهذا المبدأ لتكون السببية قيداً للرضائية ، ووقايةً مما قد يجره مبدأ الرضائية من محاذير . ولكن نظرية السبب جاءت نتيجة مصطنعة متكلفة ، فهي نتيجة غير طبيعية ولا مُحكمةِ الصنع والوضع ، ولذا ثار حولها في الفقه القانوني من الخلاف والجدل والنقد وتضارب الآراء ، ما لم يثر نظيره حول نظرية قانونية اخرى .

وقد اختط الاجتهاد القضائي في فرنسا لنفسه مسلكاً جديداً في تطبيق النظرية والنص المبني عليها في القانون الفرنسي ، بغيةَ التعديل من شذوذها وجمودها ، فأصبح بذلك لنظرية السبب طوران : طور تقليدي قديم ، وطور قضائي حديث .

ثم جاءنا القانون المدني السوري ، وأصلهُ المصري الجديد ، في نظرية

العقد بنص عن السبب مضطربٍ متناقضٍ مع مذكرته الايضاحية .

وسنوضح ذلك فيما يلي بما يمكن من ايجاز واجمال ، بعد عرض معاني السبب المختلفة في الاستعمال القانوني .

معاني السبب في الاستعمال القانوني

لفظ السبب مشترك في الاصطلاح القانوني بين معانٍ ثلاثة :

١ ـ بمعنى المصدر المولد للالتزام ، أي السبب المنشىء : cause efficiente فالعقد سبب للالتزامات والمسؤوليات العقدية الناشئة به ، والفعل الضار سبب للمسؤولية التقصيرية عن نتائجه ، الخ .. وهذا يتفق مع المعنى اللغوي .

وعلى هذا المعنى يقع مثل التعبير بقولهم : الاثراء بلا سبب ، وهو المعنى الأصلي للفظ السبب . وهو ايضاً معناه في الفقه الاسلامي .

٢ ـ بمعنى الباعث الدافع : cause impulsive وهو الغرض البعيد غير المباشر الذي يبغي المتعاقدان تحقيقه بعد حصول النتائج المباشرة للعقد .

وهذا الباعث شخصي ذاتي مختلف باختلاف الاشخاص ومآربهم . فقد يستأجر شخص منزلاً ليسكنه ، وآخر ليؤجره ، وثالث ليجعل منه مقراً لاعمال مشروعة او غير مشروعة ، وبائع يبيع ليفي ديناً عليه ، وآخر ليتاجر ، وثالث ليهرب ماله من وجه دائن الخ ...

٣ ـ بمعنى الغرض المباشر but direct ، وهو المقصد الأول الذي يبغيه العاقد من عقده مباشرة كقبض الثمن بالنسبة الى البائع ، وامتلاك المبيع بالنسبة الى المشتري في عقد البيع .

فقبض الثمن هو غاية مباشرة يحققها البيع للبائع بمقتضى نوع هذا التصرف قبل كل غاية اخرى . اما قصد الاتجار بهذا الثمن ، او المقامرة ، أو الانفاق مثلاً بعد قبضه ، فهذه بواعث ودوافع بعيدة غير مباشرة ، لانها

لا تتحقق لقاصدها إلا من بعد قبض الثمن الذي هو الغرض المباشر بالنسبة الى البائع في عقد البيع .

مراحل نظرية السبب

المرحلة الأولى ، او منشأ نظرية السبب

من المعلوم المقرر ان العقد في الشرع الروماني يقوم على اساس الشكلية المفرطة . ففي ظل تلك الشكلية لم يكن التشريع يحفل بالارادة الحقيقية ، ومتى استوفى العقد المراسم الشكلية التي يقوم بها العاقدان اعتبر العقد منعقداً . فكأنما العقد انما ينعقد بتلك الاجراءات الشكلية دون نظر الى التراضي الحقيقي .

ثم ظهر فيما بعد في الافق القانوني مبدأ رضائية العقود الذي كان ظلاً ملازماً لمبدأ سلطان الارادة .

وكان ظهوره في زمرة القوانين ذات الاصل اللاتيني في اوروبة على يد علماء القانون الروماني من الدينيين الكنسيين في العصور الوسطى ، فكان ظهور مبدأ الرضائية هذا واستقراره هو السبب في ولادة نظرية السبب ، وقيادة الفكر القانوني اليها . واليكم ايضاح ذلك :

ان مبدأ الرضائية في العقود يقتضي ان يتم العقد وينتج آثاره بمجرد اتفاق الارادتين دون توقف على شيء من الاجراءات والمراسم الشكلية .

فلما ظهر هذا المبدأ واتجه اليه الفقه القانوني والتشريع ، لوحظ ان الرضائية المطلقة واحترام الارادة دون قيد ، في الالتزامات العقدية ، يؤدي الى احترام جميع العقود ، وإلزام عاقديها بالتزاماتها لمجرد اتجاه الارادة اليها والتراضي عليها ، وفقاً لمبدأ الرضائية المذكور ، بينما ان العقد في بعض الحالات قد يكون موضوعه التزامات لاينبغي ان يقبل في المنطق القانوني

إقرارها وتصحيح التعاقد فيها ، لمنافاتها القواعد الاخلاقية ، والاهـــداف القانونية . كما لو استأجر شخص آخرَ على ارتكاب جريمة لقاء مبلغ دفعه له او تعهد بدفعه ، او وهب شيئا او تعهد باعطائه لامرأة عاهرة كي تستمر معه على علاقة غير مشروعة . ومثل ذلك اقراض شخص لآخر او تعهده باقراضه مبلغاً لمتابعة المقامرة او للمتاجرة بالمخدرات وغيرهـا من الاشياء الممنوعة .

فلابطال امثال هذه العقود والالتزامات الارادية المتولدة منها فكر علماء القانون الروماني الدينيون من رجال الكنيسة ، وهم اول من استخلص مبدأ سلطان الارادة ورضائية العقد في اوروبة ، بوجوب القاء قيد على الارادة العقدية يمنع تجاوزها على الحدود الاخلاقية والاهداف التشريعية . « وانما قلنا في اوروبة ، لان الشريعة الاسلامية هي الـتي سجلت السبق المطلق في تقرير مبدأ رضائية العقود قبل ان تعرفه اوروبة بقرون كثيرة ، وليس الآن مجال ايضاح هذه الناحية » . فاذا شذت الارادة في تصرفاتها وتجاوزت على تلك الحدود والاهداف كان جزاء شذوذها بطلان التصرف ، والحرمان من ثمرته ، وهي الحقوق والالتزامات المقصودة به .

وإذ كانت نقطة الانطلاق في ترتيب القواعد القانونية في نظرية الالتزام العامة ذات الاصل الروماني هي الالتزام نفسه ، لان هذه النظرية في صياغتها الفنية انما ترتب تلك القواعد والاحكام العامة بالنظر الى الاثر القانوني وهو الحق الشخصي والالتزام ، لا بالنظر الى مصدر هـذا الاثر وهو التصرف القانوني والواقعة القانونية ، لذلك عمد اولئك القانونيون الى معالجة ذلك الشذوذ المتوقع من الارادة في ظل مبدأ سلطان الارادة ورضائية العقد ولم يروا سبيلاً لهذه المعالجة الا من طريق الالتزام نفسه لا من طريق العقد ، فألقوا على الالتزام قيـــداً قانونياً قرروا بمقتضاه انه يجب ان يكون سبب الالتزام مشروعاً .

وهنا نستطرد استطراداً يسيراً فنقول : ان هذا الترتيب الواقع في

مبنى نظرية الالتزام العامة وصياغتها هو من اهم العيوب التي تنخر في جذر نظرية الالتزام وتهددها بالسقوط تحت معاول النقد القانوني الحديث ، لتحل محلها نظرية قانونية عامة تقوم في ترتيبها على اساس آخر اصبح ينظر فيه الى المصدر نفسه ، ويجعل نقطة الانطلاق في ترتيبها هو تقسيم مصدر الحقوق والالتزامات الى تصرف قانوني وواقعة قانونية . وهو المحاولة التي بدأها القانون الالماني « ينظر كتاب : « التصرف القانوني المجرد » للدكتور محمود ابي العافية في الخاتمة » .

معنى السبب عند السببيين الأوائل

والمراد بالسبب في هذه المرحلة الاولى من نشوء نظريته على يد علماء القانون الروماني من الكنسيين انما هو الباعث الرئيسي الدافع الى التعاقد والالتزام . وهذا الباعث باطني وشخصي يختلف باختلاف الاشخاص والحوادث في النوع الواحد من العقود . ففي الاستئجار مثلاً نرى ان شخصاً قد يستأجر بيتاً للسكنى ، وآخر قد يستأجره ليجعله مأوى للفحش والدعارة، وآخر قد يستأجره لغير ذلك . وفي عقد التبرع مثلاً نرى شخصاً يتبرع بدافع انساني الى الاحسان المجرد ، وآخر يتبرع بقصد الرشوة ، وآخر يتبرع لاجل الاستمرار في الاقامة على الفجور مع فاجرة .

فهذا الباعث ، الذي يكون هو الدافع الى الالتزام والتعاقد يجب ان يكون مشروعاً ، صيانة للحرمات الاخلاقية والمقاصد التشريعية . وهذا في الحقيقة يتصل بفكرة النظام العام . فاذا كان الباعث الدافع الى التعاقد غير مشروع كاستئجار بيت بقصد اتخاذه مقراً للعهر ، وكبيع السلاح ولو ممن هو مأذون به ـ بقصد التمكين من ارتكاب جريمة ، ونحو ذلك من البواعث غير المشروعة كان الالتزام باطلاً ، وترتب على بطلانه بطلان العقد الذي اريد به انشاء هذا الالتزام ، ولو توافر اتفاق الارادتين في مظهره الصحيح وتم فيه التراضي .

وهكذا التي بفكرة السبب ـ بمعنى الباعث ـ وشريطة المشروعية فيه قيد على الارادة العقدية عندما اريد تحريرها من القيود الشكلية ، فحل السبب محل الشكل قيداً على الارادة في تصرفاتها ، حماية للقواعد الاخلاقية والمصلحة العامة ، ووقاية من المحاذير التي قد تؤدي اليها قاعدة الرضائية في العقود ، تلك القاعدة التي كانت اولى ثمرات مبدأ سلطان الارادة الذي ظهر اذ ذاك في الافق القانوني .

من ذلك يتضح ما كنا اشرنا اليه في مطلع المحاضرة ان نظرية السبب لا محل لها في غير الالتزامات العقدية ، ذلك لان نظرية السبب انما خلقت لتكون وسيلة الى ابطال عقود والتزامات ليس من المنطق التشريعي تصحيحها ، ولم يكن يرى مستند قانوني لابطالها من طريق المحل في ظل مبدأ سلطان الارادة ورضائية العقد . ذلك لان المال الملتزم به في مقابل ارتكاب جريمة ، او بقصد استمرار علاقة غير مشروعة ، هو محل قابل للالتزام وقد تم فيه التراضي بارادة حرة . وهذا يقتضي صحة الالتزام بالنسبة الى هذا المال . ولكن بالنظر الى السبب الباعث امكن ابطاله لعدم مشروعية الباعث ، وهو الحمل على ارتكاب الجريمة مثلاً .

فنظرية السبب انما جاءت لتحد من طغيان تصرف الارادة الحرة على حدود الاخلاق والمصلحة العامة ، وهذا لا يكون الا في الالتزامات العقدية لانها هي ميدان تصرفات الارادة ، اذ في الالتزامات الاخرى الناشئة عن مصدر آخر غير العقد لا يلتزم الشخص بارادته لكي نلقي على ارادته قيداً موضوعياً يمنعها من تجاوز الحدود ، وانما يلتزم بناء على واقعة اوجب القانون فيها عليه التزاماً ، سواء اراد هو هذا الالتزام او لم يرد .

ويتضح ايضاً ان نظرية السبب في مرحلتها الاولى هذه التي اخذ فيها السبب بمعنى الباعث قد كانت ترمي الى ادخال عنصر اخلاقي في النظام القانوني ، وهي تتناسب مع النظر الى الارادة الباطنية في تكوين العقد .

المرحلة الثانية او تبدل مفهوم السبب وتعقده

بعد تلك المرحلة الاولى التي نشأت فيها فكرة السبب بمفهوم يسوده المعنى الاخلاقي ، ويقع على معنى الباعث الدافع ، ويتطلب في هذا الباعث ان يكون مشروعاً ، بدأ يتكون حول نظرية السبب في الفقه القانوني نظر آخر يرمي الى بناء فكرة السبب على اساس موضوعي لا شخصي ، وساعد على ذلك عودة قاعدة الارادة الظاهرة الى الاعتبار والظهور في ميدان العقد ، حرصاً على استقرار المعاملات ، الى جانب قاعدة الارادة الباطنة التي تتبناها القوانين ذات الاصل اللاتيني .

فقد لوحظ ان السير وراء البواعث التي هي امور باطنية من شأنه ان يقلل استقرار المعاملات ، لتوقف صحتها حينئذ على امور نفسية خفية ، فينتفي اطمئنان العاقد الى نتيجة عقده مع اناس يجهل بواعثهم وغاياتهم من التعاقد . وهذا يجر القضاء ايضاً الى الارتباك في سبيل الكشف عن تلك البواعث والمقاصد الخفية .

ولوحظ ايضاً من جهة ثانية ان نظرية السبب في حدودها الاولى هذه غير كافية لتعليل البطلان في جميع الحالات التي يوجب المنطق القانوني فيها بطلان العقد والالتزامات الناشئة عنه ، وإنما تصلح فقط لتعليل البطلان في الحالات التي يكون للالتزام فيها غاية ممنوعة بالقانون كتسهيل ارتكاب جريمة مثلاً .

اما في الحالات التي يجب فيها بطلان الالتزامات العقدية في النظر القانوني رغم ان كلاً منها بمفرده مشروع ، ولا يخرج شيء منها عن دائرة القانون فان نظرية السبب بحدودها الاولى لا تصلح مستنداً لبطلان هذه الالتزامات وعقودها التي أريد بها انشاؤها .

وهذا كما لو اتفق شخص مع آخر على ان يمتنع عن ارتكاب احدى الجرائم لقاء مبلغ يدفعه له ذلك الشخص . فمثل هذا التعاقد واجب البطلان ايضاً في المنطق القانوني ، ولكن الحكم بالبطلان في هذه الحالة ليس من السهولة

والوضوح بالدرجة التي نراها في نحو استئجار شخص على ارتكاب جريمة .

وفكرة الباعث غير المشروع لا تسعفنا في تعليل ذلك البطلان ، لأن كلاً من الالتزامين المتقابلين « دفع المبلغ ، والامتناع عن فعل الجريمة » مشروع ذاتاً ومحلاً ، بل احدهما وهو الامتناع عن ارتكاب الجريمة واجب يحتمه القانون على كل شخص ، فبماذا نعلل البطلان في هذه الحال ؟ .

تبدل مفهوم السبب ونشوء النظرية التقليدية فيه

لهذه الاعتبارات التي تكونت في الفقه القانوني ، حول نظرية السبب بمفهومه الأول ، لجأ بعض علماء القانون الى بناء نظرية السبب على اساس جديد آخر يستند الى نظر موضوعي على ضوء تلك الملاحظات التي وجهها الفقه القانوني الى النظرية الاولى .

وقد قام الاستاذ القانوني الفرنسي « دوما Dumat » في القرن السابع عشر بصياغة نظرية السبب صياغة جديدة على الاساس الذي أطلق عليه فيما بعد اسم : « النظرية التقليدية » .

والسبب هنا في اصطلاح اصحاب هذه النظرية ليس هو الباعث الدافع كما كان في نظر السببيين الاوائل من علماء القانون الكنسيين ، بل السبب عند اصحاب هذه النظرية الثانية التقليدية معناه هو السبب الغائي cause finale ويفسرونه بأنه الغاية او الغرض المباشر but direct ، الذي يريد الملتزم في الالتزام العقدي حصوله قبل كل غرض آخر . وفي سبيله ومن اجله تحمل الالتزام عن طريق التعاقد ، وهو الذي يصح ان يقع دائماً جواباً لسؤالنا بقولنا : لماذا التزم فلان في عقده بكذا ؟ وذلك كقبض الثمن بالنسبة الى البائع ، وكتملك المبيع بالنسبة الى المشتري في عقد البيع ، وكقصد التبرع بالنسبة الى الواهب في عقد الهبة .

فقبض الثمن هو سبب التزام كل بائع بنقل ملكية المبيع الى المشتري ، لأن هذا القبض هو الغرض المباشر الذي يقصد اليه البائع ، ويحققه له عقد البيع .

وتملك المبيع هو كذلك سبب التزام كل مشتر بدفع الثمن ، لان هذا التملك هو الغرض المباشر الذي يبتغيه المشتري من الشراء وينتجه له عقده .

اما ما وراء ذلك من مقاصد غير مباشرة ، أي مما لا يحققه العقد مباشرة ، وانما ينويه العاقد شخصياً ويهدف اليه في النهاية من مقاصد مشروعة او غير مشروعة ، فتلك هي البواعث الشخصية التي يختلف فيها عاقد عن آخر . وذلك كقصد البائع مثلاً ان يقامر بالثمن ، او ان يتاجر به في المواد الجائزة او الممنوعة ، او ان يفي به ديناً ، او يدفعه في سبيل ارتكاب جريمة الخ ...

ومثل ذلك مقاصد المشتري الممكنة المختلفة من وراء تملك المبيع ، كما لو كان المبيع بيتاً مثلاً وهو يريد ان يسكنه او ان يؤجره او يتخذ منه مركزاً لعصابة اجرام الخ ...

فكل ذلك وامثاله بواعث شخصية تدفع صاحبها الى العقد والالتزام وتختلف باختلاف العاقدين ، وهي نوايا خفية ليست اغراضاً مباشرة ظاهرة من نوع العقد وطبيعته كغرض قبض الثمن ، وتملك المبيع ، فان هذا غرض مباشر ظاهر من نوع العقد ويحققه كل بيع للمتبايعين .

فهذا الغرض الموضوعي المباشر هو المقصود بلفظ السبب لدى اصحاب النظرية التقليدية ، دون الباعث الشخصي الدافع الى التعاقد ، والمختلف بين عاقد وآخر .

ومن الواضح ان ذلك الغرض المباشر ليس واحداً في جميع العقود ، بل يختلف في بعضها عنه في بعض آخر . فقبض الثمن مثلاً ، وهو الغرض المباشر للبائع في عقد البيع ، لا يمكن تصوره في الهبة لانها تبرع . ونية التبرع اذا اعتبرت على الغرض المباشر للواهب ، أي سبباً لالتزامه تجاه الموهوب له ، هي ايضاً غير منطبقة على الرهن او القرض او الايداع او الشركة او الوكالة الخ .. بينا ان نظرية السبب قد أوجدت لتكون سنداً فنياً قانونياً لبطلان كل عقد اذا تجاوزت فيه الارادة حدها وطغت على المقاصد

التشريعية ، فيجب ان تكون نظرية السبب قابلة التطبيق على كل التزام عقدي مهما كان نوعه ، وأياً كان العقد المنشىء له .

لذلك لجأ اصحاب النظرية التقليدية في السبب الى تصنيف العقود انواعاً عديدة ، يشتمل كل نوع على زمرة من العقود ، تجمع بينها صفة مشتركة ، وحددوا في كل نوعٍ سبب الالتزام بصورة تتفق في افراد النوع ، وتختلف ما بين نوع ونوع من العقود .

ما هو سبب الالتزام في كل نوع من العقود ؟

وهكذا رسموا للسبب صوراً شتى مضطربة موزعة على العقود فقالوا :

١ً ـ في العقود الملزمة لجانبين ، كالبيع والاجارة والصلح يعتبر سبب التزام كل جانب هو الالتزام المقابل له من الجانب الآخر . فالتزام المستأجر بالاجرة مثلاً ، سببه التزام المؤجر بتمليك المنفعة والتمكين منها ، وهكذا ..

٢ً ـ وفي العقود الملزمة لجانب واحد يحددون السبب كما يلي :

آ ـ اذا كان العقد عينياً « قرضاً او اعارة او ايداعاً او رهن حيازة » يعتبر سبب التزام المستلم بالرد هو تسلمه . فهذا التسلم هو غرضه المباشر الذي يلتزم لاجله برد ما يقبض .

ب ـ وان كان العقد رضائياً ففيه ايضاً تفصيل : فان كان وعداً ببيع او اجارة او نحوهما كان سبب التزام الواعد هو اتمام العقد الموعود به . وهو سبب احتمالي قد يتحقق او لا يتحقق .

وان كان تعهداً بوفاء دين ، فسبب الالتزام هو وجود دين يريد المتعهد وفاءه .

٣ً ـ وفي التبرعات كالهبة يعتبر سبب التزام المتبرّع هو نية التبرع .

٤ً ـ وفي عقود التفصيل كالوكالة والكفالة بلا أجر يعتبر سبب

الالتزام هو اسداء خدمة للدائن .

يتضح من ذلك ان السبب في النظرية التقليدية يتصل بموضوع العقد اتصالاً وثيقاً ، ومن ثم كان سبباً موضوعياً لا شخصياً . وهو لذلك ثابت لا يتغير في زمرة العقود التي هي من نوع واحد ، ولا يختلف باختلاف العاقدين ومقاصدهم ، وانما يختلف باختلاف نوع العقد اي ما بين زمرة وزمرة . وهو معلوم مقرر لكل عقد قبل التعاقد بحسب موضوعه النوعي . وهذا بعكس الباعث الدافع في كل هذه الصفات والخصائص .

وعلى هذا يمكن ان يقال : ان سبب الالتزام العقدي في النظرية التقليدية هو في الحقيقة : الغاية النوعية للعقد منظوراً اليها من زاوية الالتزام الاساسي الذي يحمله احد العاقدين لا من زاوية العقد كله بمجموع نتيجته .

فالغاية النوعية للعقد تتعلق بالعاقدين معاً وبمجموع حقوقهما والتزاماتهما الاساسية التي جعل العقد المعين طريقاً لانشائها ، وهي الموضوع المحدد سلفاً لكل عقد من العقود المسماة . فالشطر الذي يتعلق باحد العاقدين من تلك الغاية النوعية للعقد هو سبب التزام ذلك العاقد في نظر اصحاب النظرية التقليدية .

ونود ان نلاحظ هنا ان اطلاق لفظ « السبب » على هذا المعنى هو تسمية مشتبهة غير موفقة ، اورثته كثيراً من الشبهات والاختلاط ، واحوجته الى كثير من التجلية والايضاح الذي زاد النظرية التقليدية تعقيداً ، وكانت هذه التسمية فيما نرى من العوامل المغذية لما ثار حول هذه النظرية من جدل عنيف ، وغبار كثيف .

ركنية السبب وشرطيته في النظرية التقليدية

تعتبر النظرية التقليدية وجود السبب ركناً في الالتزام ، وتشترط فيه المشروعية . فلا بد لقيام الالتزام من امرين اثنين :

١ً - وجود سبب له ، لان السبب ركن له ، وإن الشيء لا يقوم دون ركنه .

٢ً - وان يكون السبب مشروعاً ، لان غير المشروع كالمعدوم اعتباراً .

والنتيجة ان الالتزام العقدي اذا بطل لعدم وجود سبب له او لعدم مشروعية ذلك السبب بطل العقد الذي اريد به انشاء ذلك الالتزام .

ففكرة السبب بقيت في النظرية الثانية التقليدية ، كما كانت في النظرية الاولى ، قيداً للارادة العقدية التي اطلقت من عقال الشكلية ، ووسيلة لابطال العقود التي تشذ فيها ارادة العاقد عن جادة النظام والاخلاق. وانما تبدل في السبب مفهومه ومبناه : فكان هو الباعث الشخصي الدافع ، فأصبح هو الغرض الموضوعي المباشر .

وقد ضربت النظرية التقليدية فكرة الباعث الدافع من الاساس . فمتى وجد سبب للالتزام بالمعنى المشروح في النظرية التقليدية وهو الغرض الموضوعي المباشر ، وكان ذلك السبب مشروعاً غير ممنوع ، صح العقد وقام الالتزام ولو كان الباعث على الالتزام غير مشروع .

فمن أجر بيتاً ، او اقرض مبلغاً ، او تبرع ، وكان السبب الموضوعي موجوداً حقيقة ، ومشروعاً ، « وهو هنا في هذه الامثلة قصد قبض الاجرة ، ودفع مبلغ القرض على اساس الاسترداد ، ونية التبرع » فالعقد صحيح والتزاماته قائمة معتبرة ، ولو كان الباعث على عقد الايجار جعل البيت مقراً للدعارة او إيواء المجرمين ، والباعث على القرض المقامرة ، والباعث على التبرع التشجيع على جريمة او استمرار علاقة غير مشروعة ، لان هذه البواعث في نظر اصحاب النظرية التقليدية ، مآرب شخصية باطنية خارجة عن نطاق التعاقد ، اي لا يلمس لها اثر في دائرة العقد وعناصره من رضى طرفين ومحل ، كما ان تلك البواعث الشخصية غير ثابتة بل

مختلفة متبدلة ما بين شخص وآخر ، بل قد تتبدل في نفس الشخص الواحد بعد العقد ، فلا يقام لها وزن ، ولا تقلقل لاجلها المعاملات .

عدم وجود السبب

ويصور اصحاب النظرية التقليدية عدم وجود السبب بحالات عديدة معظمها يظهر فيها التكلف والتمحل ، نجتزىء منها بالامثلة التالية :

١ ـ اذا تخارج وارث مع آخر يعتقد انه وارث ، ثم ظهر انه غير وارث .

٢ ـ اذا صالح الوارث الموصى له عن الوصية ، ثم تبين ان الموصي راجع عن وصيته .

٣ ـ اذا اتفق مدين مع دائنه على تجديد دين ، ثم تبين ان الدين القديم قد انقضى او انه باطل لعدم السبب . وفي النتيجة يعتبر العقد باطلاً ، لان كل التزام ارادي لا بد له من سبب بمقتضى النظرية التقليدية .

ملاحظة

يتضح مما تقدم ان التصرف العادي عن السبب غير مقبول في ظل نظرية السبب التقليدية . وهذا ما يسمى في الاصطلاح القانوني : التصرف القانوني المجرد وذلك مثلاً كالتعهد بدفع مبلغ بلا سبب .

وهذا غير ما لو كان الدفع على سبيل التبرع ، لأن نية التبرع عندئذٍ هي سبب له كما تقدَّم . والمراد به ايضاً غير ما لو كان السبب ليس بمذكور او ليس بمعلوم لانه حينئذٍ يفرض ان له سبباً وانما المراد ان يثبت كونه بلا سبب . وهذه قضية اثبات عدم السبب ، وعبء الاثبات فيها يقع على عاتق الملتزم المدين ، وبهذا جاءت المادة / ١٣٨ / من القانون المدني السوري كما سيأتي .

وزمرة القوانين الجرمانية التي تغلب اعتبار الارادة الظاهرة في التصرف تقبل مبدأ التصرف المجرد لانه ادعى الى استقرار المعاملات .

وقانوننا السوري واصله المصري الجديد لم يأخذا بمبدأ التصرف المجرد جرياً مع زمرة القوانين اللاتينية الا استثناء . ويرى مثال هذا الاستثناء في الانابة في الوفاء فقد اعتبر القانون التزام المناب في وفاء الدين تجاه المناب لديه صحيحاً ولو كان التزامه تجاه المنيب باطلاً « رقم / ١٣٧ / ٣٥٩ » .

عدم مشروعية السبب

اما عدم مشروعية السبب فمعناها مخالفته للآداب او النظام العام . ومن امثلة عدم مشروعية السبب ، ان يتعهد شخص لآخر بدفع مبلغ مقابل ارتكاب جريمة يريدها الاول . فالمبلغ محل مشروع ، اما فعل الجريمة فغير مشروع ، وهو سبب للالتزام المقابل لما رأينا من ان سبب كل من الالتزامين في العقود الملزمة لجانبين ـ ومنها المعاوضة ـ هو الالتزام المقابل . فيبطل الالتزام بفعل الجريمة لعدم المشروعية ، وبطلانه يوجب بطلان الالتزام المقابل بالمبلغ رغم مشروعيته لانه يصبح بلا سبب ، وفي النتيجة يبطل العقد .

فبطلان احد الالتزامين هنا لعدم مشروعية السبب ، وبطلان الالتزام المقابل لعدم وجود السبب .

اما اذا تعهد شخص بمبلغ لآخر لقاء عدم فعل جريمة ينويها ذلك الآخر ، فالالتزام بالمبلغ ايضاً يعتبر باطلاً ، ولكن العلة هي عدم وجود السبب في كلا الالتزامين . ذلك لان الشخص مكلف بالامتناع عن الجريمة بحكم القانون دون حاجة الى عقد ، فالتزامه بهذا الامتناع من الوجهة العقدية عدم ، فيبقى الالتزام بالمبلغ دون سبب ، فيبطل .

هذا ما نراه الوجه الصحيح في تخريج هذه الصورة ، خلافاً لما يقال ان البطلان هنا لعدم مشروعية السبب ، فهذا التخريج للبطلان هنا على عدم

المشروعية غير سديد لان الامتناع عن فعل جريمة هو المشروع ، ولكن الالتزام به من طريق العقد غير منعقد لانه تحصيل حاصل .

هذه مباني النظرية التقليدية في السبب وخلاصتها ، كما صاغها الاستاذ دوما الفرنسي في القرن السابع عشر الميلادي بعد ان تركزت في الفقه القانوني قبله خلال عدة قرون منذ القرن الثالث عشر ، ودعمها وشرحها من بعده طائفة من القانونيين كالاستاذ بوتيه Pothier . وقد سادت هذه النظرية الفكر القانوني حتى انتقلت في الحقوق الحديثة الى القانون المدني الفرنسي الذي وضع في عهد نابليون ، ومنه الى القانون المصري القديم .

الانتقادات التي هوجمت بها النظرية التقليدية في السبب

بعد ان اخذت النظرية التقليدية في السبب مركزها في القانون الفرنسي الحديث ، وانتقلت من حيز النظريات الى حيز التقنين ، وبسطت ذلك لسلطانها الفعال قوة تشريعية ، ظهرت مساوئها وضيقها وعمقها في التطبيق ، وبدأ يتكون في الفكر القانوني حولها احساس عميق بانها نظرية خيالية استعمرت الفكر القانوني قروناً بطريق التقليد بقوة الاستمرار ، وانها نظرية اقرب الى الاوضاع الشكلية الجوفاء منها الى الحقائق الجوهرية .

وقد بدأ الثورة على هذه النظرية الاستاذ البلجيكي ارنست Ernest سنة ١٨٢٦ ثم تلاه النقاد حتى تركزت حملة النقد الحاسمة فيما كتبه الاستاذ الفرنسي بلانيول ، فكان المعول الذي قوّض اركانها ، وبين فسادها في ذاتها وعدم فائدتها لان القواعد الاخرى المقررة في نظرية الالتزامات تغني عنها .

اما فسادها فللملاحظات التالية :

١ ـ في العقد الملزم للجانبين لا يصح القول بان كلا من الالتزامين المتقابلين سبب للآخر ، لانهما ينشآن معاً بالعقد ، والسبب يجب ان يتقدم المسبب .

٢ ـ وفي العقد العيني يقولون ان سبب التزام مستلم العين بالرد هو التسليم الواقع اليه ، بينما هذا التسليم في العقد العيني عنصر متمم للعقد المنشىء للالتزام ، فهو جزء من مصدر الالتزام وليس غرضاً مباشراً كما يفسرون السبب لديهم ، فهنا يختلط السبب بالمصدر .

٣ ـ وفي عقد التبرع يقول السببيون ان سبب التزام المتبرع هو نية التبرع ، وهذا لا معنى له ، لان نية التبرع في ذاتها لا قيمة لها اذا لم تقترن بالعوامل التي دفعت اليها .

على ان من الممكن الرد على هذه النقطة بان للنية قيمة على كل حال متى صاحبت الفعل بقطع النظر عن العوامل والبواعث الدافعة اليها .

فالاحسن في بيان فساد فكرة السبب هنا ان يقال : ان نية التبرع لا تصلح ان تعتبر سبباً بالمعنى الذي يقصده السببيون ، وهو الغرض المباشر ، وذلك لامرين :

الاول ـ ان غرض المتبرع ليس هو النية بل حصول التبرع .

الثاني ـ انهم يوجبون في الالتزام وجود سبب ويبطلون الالتزام عند عدمه . ومعنى ذلك ان السبب بمعناه لديهم يتصور فيه الوجود والعدم . فكيف يمكن في عقد التبرع عدم نية التبرع مع افتراض انه تبرع . اللهمّ الا ان يكون العقد صورياً ، لكن المفروض في نظرية السبب انطباقها على جميع العقود الحقيقية .

ويقول الاستاذ كاربونيه Carbonier عميد كلية الحقوق في جامعة بواتيه بفرنسا في محاضراته غير المطبوعة لعام ١٩٥٤ عن نظرية السبب : ان النية عنصر في التراضي وليست سبباً ، والا ساغ القول ، بناء على هذه النظرية ، ان سبب الالتزام في عقد البيع ايضاً هو نية اجراء البيع :

واما عدم فائدة نظرية السبب التقليدية فلأنها مستغنى عنها بالقواعد الاخرى المقررة في الفقه القانوني :

كما يتبين مما يلي :

١ً - في العقود الملزمة للجانبين يكفي ان نقول ان الالتزامين المتقابلين مترابطان بحيث يتوقف مصير كل منهما على مصير الآخر . ففي فكرة الارتباط هذه وهي فكرة صحيحة واقعية ملحوظة في هذه العقود ما يغني عن فكرة السبب المخترعة .

٢ً - وفي العقود العينية وعقود التبرع «وهي عقود يعتبر التسليم فيها جزءاً من العقد لا مجرد تنفيذ للعقد » لا يتصور فيها انفـــكاك السبب بالمعنى الذي يتصورونه - وهو التسليم في الاولى ونية التبرع في الثانية - عن العقد . فعدم السبب معناه عدم العقد ، فلا حاجة الى تعليل بطلان الالتزام بعلة عدم وجود السبب ما دام العقد ذاته غير موجود .

ويخلص خصوم نظرية السبب من تلك الانتقـادات الى نتيجة هي وجوب الاستغناء عن هذه النظرية ، وحذف نصوصها من القانون .

وقد دفع السببيون من انصار النظرية التقليدية في وجـــه تلك الانتقادات التي وجهها اليها خصومها بردود حاولوا بهـا دعم النظرية ، وتبنى الاستاذ « كابيتان » من المعاصرين حملة الرد انتصاراً للنظرية ، كما تبنى قبله بلانيول حملة النقد ضدها .

واقوى تلك الردود هو ردهم على الانتقاد الاول الذي يبنى على ان السبب يجب ان يتقدم على المسبب .

فقد ردوا على هذا الانتقـاد بانه انما يصـح لو كان السبب الذي تعنيه النظرية هو السبب المنشىء ، اي المصـدر المولد للالتزام . ولكن اصطلاح النظرية في السبب انه بمعنى المقصد المباشر كما سلف ايضاحـه . وبهذا المعنى لا مانع من ان يكون كل من الالتزامين المتقابلين في العقود الملزمة لجانبين مقصداً مباشراً للالتزام الآخر .

وهذا هو الرد الوحيد السديد من بين الردود التي رد بها السببيون على انتقادات الاستاذ بلانيول . ولكنهم واقعون فيما ردوا عليه ، فهم لم يستطيعوا ان يجتنبوا معنى السبب المنشىء في تفسير نظريتهم .

فهم قد حددوا السبب في العقود العينية بانه تسليم العين ، وفي التبرعات بانه ارادة التبرع ، وفي كليهما معنى من المصدر المولد او السبب المنشىء ! !

وعلى كل لئن اظهرت الردود ضعف بعض الانتقادات فانها لم تستطع ان تثبت صحة النظرية وفائدتها وعدم امكان نقدها من وجوه اخرى .

ولذا لجأ الاستاذ كابيتان الى تعديل في النظرية . فهو يرى مثلاً ان سبب الالتزام في العقد الملزم لجانبين ليس هو الالتزام المقابل ذاته ، بل هو تنفيذ هذا الالتزام . وينفذ من هنا الى قاعدة حق الفسخ في العقود الملزمة لجانبين اذا امتنع احد العاقدين عن تنفيذ التزامه ، فيزعم ان حق الفسخ الممنوح قانوناً للعاقد الآخر في هذه الحال مبني على نظرية السبب .

ولكن مما يلحظ هنا ان قاعدة الفسخ عند الامتناع عن التنفيذ مقررة في الفقه القانوني والتقنينات قبل ان يلجأ الاستاذ كابيتان اخيراً الى تحويل معنى السبب في العقود الملزمة لجانبين من الالتزام المقابل الى تنفيذه ، فكيف تكون قاعدة الفسخ مبنية على نظرية السبب ؟

وهكذا يحاول السببيون ان يقيموا لنظرية السبب التقليدية دعائم من اوهام ، ويجعلوا منها بطريق الخيال جملة عصبية للالتزام !! وهم يرقعونها على الدوام ، ولكن فساد الاساس يأبى عليها التماسك .

هذا ، وقد رأينا في ردود الاستاذ بلانيول ان فكرة الارتباط الكائن بين الالتزامات المتقابلة في العقود الملزمة لجانبين كافية لربط مصير كل من الالتزامين بمصير الآخر ، ومن هذا المصير حق فسخ العقد ،

والدفعُ بعدم التنفيذ ، عند تخلف احد المتعاقدين عن تنفيذ التزامه ، ولكنَّ السببيين يقولون : ما الذي اوجد هذا الارتباط بين الالتزامات المتقابلة في العقد الملزم لجانبين ؟ لا شك في نظرهم ان الذي أوجده هو السبب .

والجواب ان هذا الارتباط قد اوجده العقد نفسه ، والا فما معنى العقد ؟

ان موضوع البحث في التزامات عقدية ، لا في التزامات فردية . فمن طبيعة العقد ، وهو الاتفاق الذي انشأ تلك الالتزامات المتقابلة معاً ان يربط هذه الالتزامات بعضها ببعض ، لان العقد رباط ، ففيه الكفاية لتعليل هذا الارتباط دون حاجة الى التعليل بأي سبب آخر . فكما ينشىء العقد تلك الالتزامات المتقابلة ينشىء بينها التلازم .

المرحلة الثالثة او رجوع الاجتهاد القضائي بالسبب الى فكرته الأولى الصحيحة :

في خلال تلك المعركة المحتدمة بين خصوم نظرية السبب التقليدية وانصارها ، اتضح ان نظرية السبب التقليدية قد حولت السبب عن فكرته الاولى النفسية التي كانت قيداً حكيماً ورقيباً عتيداً على اتجاه الارادة العقدية لمنع استهتارها ولضمان بقاء نشاطها ضمن الاهداف المشروعة ، كي لا تتخذ من الحرية ومبدأ الرضائية ميداناً للشذوذ ، فاستبدلت النظرية التقليدية بفكرة الباعث الدافع هذه ، فكرة اخرى موضوعية جامدة هي اقرب الى تحديد معاني العقود منها الى تقييد الارادة العقدية .

وقد وجد القضاء الفرنسي في النظرية التقليدية نقصاً وجموداً يحولان دون استجابتها لمقتضى المصلحة العامة ، لا سيما بعد ان استقر الرأي الحديث في مبدأ سلطان الارادة على انه مبدأ غير مطلق ، واول قيوده النظام العام .

لذلك اتجه الاجتهاد القضائي في فرنسا اتجاهاً آخر يرجع بالسبب الى فكرته الاولى ، فيقيد الاتجاه الذي تجري فيه الارادة العقدية ، ويعيد الى فكرة الباعث الدافع قيمتها الاعتبارية التي سلبتها اياها النظرية التقليدية .

وهكذا تكونت في الاجتهاد القضائي نظرية ثالثة حديثة ، هي النظرية القضائية تفسر السبب بما يشمل معنى الباعث ، مستفيدة من اطلاق كلمة السبب الواردة في المواد / ١١٣١ / و / ١١٣٢ / و / ١١٣٣ / من القانون المدني الفرنسي . فهذه المواد لم يفسر فيها السبب تفسيراً يحصره بحدود النظرية التقليدية ، ويمنع اعتبار الباعث الدافع .

تحديد معنى الباعث وما يشترط فيه في النظرية القضائية

المراد بالباعث في النظرية القضائية هو الغاية النهائية الدافعة التي حملت المتعاقد على التعاقد .

فهذا الباعث يجب ان يكون مشروعاً وإلا بطل العقد .

ومعنى مشروعيته ان لا يكون مخالفاً للآداب العامة والنظام العام .

فاذا تعددت البواعث في العقد الواحد ، كما لو كان قصد البائع بعد قبض الثمن « وهو الغرض المباشر بحسب النظرية التقليدية » ان يتاجر بجانب من الثمن في مواد جائزة او ممنوعة ، وان يوفي منه ديناً ، ويتخذ خليلة او حليلة ، ويؤسس مكتباً للسمسرة في شؤون مختلفة الخ .. فالعبرة عندئذ للباعث الرئيسي ، فهو الذي يجب ان يكون مشروعاً : والباعث بهذا المعنى لا يبحث عن وجوده وعدمه ـ كما تشترط النظرية التقليدية وجود السبب ـ لأنّ كل عقد لا يخلو من باعث دفع بالعاقد الى التعاقد ، وانما يبحث عن مشروعيته .

لكن بطلان العقد عند عدم مشروعية الباعث اذا جرى على الاطلاق كان منافياً لاستقرار المعاملات ، ذلك لان هذا الباعث امر خفي فهو نية

باطنة لدى احد المتعاقدين قد يصعب او يتعذر على الآخر معرفتها ، وبذلك لا يستطيع عاقد ان يطمئن الى نتيجة عقده ، لما يمكن ان يظهر فيما بعد من بواعث لدى المتعاقد الآخر . وقد رأينا ان هذا المعنى كان من جملة العوامل على ظهور النظرية التقليدية التي ضربت فكرة الباعث الشخصي وهي النظرية الاولى في السبب ، واحلت محلها فكرة الغرض المباشر الموضوعي .

فلا بد من قيد يقي من هذا المحذور عندما تراد العودة الى اعتماد الباعث . لذلك استقر الاجتهاد القضائي على ان الباعث غير المشروع لا يكون سبباً لبطلان العقد الا اذا كان معلوماً لدى المتعاقد الآخر فاذا كان هذا عالماً كان معاوناً ، وكان البطلان جزاء عادلاً ، لم يفاجئه من مكمن ، ولم يأته من مأمن .

وللقضاء في فرنسا ، وكذا في غيرها ، تطبيقات كثيرة لنظرية الباعث هذه في مختلف انواع العقود ولاسيما في التبرعات . فقد ابطل القضاء عقوداً من النوع الملزم لجانبين لانها تدور حول انشاء بيوت العهر والقمار ، كما ابطل التبرع الذي ابتغى به انشاء خلالة مع خليلة ، او استمرارها ، او وصلها بعد انقطاع وابطل ايضاً تبرع احد الزوجين للآخر لحمله على الانفصال الودي ، وتبرع الرجل لامرأة بشرط ان لا تتزوج اذا كان الشرط هو الباعث على التبرع .

وهكذا شقت النظرية القضائية طريقاً للخروج بالسبب من نطاق الفكرة السقيمة العقيمة التي تقوم عليها النظرية التقليدية وتجعل من السبب نظاماً آلياً جامداً في العقود ، فنقلته النظرية القضائية الى فكرة جوهرية منتجة تتصل باهداف العاقدين والنظام العام ، واصبحت هذه النظرية هي السائدة اليوم ، واتجه اليها التقنين العصري .

النظرية القضائية تكميل للتقليدية ، لا بدل منها

هذا ، وان النظرية القضائية في السبب هي في نظر المحققين من

علماء القانون تكميل للنظرية التقليدية ، وتعديل توسيعي لها عن طريق اعتبار الباعث الدافع الى جانب الغرض المباشر الذي رسمته النظرية التقليدية، فالنظرية القضائية لم تخرج الغرض المباشر - بمعناه في النظرية التقليدية - من دائرة الاعتبار وتستبدل به الباعث الدافع كما اخرجت النظرية التقليدية الباعث . وانما اضافت النظرية القضائية في تفسير السبب فكرة الباعث الى الغرض المباشر . ومن ثم يرى المحققون ان النظرية القضائية الحديثة في السبب هي تكميل للنظرية التقليدية ، لا نسخ لها وقضاء عليها .

وهذا صحيح في نظرنا لان نصوص القانون الفرنسي في المواد ١١٣١ - ١١٣٣ انما تتمشى مع النظرية التقليدية التي كانت عند وضع القانون هي السائدة بلا منازع ، واراد واضع القانون تقنينها بهذه النصوص . والقضاء يستطيع الاجتهاد ان يستكمل معاني لم يمنعها النص . ولا يستطيع ان يلغي ما تناوله النص .

لكن النظرية القضائية تغني عن التقليدية لان فكرة الباعث ومشروعيته اوسع مدى في ابطال العقود المخالفة للنظام وذلك من طريق النظر الى الباعث ، وهي الطريق المعقولة التي تحد من النزعة المادية المفرطة في القانون بما يدخله اعتبار الباعث الدافع من عنصر خلقي ومصلحي في نظام التعاقد . وهو القيد الصحيح الواجب القاؤه على الارادة العقدية بعد تحريرها من قيد الشكليات الفارغة ، وذلك لكي لا تكون حرية الارادة عامل فساد اجتماعي بما تنطوي عليه بعض الارادات من شذوذ فمثل هذا الشذوذ لا ينبغي ان يتخذ من نظام التعاقد حصناً له ، ويسخر القانون لحمايته .

ويذهب بعض علماء القانون وفي طليعتهم « جوسران » (واضع مشروع القانون اللبناني) في الجمع بين النظريتين الى الازدواج في معنى السبب ، فالغرض المباشر بمعناه المشروع في النظرية التقليدية هو سبب الالتزام ، اما الباعث المقصود بالنظرية القضائية الحديثة فهو سبب العقد .

وبهذا الازدواج اخذ القانون اللبناني « قانون الموجبات والعقود » في المادة / ١٩٤ / منه .

رأينا في نظرية السبب

قدمنا ان منشأ فكرة السبب كان منبعثاً من الحاجة القانونية الى تقييد الارادة العقدية عندما اخذ مبدأ سلطان الارادة ورضائية العقد في الظهور لاول مرة على مسرح العقد في اوربة ، واصبحت الشكلية في العقد استثنائية بعد ما كانت هي الاصل .

والمنطق العقدي في ذاته لايستدعي فكرة السبب كما يستدعي وجود ارادة وأهلية ، ومحل ذي قابلية ، وانما نشأت نظرية السبب عند نشوء نظرية سلطان الارادة ورضائية العقد لتكون لجاماً يلجم تلك الارادة عن ان تجمح وتستغل حريتها في الشذوذ الى طريق يخرج عن نطاق تنظيم الحقوق الى نطاق من المفاسد الاجتماعية ينافي غاية التشريع في التنظيم والضبط ، ويتسلح بما يمنح للعقد من حرمة ، ولارادة العاقد من احترام .

ولذا نشأت نظرية السبب لتقييد الارادة العقدية ، ولتكون سنداً لابطال العقد اذا ابتغي به غير ما شرع له من الاهداف الصالحة المحترمة .

وبناء على ذلك يجب ان تكون فكرة السبب موصلة الى تحديد اتجاهات ارادة العاقدين واهدافها الشخصية التي يتطيان العقد اليها . وهذه هي الفكرة المعقولة التي قامت عليها نظرية السبب في مرحلتها الاولى على يد علماء القانون من رجال الدين في اوربة عندما اسسوا نظرية السبب على معنى الباعث الدافع الى التعاقد واوجبوا فيه ان يكون مشروعاً . فكما يكون القانون حماية للارادة العقدية يجب ان يكون في الوقت نفسه حماية لمقاصد التشريع والمصالح الاخلاقية من طغيان تلك الارادة وشذوذها .

لكن النظرية التقليدية التي كانت المرحلة الثانية لفكرة السبب قد خرجت به عن معناه المعقول المتناسب مع غايته تلك ، واعطته معنى مضطرباً يختلط بمعنى الغاية النوعية للعقود ، ويختلف في كل طائفة منها ويتجلى فيه الوهم والعقم .

ايضاح ذلك ، ان اصحاب النظرية التقليدية ارادوا صرف النظر عن الباعث على التعاقد ، وان يحددوا سلفاً لكل التزام عقدي سبباً موضوعياً بمعنى الغرض المباشر بالنسبة الى كل عقد ، واذ كانت الالتزامات في العقود كثيرة متنوعة قسموا العقود ثلاث زمر « معاوضات وتبرعات وعقود عينية » وجعلوا للالتزام في كل زمرة سبباً مستمداً من موضوع العقد ثابتاً في عقود كل زمرة ومختلفاً بالنسبة الى الزمر الاخرى كما تقدم ، فتعقدت فكرة السبب وتنوع معناها ، وهذه اهم نقاط الافتراق بين السبب بمعنى الباعث والسبب بمعنى المقصد المباشر الذي عليه النظرية التقليدية . فالباعث لا يمكن تحديده سلفاً قبل التعاقد لانه دافع شخصي متغير لا ينحصر ، وانما يتحدد بعد التعاقد بالنظر لما قبله ، بخلاف المقصد المباشر لانه متصل بموضوع العقد ، فيمكن تحديده سلفاً .

ومن ثم يظهر عدم فائدة نظرية السبب التقليدية ، لان اشتراط المشروعية في موضوع العقد ومحله يغني عنها . وهذا ما سلكه الفقه الاسلامي كما سنرى .

ففكرة السبب كما تصوره النظرية التقليدية لا يحتاج اليها النظام القانوني في العقد اصلاً وهي نظرية طارئة كان النظام القانوني مستغنياً عنها ، فيمكن ان يظل مستغنياً . وخصوم نظرية السبب التقليدية يبرهنون على عدم فائدتها . اما العقود التي وضعت هذه النظرية الوهمية لابطالها فيبطلها خصوم النظرية دون استناد الى السبب .

والواقع ان نظرية السبب التقليدية ان دلت على شيء فانما تدل على ضيق في زاوية النظر القانوني لدى مبتدعيها ومتبعيهم الذين لم يستطيعوا ان يروا الطريق الطبيعية القريبة للوصول الى النتائج المقصودة في نظام العقد ، فسلكوا طريقاً بعيدة وعرة مضللة ، واضاعوا جهودهم عبثاً في تعبيدها .

وايضاح ذلك ان النتيجة الاصلية المقصودة من نظرية السبب انما هي التوصل الى ابطال بعض العقود التي يتوافر فيها ركن الارادة ولا يجوز في المنطق التشريعي اقرارها .

والنظر السديد في ذلك ، هو ان يسلك اقرب الطرق الى هذه الغاية وهو طريق شرائط الانعقاد في العقد نفسه . فشرائط الانعقاد تحت تصرف الشارع يستطيع ان يزيد فيها فيقيد الارادة العقدية او ينقص فيطلقها بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة وسياسة التشريع . وهذا هو المسلك الطبيعي المباشر ان تعالج صحة العقد وبطلانه من طريق شرائط العقد نفسه .

ولكن السببيين اصحاب النظرية التقليدية لم يسلكوا هذا المسلك الطبيعي المعقول ، بل لجأوا الى ابطال هذا النوع من العقود من طريق اثرها وهو الالتزام ، لا من طريق شرائطها . فهم يسيرون في البطلان من الفرع الى الاصل ، لا من الاصل الى الفرع . وهذا في نظرنا هو نقطة الانطلاق في فساد مبنى نظرية السبب التقليدية .

وهكذا خلقوا للالتزام العقدي ركناً أسموه السبب بالمعنى الذي تقدم شرحه وهو الغرض المباشر ، مع ان الالتزام اثر لمصدره وهو العقد ، ولا يعقل ان يكون الركن للاثر بل للمصدر . وهذا من عيوب نظرية الالتزام العامة وفساد ترتيبها وصياغتها (ينظر كتاب « التصرف القانوني المجرد » للدكتور محمود ابي العافية في الخاتمة ص ٣٠٥ - ٣٠٧) .

وقد ساعد على تضليل فكرهم حالات يكون فيها العقد قد توافرت مقوماته وشرائطها بحسب الظاهر ورغم ذلك يجب بطلانه ، كتعهد بمبلغ لقاء الامتناع عن ارتكاب جريمة . فركن الارادة حاصل بالتراضي ، واهلية المتعاقدين متوافرة ، والمحل ممكن ومشروع ، وهو عدم ارتكاب الجريمة من جانب ، ودفع المبلغ من الجانب الآخر .

فما السبيل القانونية لبطلان مثل هذا العقد ؟

لا سبيل في نظرهم الا من طريق ما اسموه سبب الالتزام كما تقدم ، لتوافر الشرائط في جميع نواحي العقد . وهذا دليل ضيق الفكر كما قلنا ، فقد فاتهم ان شرائط الانعقاد لا ينحصر تعلقها في الرضى والعاقد

والمحل ، بل كل ناحية ذات صلة بالعقد يمكن ان يلقي التشريع عليها ما يشاء من شرائط كموضوع العقد وباعثه على ما سنرى .

منطقية الفقه الاسلامي في هذا المقام

والفقه الاسلامي قد سلك الطريق القويمة في ابطال هذه العقود التي جاءت نظرية السبب التقليدية في الفقه الاجنبي لابطالها ، فقد توصل الفقه الاسلامي بمنتهى السهولة والبساطة الى الحكم ببطلانها من طريق شرائط انعقاد العقد رغم توافر ركن الارادة وشرائطها في هذه العقود .

ولنأخذ ابرز الامثلة العقدية التي يظن انها تستعصي على البطلان لولا نظرية السبب التقليدية وننظر كيف يبطلها الفقه الاسلامي من طريق شرائط العقد وهذه الامثلة البارزة هي الاتفاق على دفع مبلغ لقاء ارتكاب جريمة ، او لقاء الامتناع عن ارتكابها .

آ ـ فالمثل الاول « وهو الاتفاق على دفع مبلغ لقاء ارتكاب جريمة » يوجب الفقه الاسلامي فيه بطلان العقد لفقدان بعض شرائط المحل ، اذ يشترط في محل العقد ان يكون مشروعاً وارتكاب الجريمة ممنوع فيبطل العقد . وببطلانه يبطل التزام العاقد بدفع المبلغ لان صحة الالتزام العقدي فرع عن صحة العقد الذي ينشئه ، فاذا بطل الاصل بطل الفرع . وهذا كما ترى منطق سديد في غاية الانسجام .

لكن السببيين في الفقه الاوربي يقولون :

اذا كان التزام المتعهد بارتكاب الجريمة باطلاً لعدم مشروعية محله، فان التزام الطرف الآخر بدفع المبلغ محله ذلك المبلغ ، وهو محل مشروع فكيف يمكن الحكم ببطلانه لولا نظرية السبب ؟

والجواب ان الملتزم بالمبلغ لم يلتزمه بارادة منفردة بل بارادة عقدية ، فلا يصح ان ننظر الى التزامه منفرداً بل في اطار العقد . فاذا انهار هذا

العقد سقط جميع ما كان ضمن اطاره ، كما تموت جميع فروع الشجـــرة بقطع جذعها .

ونقطة الخطأ عند السببيين انهم يحاولون تعليل بطلان الالتزامات العقدية كلاً بمفرده ويقطعون النظر عن ارتباطها بالمصدر المنشىء وهو العقد ثبوتاً وسقوطاً كارتباط الفرع باصله . ومن هنا يتجلى ما اسميناه : ضيق الفكر في نظرية السبب التقليدية .

ب ـ والمثل الثاني « وهو الاتفاق على دفع مبلغ لقاء عدم ارتكاب جريمة » تتجلى فيه وفي نظائره عند السببيين الحاجة المبرمة الى نظرية السبب ولا يمكن في نظرهم بطلان العقد فيه دون الاستناد الى تلك النظرية لان محل الالتزامين المتقابلين فيه محل مشروع « دفع مبلغ وعدم ارتكاب جريمة » .

هذا العقد يبطله الفقه الاسلامي ايضاً من طريق شرائط الانعقـاد بمنتهى السهولة والبساطة لان من شرائط انعقاد العقد في الفقه الاسلامي ان يكون العقد مفيداً . ومعنى كونه مفيداً ان يكون العقـد على تقدير صحته محققاً لموضوعه ، اي ان تكون له في نطاق موضوعه نتيجة حقوقية جديدة بين الطرفين لم تكن حاصلة قبل التعاقد . فالعقد الملزم لجانبين مثلاً كالمعاوضات من بيع واجارة ونحوهما يجب لانعقاده ان يكون على تقـدير صحته منشئاً لالتزامات متقابلة بين الطرفين لم تكن حاصلة لولا التعاقد . وعقد التبرع كالهبة مثلاً يجب لانعقاده ان يكون على تقدير صحته ناقلاً للموهوب اليـه ملكيةً لم تكن حاصلة له من قبل . فاذا لم يكن للعقد هذه الثمرة كان باطلاً ، لانه غير مفيد فهو من قبيل تحصيل الحاصل .

وعلى اساس هذه الشريطة في العقـد قرر فقهاء الشريعة بطلان امثلة كثيرة :

ـ فابطلوا استئجار الرجل زوجته على عمل من اعمال ادارة البيت باجرة معينة ، وعللوا البطلان بان هذه الادارة المتعاقد عليها واجبة شرعاً

على المرأة بمقتضى الزوجية قبل هذا الاستئجار ، فلم يوجب عليها الاستئجار التزاماً جديداً لم يكن واجباً عليها لولا التعاقد . واذا بطل عقد الاستئجار بطل التزام الزوج بدفع الاجرة ايضاً لتفرعه عن العقد ، كما قلنا في المثل الاول . وهكذا كل استئجار لشخص على فعل واجب عليه شرعاً قبل التعاقد .

ـ وابطل فقهاء الاسلام ايضاً عقد الرهن في مقابل الوديعة او العارية . لانه غير مفيد اذ ان الوديعة والعارية غير مضمونتين على الوديع والمستعير اذا هلكتا دون تعد او تقصير . وفائدة الرهن انما هي التوصل الى استيفاء الدين من قيمة المال المرهون ، فاذا صح رهن المستعير لدى المعير شيئاً في مقابل العارية وهلكت عند المستعير لا يضمن للمعير شيئاً يمكن استيفاؤه من المرهون فيبقى عقد الرهن غير منتج . ومثل ذلك يقال بالنسبة الى هلاك الوديعة . فلذا يبطل الرهن من الاصل ولا ينعقد.

« وقد اوضحتُ هذا المبدأ الفقهي من الفقه الاسلامي في كتابي « المدخل الفقهي العام » كما بينه العلامة ابن عابدين في « رد المحتار ٥/٣١٧ وصاحب البدائع في الاجارة ٤/١٩١ - ١٩٢ » .

فعلى هذا الاساس نقول في مثال التعهد بدفع مبلغ لقاء عدم ارتكاب جريمة انه في نظر الفقه الاسلامي باطل بمقتضى هذه الشريطة من شرائط انعقاد العقد ، لان عدم ارتكاب الجريمة هو واجب بحكم الشرع على الشخص قبل التعاقد ، فلم يوجب التعاقد فيه التزاماً جديداً ، فيبطل العقد لعدم فائدته . وببطلانه يبطل التزام الطرف الآخر بدفع الاجرة لانه فرع عن صحة العقد .

وهكذا نرى ان كل عقد يبطله السببيون لعدم وجود سبب الالتزام او لعدم مشروعية ذلك السبب يمكن ابطاله من طريق شرائط العقد نفسه وهو الطريق الصحيحة القريبة . فما فائدة نظرية السبب التقليدية اذن على ما فيها من خيالية وتناقض ؟ لا شك انها كالعقد غير المفيد ، باطلة مثله.

على ان السببيين يزعمون لنظريتهم ثمرة قانونية اخرى غير التوصل الى ابطال مثل هذه العقود ، فيقولون ان قاعدة الفسخ والدفع بعدم التنفيذ في العقد الملزم لجانبين متفرعة عن نظرية السبب ، كما تقدم .

لكننا قد بينا ان قاعدة الفسخ هذه يمكن تقريرها دون حاجة الى نظرية السبب ، وهي ايضاً غير متفرعة عن نظرية السبب لان قاعدة الفسخ اقدم منها ، فهي موجودة في القانون الروماني وفي بعض اجتهادات الفقه الاسلامي ، وكلاهما لم تعرف فيه نظرية السبب الطارئة على القانون والتي استعمرت الفكر القانوني في اوربة بالغفلة والوهم قروناً عديدة .

لكن النظرية المعقولة انما هي النظرية القضائية الحديثة في السبب ، اي نظرية الباعث الدافع ، فهي نظرية منتجة ومتصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة النظام العام .

والفقه الاسلامي تختلف اجتهادات فقهائه في مدى اعتبار مشروعية الباعث لانعقاد العقد . فكثير من الاجتهادات الاسلامية يبطل العقد اذا كان الباعث الدافع للعاقد الى التعاقد غير مشروع ، كما في النظرية القضائية الحديثة في القانون الاوربي تماماً . ومنهم من لا يقيم كبير وزن واعتبار لمشروعية الباعث الشخصي بعد ان يكون محل العقد وموضوعه مشروعين ، الا في نطاق ضيق . والمذهب الحنفي من اقل المذاهب الاجتهادية اعتباراً لمشروعية الباعث .

موقف القانون المدني السوري من نظرية السبب

كان لا بد لنا من عرض نظريتي السبب القديمة والحديثة في الفقه الاجنبي بالقدر الذي سلف بيانه لكي يمكن الحكم على موقف القانون المدني السوري بين هاتين النظريتين ، ومعرفة ما اذا كان في المواد التي تكلم فيها عن السبب قد بنى على النظرية التقليدية او على النظرية القضائية الحديثة ، او اختار طريقاً ثالثاً . ذلك لان موقف القانون السوري واصله

المصري الجديد في هذا الموضوع مضطرب متناقض ما بين ظاهر النص وغرض واضعه وشارعه .

بحث القانون المدني السوري واصله المصري الجديد عن السبب في المادتين « ١٣٧ - ١٣٨ = ١٣٦ - ١٣٧ » .

اولاهما تبحث عن ضرورته ومشروعيته ، والثانية عن اثباته ، ونصهما في القانونين كما يلي :

م / ١٣٧ - ١٣٦

اذا لم يكن للالتزام سبب ، او كان سببه مخالفاً للنظام العام او الآداب كان العقد باطلاً .

م / ١٣٨ - ١٣٧

١ - كل التزام لم يذكر له سبب في العقد يفترض ان له سبباً مشروعاً ما لم يقم الدليل على غير ذلك .

٢ - ويعتبر السبب المذكور في العقد هو السبب الحقيقي حتى يقوم الدليل على ما يخالف ذلك . فاذا قام الدليل على صورية السبب فعلى من يدعي ان للالتزام سبباً آخر مشروعاً ان يثبت ما يدعيه .

وواضح للمتأمل في عبارة هاتين المادتين انهما تمدان بايديهما الى النظرية التقليدية في السبب ، للملاحظات التالية :

١ - ان المادة الاولى منهما توجب لصحة الالتزام ان يوجد له سبب مشروع ، وتبطل الالتزام بالعقد عند عدم وجوده او عدم مشروعيته.

ولا يخفى ان النظرية التي تبحث عن وجود السبب وعدمه انما هي النظرية التقليدية ، اما النظرية القضائية الحديثة فانما تبحث عن مشروعية السبب فقط ، لا عن وجوده وعدمه كما سلف بيانه ، لان السبب عند اصحابها هو بمعنى الباعث الدافع الى العقد ، ولا يخلو عقد من باعث دافع اليه ، والا كان العاقد عابثاً او مجنوناً .

٢ ـ ان الفقرة الاولى من المادة الثانية تبنى على اساس ان السبب بحسب العادة يذكر في العقد فنصت على انه اذا لم يذكر يجب ان يفترض ان للالتزام سبباً مشروعاً .

ولا يخفى ان السبب الذي يذكر عادة في العقد ، انما هو السبب في النظرية التقليدية بمعنى الغرض المباشر كما تقدم . اما البواعث فلا تذكر عادة في العقود ، وانما هي اهداف اخيرة ينويها العاقدان .

٣ ـ ان الفقرة الثانية من المادة الثانية تبحث عن المكلف باثبات سبب مشروع عند ثبوت صورية السبب المذكور في العقد .

ولا يخفى ان الباعث الدافع ـ وهـــو نية ومقصد شخصي مضمر خارج عن نطاق التعاقـــد ـ لا تتأتى فيه الصورية ، لان هذه الصورية لا تتصور الا في امر قانوني ظاهر .

وهذا ما يستفاد من تحليل نصوص القانون الواردة في السبب ، فهي كما بينا تمد بايديها الى النظرية التقليدية .

لكن واضع القانون نفسه الاستاذ السنهوري ينقد النظرية التقليـدية في المذكرة الايضاحية للقانون أشدَّ النقد ، ويصرح بعدم فائدتها اصلاً ، وبأن القانون قد هجرها ملياً ، وانه رجع بالسبب الى اصله المعقول وهـو الباعث الدافع الذي جرت عليه النظرية القضائية ، ويقول : « ان السبب في القانون الجديد لا يقصد به الا الباعث الدافع الى التعاقد ، ولا يشترط فيه سوى شريطة واحدة هي المشروعية » (ينظر الوسيط للاستاذ السنهوري ف / ٢٩٣ / والمذكرة الايضاحية تحت المادتين ١٣٦ و ١٣٧ من القانون المصري الجديد) .

وقد اقرت هذا جميع اللجان التي مر عليهـــا القانون المصري في مراحل النظر فيه في مجلسي النواب والشيوخ المصريين .

وقد قدمنا ان النظرية التقليدية تشترط في السبب بمعناه لدى اصحابها شريطتين : الوجود والمشروعية .

فاذا قيل في المذكرة الايضاحية : لم يبقَ للسبب في القانون الجديد الا شريطة واحدة هي المشروعية فقط ، فمعنى ذلك ان القانون لا يشترط وجود السبب بل مشروعيته . فاين هذا من قول القانون في المادة الاولى من مادتي السبب : « اذا لم يكن للالتزام سبب ..... كان العقد باطلاً » ؟

ويعترف واضع المشروع الاستاذ السنهوري في وسيطه بأن صياغة هذا النص القانوني في بحث السبب معيبة ، وانها اقرب الى النظرية التقليدية ، لكنه يرى امكان تنزيله على نظرية البـــاعث دون ان يبين كيفية هذا التنزيل والتأويل .

لكن الاستاذ احمد حشمة ابا ستيت يرد بشدة على هذه المحاولة من الاستاذ السنهوري ويرى ان نصوص القانون المذكورة لا يمكن تمشيها الا على النظرية التقليدية ، ويدافع عن هذه النظرية بقوة ، ويرى انه عند اختلاف النص عن المذكرة الايضاحية يجب اعتبار النص لانه هو القانون ، وترك ما في المذكرة الايضاحية (ينظر كتاب « الالتزامات » الجديد للاستاذ ابي ستيت ف / ٢٣٤ - ٢٤٠) .

رأينا في نص القانون في السبب

اننا نسلم بأنه عند تعارض نص القانون مع المذكرة الايضاحية تكون العبرة لنص القانون . ولكن هذا عندما لا يمكن تأويل النص وتنزيله على ما في المذكرة الايضاحية ولو بشيء من التكلف والخروج عن ظاهر النص ، ذلك لان المذكرة الايضاحية تكشف عن مراد الشارع وغرضه فعند امكان التوفيق بين نصه ومراده يكون هذا التوفيق اولى ، ولا سيما اذا كان هذا المراد الذي صرحت به المذكرة الايضاحية هو الذي تقتضيه المصلحة ، واليه يتجه التشريع الحديث الذي يجب ان يتقدم

الى الامام في البناء على الاسس المنطقية السديدة ، لا ان يرجع الى الوراء فيحيي نظريات ثبت فسادها ، ولفظتها اوطانها ، ولفت في اكفانها .

وكل ما في الامر ـ ان امكن حمل النص القانوني على ما يوافق مذكرته الايضاحية ـ هو ان يعتبر في هذا النص سوء تعبير . وهذا خير وأهون من التمسك بظاهر النص الذي يؤدينا الى التشبث بنظرية صرح الشارع نفسه بأنه نبذها ولم يأخذ بها لفسادها وعدم فائدتها . فسوء التعبير عندئذ هو أهون الشرين .

وطريقة التأويل فيما نرى هي ان نفسر السبب بمعنى الباعث في كل جملة جاء فيها لفظه من المادتين المذكورتين .

أ ـ وعندئذ : يكون قول القانون في المادة الاولى منها : « اذا لم يكن للالتزام سبب .... كان العقد باطلاً » معناه اذا لم يكن للالتزام العقدي باعث .

والذي يرد على هذا التأويل ، ان الباعث لا يتصور انتفاؤه مع ان النص يتكلم عن حالة انتفائه ، ويرتب عليها جزاء البطلان فيفيد امكان هذا الانتفاء .

والجواب انه لا مانع من ان تبقى هذه الجملة في القانون نظرية محضة غير قابلة الوقوع ، فتكون نصاً صحيح المعنى لكنه مستغنى عنه لعدم امكان تحقق مضمونه ، وهذا سوء صياغة ، وسقم عبارة ، لكنه اهون من حمل النص على النظرية التقليدية .

ب ـ ويكون قول القانون في المادة الثانية « ويعتبر السبب المذكور في العقد هو السبب الحقيقي » فاذا قام الدليل على صورية السبب فعلى من يدعي ان للالتزام سبباً آخر مشروعاً ان يثبت ما يدعيه ، معناه انه يعتبر الباعث المذكور في العقد هو الباعث الحقيقي الخ ..

والذي يرد على هذا التأويل ان البواعث لا تذكر عادة في العقود

لانها دوافع خفية في نفس العاقد ، فليست مما تجري فيه الصورية لان الصورية تكون في الارادات الظاهرة التي تبرز بالتعبير عنها .

والجواب انه اذا لم يكن من المعتاد التصريح بالبـــاعث في العقد فليس ذلك بممتنع ، اذ يمكن ان يصرح بالباعث في العقد لتكون مشروعيته ظاهرة بدلاً من ان تكون مفترضة افتراضاً عند عـدم ذكره . وعندئذ اذا ذكر الباعث في العقد ـ وان كان ذكره خلاف المعتاد ـ امكن ان تجري فيه الصورية ، بأن يذكر باعث مشروع ، ويقوم الدليل على انه ليس هو الباعث الحقيقي وان الباعث الحقيقي غير مشروع . وعنـدئذ على مدعي المشروعية ان يثبتها بدليل معاكس .

واذا امكن تأويل السبب في هذه الجمل هكذا بمعنى الباعث سهل تفسيره كذلك في بقية مواقعه من المادتين المذكورتين ، لان بقية المواقع اكثر قابلية للتفسير بمعـنى الباعث . كل هـذا مع تسليمنا بأنه تأويل في غاية التكلف ولكن يشفع له انه هو الذي يجعلنا نمشي مع مراد الشـارع وصراحة مذكرته الايضاحية ، وفيه يتحقق الاتجاه التقدمي الاصلاحي في هذه الناحية من القانون .

هذا ، وقد كان الواجب على واضع القانون ، اذ عزم على اجتناب النظرية التقليدية في السبب ، ان يهجر لفظ السبب بتاتاً في هذا المقام فلا يعبر به ، ويعبر بلفظ الباعث المقصود رأساً ، فاننا نرى ان من عوامـل الاضطراب والتعقد في نظرية السبب في الفقه الاوربي استعمال لفظ السبب نفسه ، لان اشهر معنى للفظ السبب هذا معنى المصدر المنشىء ، فتحويله الى تلك المعاني الاخرى اورث كثيراً من الشبهات .

هذه الملاحظة اللفظية نزجيها بمناسبة ما بلغنـا ان هناك تفكيراً في مصر بتعديل نص المادتين المذكورتين من القانون المدني بصورة تتفق في ظاهر العبارة مع المذكرة الايضاحية فيدل دلالة واضحة على معنى الباعث

ومشروعيته كما هو مقرر في النظرية القضائية الحديثة ، ويستبعد كل احتمال لتنزيل النص على النظرية التقليدية في السبب .

فتعديل صياغة النص فكرة حسنة جداً على ان يعبر بلفظ « الباعث » ويدفن لفظ « السبب » نهائياً في هذا المقام ، فلا يستعمل في القانون إلا بمعناه الاصلي وهو المصدر المنشىء للالتزام .

المحاضرة السادسة

في المغرب الأقصى

الدكتور سامي الدهان

عضو المجمع العلمي العربي

= القيت بتاريخ ٥ / ٤ / ١٩٥٧ =

سيراني سادني

وقفتُ حيال ناطحات السحاب ، وشلالات نياغرا ، والجبال السحرية لكران كانيون ، ومغاني هوليود ، وشطآن الهادي . ووقفتُ أمام قاعات الكرملين وساحات لننغراد ، وعظمة الفولغا ، وأمجاد ستالينغراد ، وآثار سمرقند وطاشقند . وطوّفتُ مراراً في العواصم الغربية والشرقية سعياً وراء المخطوطات العربية ، وبحثاً عن تواريخنا القديمة ، فرحاً مغتبطاً باصطياد الكنوز الثمينة ، قرير العين بما أرى ، ولكنَّ هاتفاً كان يهزني هزاً عنيفاً كلما استسلمت للتفكير العميق ، فتردد شفتاي على غير ارادة مني ابياتاً قالها المتنبي ، وهو يطوف في ارض فارس بشعب بوّان :

مغاني الشعبِ طيباً في المغاني ... بمنزلةِ الربيعِ منَ الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
ملاعب جنَّةٍ لو سارَ فيها ... سليمانٌ لسارَ بترجمانِ

أجل ، إنه شعور غريب كان يصحبني في هذه الولايات والممالك ، بمشرق أوربة أو غربي الاطلنطي ، في العالم القديم او العالم الجديد على كثرة الاعجاب والفتنة والسحر التي كانت تغمر نفسي ، فقد رأيت كيف اتحدت شعوب مختلفة واعراق متباينة ، وألسنة متنافرة ، وأقوام في تواريخ شتى متباعدة فكونت مع ذلك اقليماً واحداً ، وأمة متحدة . حتى لكأنَّ الجن قد عبثت بأيديها ، فقلبت الصحارى الى جنائن ، والجبال

الجرداء الى مساكن ، والانهار المتباعدة الى اتصال ، فخرقت تحت الأرض ووصلت بين السماء والسماء ، وركزت في كل مكان عبقرية جنية عجيبة .

ولكنّ هذه الربوع على فتنتها وسحرها ومن فيها من أنس وجن، ليست في شعور العربي الا لوحات تظهر ثم تختفي ، وتقبل ثم تنطوي فهي كالاحلام والآمال ، بل انها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، لأنه لايملك منها امراً ولا يشركها في ذكرى ، وليس له منها الا هذا الجمال العارض ، والفتنة العابرة ، ثم يزول كل شيء ، فلا تاريخ ولا وشائج ولا أنساب ولا أماني عميقة ولا ذكريات مشتركة .

فلما بلغتْ المغرب العربي رأيت الفتنة والسحر كذلك ، ولكنني عجبت للشعور الجديد ، وتساءلت انّى للربوع ان تتحدث ، وللجبال أن تتنفس ، وللشجر ان يلتف ويحنو ، لكأن هذه المرابع روح من روحي ونفس من نفسي وضلوع في صدري . يخفق القلب للتاريخ ويتحرك الجنان بالذكرى ، وتطوف بي صور الماضي . لذلك تمسكت بكل جدار ، وانتسبت الى كل أثر ، وعادت روحي اليّ ، وغبت عن دنيا الجمال الى دنيا المفاخر والمآثر .

ذلك لأن قومي مروا هنا منذ احقاب ، فصنعوا التاريخ ، وسكبوا على جدران الأسوار قطرات من دمائهم الزكية ، وتركوا في خزائن الآثار مداد قلوبهم ونفحات عقولهم ، وعطروا الوديان بأنفاس الشعراء والأدباء والكتاب وأثاروا الرمل والتراب بحوافر خيولهم ، وخطوا في الارض سطوراً من النضال والقتال ، وكتبوا في هذه الدنيا الجديدة البعيدة ، أسفارا لا تقل عن أسفارهم القديمة العتيدة .

قام خالد للشام في المشرق فنهض طارق لطنجة في المغرب ، ووقف أبو عبيدة بن الجراح للفتح في ربوع سورية ، كما وقف عقبة بن نافع للفتح في ربوع المغرب . فدوّى نداء ونداء ، واستجاب المشرق واستجاب المغرب لهذه الأمة ، وتغنت البطاح باهازيج النصر في كل مكان ، وتساقطت

الاعلام امام هذه الجيوش الفتية ، تزرع الخير والامان ، وتبذر العلم والايمان . وتنشىء في كل بلد وصقع من مشيد البناء والعمران ، والاسوار والقلاع ، والمدارس والمستشفيات ما يملأ الصفحات ويشغل الباحثين قروناً وقروناً .

وهذه الوجوه التي أرى في المدن المغربية وجوه قومي وابناء أمتي قد لوحتها الشمس ، ونضَّرها الريح ، والتفت بثياب عربية بيضاء ناصعة في قامات طويلة فارعة ، وعيون سوداء تلمح فيها سطور الماضي وتقرأ فيها عبر الاجداد ، ولهجة مغربية عجيبة تقف حيالها حيران اول الامر فاذا ادركت نغمتها ، وما اتصل من حروف وما تقطع ، وما تمد من ألفاظ وما تجمع ، رأيتَ العربي القديم يتحدث في ثياب هؤلاء القوم ، واحسست بالوجوه الكريمة تتضاحك مستبشرة للقائك ، وشعرت أنك في قومك ، وليس لك الا ان تسير في الارض فتنظر كيف عمَّر الاجداد هذه الربوع ، وكيف قامت دولنا خلال القرون ، وتبحث عن التاريخ ، لتحدث قومك عما قرأت ، وعما سمعت ، وعما رأيت .

وما اظن الا ان قومي يهشون لهذا الحديث ، ويهرعون الى انباء هذه الامة الكبيرة التي شاركت في امجادهم وتاريخهم ، يحبون ان يعرفوا كيف حال الحال ، وكيف وقع الاستقلال ، وما كان قبل ذلك من انحلال واحتلال ، فالمغرب العربي جناحنا الايسر وعدتنا في الملمات اذا تأزمت الملمات . ولا ينهض طائرنا العربي الا بجناحيه جميعاً ، ولن يعود هذا الطائر خفاقاً في السماء مدوّياً في الدنيا الا اذا تعاضد الجناحان ، وقامت الولايات المتحدة العربية من جديد على نمط عربي موروث ، في وحدة اللغة وشركة التاريخ ، وعود الامجاد والمفاخر .

وما الرحلة الى المغرب اليوم بالامر العسير . فقد أخذ اخواننا المغاربة بأمر التمثيل الخارجي ، يمنحون الاذن في يسر ورعاية وحفاوة وحدب ، فكأنك تنقل من قومك الى قومك .

سيداتي ، سادتي :

ليس من الخير ان نعرف انهار امريكا ، وحروب المانية ، وعشيقات

الملوك في فرنسة ، واخبار الوحدة الايطالية ، قبل ان نعرف من امر امتنا ما يجب ان نعرف ، فقد كان التعليم لزماننا خلال الانتداب ، يقيم وزناً لكل هذه الاخبار اليسيرة ، ولا يعرفنا بأقاليمنا ، فاذا جاءنا كتاب القاضي عياض ، او الروض الانف للسهيلي ، او القانون للجزولي ، والمعجب للمراكشي ، ونزهة المشتاق للادريسي . تساءلنا أين تقع سبته ، وأين تكون مراكش ، وما هي جامعة القرويين ، وما شأن رباط الفتح ، وما امر الادارسة والسعديين والمرنيين والعلويين . ثم ما البربر والعرب . ونظر بعضنا الى بعض فسارع المتفيهقون الى الكتب الاعجمية ، فاذا هي تلقننا الدسائس في الاخبار والمعلومات . ونحن على ذلك اصحاب الارض ووارثو التاريخ ، لا نعرف عن التاريخ والارض ما ينقع الغلة او يشفي العلة ، كما كان القدماء يقولون .

وانما سكنت قلوبنا صورة عن هذا المغرب لا تقع من الكرم والنبل في شيء ، فنحن نحسب انه صحارى واسعة ، تسكنها خيام كثيرة ، وقبائل عديدة ، ونظن ان البربر لا يفهمون العربية ، وان العرب والبربر اقتسموا الارض ونزلوا منها منزل الجاهلية الأولى في السلب والنهب ، فعاشوا على اللبن والتمر ، فلا حضارة ولا جوامع ولا ثقافة ولا مؤلفات .

هذه الصورة للمغرب الاقصى ورثناها عن كتب الانتداب ، فقد أراد المستعمرون ان يعلموا القاضي والداني هذه المعلومات المشوهة ليقولوا ان المغرب في حاجة الى وصاية ورعاية ، وهو ما يزال على وحشية مريعة . وزادنا ايماناً بهذه المعلومات ما نثر الغربيون من بطاقات وصور عن المغرب كما نثروا عنا من قبل منذ نصف قرن ، وهي وحدها سارت في العالم تعلمه عن أمرنا وحياتنا . لذلك يعجب الغربيون حين يقعون على سوري في ثياب نظيفة ، وطلعة شريفة ، ولغة طلقة ، ومعلومات تقف لمعلوماتهم ، يعجبون ويظنون ان افراداً قلائل قد بلغوا مبلغ هذا السوري . واما الشعب في جملته فهو كما تصوره البطاقات والصور . لهذا تتحدث البرقيات عنا كما تتحدث عن أكلة لحوم البشر ، وباعة الجواري ، وتجار الزوجات ،

نفرح للآلات الغربية ونذهل خشّعاً لها . ولذلك قالوا ان عندنا فراغاً يملئونه بوجودهم الكريم وعقلهم العظيم وتفكيرهم السليم . فدبروا أمورنا وقلقوا لمصيرنا ، ورسموا مستقبلنا ، لأن الله ارادهم لنا آباء يخافون علينا الريح والحرير ، فهم انسانيون ابداً ، يكرهون الاستعمار والقتل والنهب . وتاريخهم منذ استيقظوا مملوء بالخير ، فلم يقتل بعضهم بعضاً ولم يهجموا على الشرق ، وهم مخلصون للتعاليم السماوية ، بل كالملائكة في سلامة طويتهم .

سيداتي سادتي :

نسي الامريكيون امر الزنوج وهم يفكرون بالفراغ عندنا ويقلقون لتمديننا . ففي قلب نيويورك وجنوبي الولايات المتحدة يخلع الشباب من الزنوج قمصانهم في الطريق ويقفون على خطوط طويلة ينتظرون ان تجف وتكوى لعلهم يلبسونها ، فهم لا يملكون غيرها . وحين يركب الاميركي سيارة النقل في الصفوف الامامية يرمي بالزنجي الى الخلف ، فاذا امتلأت المقاعد بالامريكيين وغصت الامكنة نزل الزنوج عن اماكنهم للبيض . وفي مدينة « نيوأورلئانز » محطة يدخل اليها الامريكيون من باب والزنوج من آخر ، لئلا ترتطم يد الشريف الابيض بيد العبد الاسود .

اما العرب المتخلفون ، فهم حين بلغوا المغرب فاتحين تآخوا مع البربر ، وتجاورا في السكن والعيش واللسان منذ سنة ٦٢ للهجرة ، فقام عقبة بن نافع وهو صحابي جليل يعتمد على قبائل البربر في الفتوح . ونهض طارق بن زياد وهو من البربر لقيادة الفتح العربي في بلاد الاندلس ، يعضده العرب (١) والبربر جميعاً ، فاستوى في ذلك لونان وعرقان ، وكان منا قائد ومنهم قائد ، ومنا امير ومنهم امير ، وتآلف الشعبان وذابا في بوتقة هذه الحضارة العظيمة ، وغردا جميعاً في عربية فخيمة . ووقف

---

(١) في النبوغ المغربي للأستاذ عبدالله كنون ١ / ١٦ ، انه لم يكن في جيش طارق الا ثلاثمائة عربي ، على الاكثر .

طارق بن زياد لبلاغة زياد بن ابيه وبلاغة الحجاج، حتى اختلط الامر على النقاد ، وأصبح هذا البربري من أئمة البيان العربي .

هذه هي البلاد التي اريد ان ابسط معجزتها هذا المساء ، فأروي لكم قصة حياتها ، منذ دخلها العرب ، حتى وقع الاحتلال ، وهي قصة ثلاثة عشر قرناً نطويها معاً في سرعة وايجاز .

★ ★ ★

سيداتي سادتي .

تعلمون ان البربر كانوا سكان المغرب قبل الفتح ، وهم من اصل عريق على شبه كبير في كثرتهم بسكان مصر واهلها القدماء ، فيهم الدم السمر والبيض الشقر ، سكنوا جبال الريف في شمالي المغرب الاقصى ، فهم على اجناس مختلفة ، مرت بها الفتوح فحملت اليها وحملت عنها . ودخلها العرب فاتصلت بين العرقين وشائج نسب وتصاهر وتزاوج واختلط الطارىء والمقيم ، وقامت مملكة عريضة ظلت على القرون مستقلة خلال احقاب طويلة ، تتعاقب فيها السلالات الحاكمة ، تطوي شرق المغرب تحت جناحها طوراً ، وتضم الاندلس اطواراً ، وهي على خلاف قريناتها من الدول العربية ، لم يدخلها العثمانيون او غيرهم من الفاتحين ، فلم تشبها شوائب الاختلاط ، ونعمت بحريتها حتى مطلع القرن العشرين حيث تكالبت عليها الدول الغربية ، حتى وقعت في مخالبهم .

وقد كان المغرب الاقصى خاضعاً لبني امية حتى أواخر القرن الثاني للهجرة ، حين قدم المغرب احد زعماء العلويين المطالبين بالخلافة هرباً من العباسيين ، وهو مولانا ادريس بن عبد الله . فأنشأ دولته سنة ١٧٢ هـ . وقام من بعده خلفه بالملك ، فأنشأ مدينة فاس ، وامتد عهد الأدارسة قرنين كاملين ، كانا موضع عز وفخار للعرب ، فقد عمل هؤلاء للعروبة وللعلم ، وأنشئوا جامعة القرويين وهي ما تزال قائمة الى اليوم ، تزف الى الناطقين بالضاد علماء مجودين في اللغة والفقه والبيان والتاريخ ، يقفون

لعلماء الازهر ، وينافسونهم في الحمية والوطنيـــة والحفاظ على العربية ، وأكثر الفحول الذين يديرون دفة السياسة والعلم والزعامة تخرجـوا من هذه الجامعة الخالدة التي تضم بين جدرانها أنفس مخطوطاتنا الثمينة بخطوط مؤلفيها .

وفي منتصف القرن الخامس للهجرة قامت دولة المرابطين ، وهم الملثمون ، قدموا من الصحراء ، وزعيمهم يوسف بن تاشفين ، بطل عظيم وسلطان كريم ، جمع الى ملكه بالمغرب ملك الاندلس ، فكان اول امير للمسلمين هناك ، دوّخ بلاد المغرب كله ورد اعداء الاندلس ، ونزلها بنفسه ، وحارب الاسبان وغلبهم في موقعة الزلاقة فأعاد العز والشرف الى الاندلسيين ولولاه لذهبت ريحهم وماتت حضارتهم ، وبفضله امتدت حضارة الاندلس اربعة قرون اخرى . وأنشأ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش في سفوح جبال الاطلس ، وجعلها عاصمة الجنوب ، كما جعل الادارسة فاسا عاصمة الشمال . وأنشأ ابنه بعده في هذه المدينة كلية جامعية تشبـــه القرويين وتنافسها ، ما تزال الى اليوم تعج بالعلماء والادباء والفقهاء وتدعى باسمه جامع ابن يوسف .

وقد سجل التاريخ ليوسف وابنـه اعمالاً باهرة وتواضعاً عجيباً ، فقد ضربا السكة باسم خليفة بغداد ، وخطبا له على المنابر ، وهما في أشد البعد عن الحاجة اليهم ، ولكنهما أرادا ان يجمعا كلمة العرب والاسلام من المشرق الى المغرب .

وعهد المرابطين كان كذلك عهد نهضة ويقظة ، في الميادين جميعاً فآوى فلاسفة الاندلس وعلماؤها وادباؤها الى مراكش حتى قيل انها كانت تشبه بغداد ايام عزها ، وتسامع بها المشارقة ، فهمّ ابو حامد الغزالي المشهور في الارتحال اليها لعله يروي غليله بلقاء عاهلها .

وفي مطلع القرن السادس ظهر ابن تومرت وهو زعيم الموحدين ، وكان بحراً فياضاً بالمعرفة والدين ، رحل الى المشرق فأفاد من علمه وعقله ،

وعاد الى المغرب فكثر اتباعه وسارت وراءه القبائل ، وانتصرت دعوته . وخلفه رفيقه عبد المؤمن ، ففتح المغربين الاقصى والاوسط ، والقى اليه أهل فاس ومراكش وغيرهما بالمقاليد ، وعدا الى الاندلس فغزا فيها وانتصر كذلك واتسع ملكه ومكن لدولته في الارض ، وبنى المساجد ، وحصن الثغور ، ووحد بين الاقطار .

وخلفه ابنه يوسف ، فقرب العلماء والفلاسفة والادباء ، فاستوزر ابن الطفيل الفيلسوف المشهور ، واغدق على ابن رشد وحبب اليه شرح أرسطو والتوفيق بين الحكمة والشريعة ، واسس مدينة رباط الفتح سنة ٥٩٣ هـ . وسورها وجعلها رباطاً لجيوشه ، واتسعت المدينة حتى اصبحت عاصمة المغرب اليوم . وبنى بها جامع حسان ومنارة الاعظم ، كما بنى المنار باشبيلية على اضخم ما يعرف البناء الاسلامي في عالمه . وشيد المستشفيات والمارستانات للمرضى والمجانين ، وعلا اسمه واشتهر صيته ، وهابه الاسبان حين غزاهم وغلبهم .

وقيل ان السلطان صلاح الدين الايوبي ، استنصر به على الفرنجة حين هجموا على الشرق ، ورجاه ان يبعث اليه بأساطيله . وهكذا بيّن صلاح الدين ان المغرب اذا تعاون مع المشرق ، اوقف الغرب وهدم مطامحه ورده مدحوراً ، ولا شك في ان هذا الرجل كان نابغة العصور في حميته ووطنيته وتفهمه للعالم .

وانتصر الموحدون وحسنت سيرتهم ، لولا ان وزيراً من وزرائهم وهو ابن جامع ، كان سيء المشورة فأفسد الخطة ، وافنى الجيش ، وساق الامة المغربية الى انكسار هائل في موقعة تسمى العقاب كانت الفاصلة التي عجلت بسقوط الاندلس ، وادالت للاسبان من العرب سنة ٦٠٩ للهجرة .

واقبل القرن السابع الهجري على الموحدين فأضعف صفوفهم ، ورمى دولتهم بالكلال والانحلال ، بعد ان فعلوا الاعاجيب في صدر القرن الماضي .

وظل الامر كذلك حتى ظهرت دولة بني مرين سنة ٦٧٤ هـ . أواخر القرن . وقد قام رجال هـذه الدولة بتوحيد المغرب ونجدة الاندلس ونصرة العلماء والشعراء ، والاتصال بالمشارقة على هدايا وصلات كثيرة ، ولكن الوهن قد دب الى جسد هذا المغرب ، فنشأت أسرة اخرى هي الوطاسية سنة ٨٧٦ هـ . اواخر القرن التاسع للهجرة ، وقد شهدت نزول البرتغال بشواطىء البلاد لاول مرة في تاريخ هذا القطر العظيم ، فاستولوا على بعض الثغور كطنجة وسبته ، وسقطت غرناطة ، وكانت آخر معقل في الاندلس وقدم سلطانهم ابن الاحمر الى المغرب ، وظهرت بوادر الضعف والفوضى .

وفي القرن الحادي عشر للهجرة قامت الدولة السعدية ، وفيها ملوك حازمون فطردوا الاسبان من المهدية سنة ١٠٩٢ هـ . ثم استخلصوا طنجة من الانكليز وشددوا الحصار على سبته ، واستعادوا ثغوراً عدة ، واستولوا على الصحراء من تخوم السودان الى ما وراء النيل ، واتخذ مليكهم اسماعيل مكناس عاصمة لحكمه وشيد بها آثاراً عظيمة ومصانع هائلة ، وانتعش المغرب لعهده فكان به حصون وعواصم وابراج وسفن حربية ، حتى لقد بلغ عدد العساكر البحرية ستة آلاف ، منهم الفان للمدفعية .

وفي القرن الثالث عشر للهجرة كانت افواج الطلاب تسافر الى اوربة وتختلط باجزاء الغرب لتتخرج في فنون العلم والعمل . وتفتحت كوى هذه البلاد على العالم الاوربي ، ونشأت مصانع للسلاح في فاس ، وسارت المراكب البخارية في عرض البحار ، وكادت تسير القطر الحديدية والاسلاك الهاتفية لولا خوف السلطان مولاي الحسن من كيد الغربيين ودسائسهم .

والى جانب هذه النهضة العارمة ، ازداد تدخل الغربيين في الشواطىء والمراسي ، وغلوا في طلب الامتيازات ، وتوقيع المعاهدات ، حتى طمعوا في الاستيلاء على هذه البلاد عسكرياً ، فزحف الجيش الاسباني من سبته

الى تطوان واحتلها ، وتقدم يريد المزيد ، فرضي المغرب بالصلح وقبل الغرامة الحربية ، وبدأت المناورات .

سيداتي سادتي

لا حاجة لشرح المناورات فأنتم تعلمون كيف يكيد الاوربيون عن طريق المعاهدات للأمم المستقلة ، وتعرفون كيف احتـــلوا مصر وكيف بسطوا ايديهم على الشرق الاوسط والادنى والاقصى ، وتقدرون معي ان الغرامة الحربية يستتبعها قرض من انكلترة ، ومؤتمرات في مدريد والجزيرة الخضراء ، ثم طلبات بحماية مصالح الدول في المغرب .

ويحدث دائماً ان يُقتل رجل اوربي في الشرق ، ويجر مقتله الى استعمار القطر كله . فقد قتل طبيب فرنسي بمراكش سنة ١٣٢٥ هـ . فاحتلت فرنسة مدينة وجده ، واسبانيا الدار البيضاء ، بحجة بسيطة هي حماية الاجانب . فوقف المغرب على حافة الانهيار ، وتنازل السلطان عبدالعزيز وخلفه أخوه عبدالحفيظ . وقامت ثورة القبائل المغربية ، فاستعان السلطان بالجيش الفرنسي ، ودخل الجيش مدينة فاس ١٣٢٩ هـ . ولم يخرج منها ابداً ، حتى كان الاستقلال بالعام الماضي .

وتتابعت المظاهرات والثورات ، وقامت اعمال النهب والسلب ، وهنا امرت القيادة الفرنسية بضرب فاس بمدافعها ، فكانت المذبحة المشهورة وارغم السلطان على قبول الحماية في ٣٠ آذار ١٩١٢ للميلاد .

* * *

ومضى على هـــذه الحماية خمس واربعون سنة ، انتهت في آذار الماضي . ونحن في آذار لهذا العام نتحدث الى الفاجعة يوم فقد هذا الاستقلال . ففي الربيع ولدت الدسائس ، وفي الربيع بعد اعـوام ولد العز والمجد ، وفي ربيع قادم يتكامل الاستقلال ويحل بيننا وبين المغرب معاهدة الوحدة او الاتحاد ان شاء الله .

وهكذا خسر المغرب العربي استقلاله لأول مرة في تاريخه منذ دخول العرب اليه قبل ثلاثة عشر قرناً ، واصبح القول للدولة الحامية وتدفق المعمرون - وهم الاجانب الذين جاءوا ليبقوا - وسلبوا الاموال والاراضي ، فدرت عليهم اخلاف الرزق ، وغدوا ملوكاً في المال والسياسة والاجتماع ، بعد ان قدموا اليه مغامرين بكل شيء .

واستولى الاسبان على قسم منه والفرنسيون على قسم آخر ، وحاولت الدولتان ان تثبتا اقدامهما عن طريق الثقافة واللغة والدعاوة ، ولكنهما فشلتا فشلاً ذريعاً في هذا كله ، وبقي المغرب عربياً في قوميته ولغته ووطنيته . ذلك لان المجاهدين ما فتئوا يغذون المغاربة بالوعي والجهاد والبطولة ، فجمعوا البربر والعرب على صعيد قومي واحد . وسعى المستعمرون الى التفريق بينهما ، كما سعوا في كل قطر ، فأخفقوا لانها من تعاليم القرون الوسطى ، والعرب والشرقيون ارقى من ان يصل الى قلوبهم هذا الكيد وهذا الدس ، فطاش سهمهم ، وتوحدت العناصر ضدهم ، وقامت المظاهرات والثورات . وكانت تضحيات جسيمة قتل فيها عدد من المغاربة ، حتى لقد قتل في مدينة واحدة اربعة آلاف من الوطنيين ، واعتقل الزعماء ، واعدم بعضهم ، وشرد السكان ، وعذب المواطنون ، مما لم يقع في بلد من بلدان العالم على مثل هذا العدد وهذا اللون من الهمجية .

وبلغ بهم الامر ان وصلوا الى السلطان محمد بن يوسف ، فاعتقلوه سنة ١٩٥٣ ، وابعدوه ، وخلعوه ، ونصبوا مكانه ، وكان ما كان مما تعلمونه حق العلم ، وتلك خطتهم لا تتغير ، يحملون الملوك الى المنافي ، ثم يعيدونهم تأثيراً في الاعصاب وقتلاً للوطنية واخماداً للشعور .

وهنا هبّ الشعب يطالب بعودة السلطان ، لانه رأى فيه رجلاً مصلحاً ووطنياً مخلصاً ، فقد رفض الاتحاد بفرنسة ، وصرح دائماً بان المغرب قطر عربي يتطلع الى المشاركة في الجامعة العربية ، وطالب بالغاء الحماية ، وعرف الشعب فيه امام دين ، وصاحب رسالة ، ومحرر امة .

واستقر لهيب المعركة بين الحماية ويقظة الشعب ، وكان النصر لهذه الامة التي هب جيشها في ثياب الثوار يحررون الوطن ، ويقتلون ويفتكون ، ويبذلون الضحايا رخيصة ، فهم الذين نصروا فرنسة في المانية ونصروا الحلفاء في كاسينو ، ويعرفهم الغرب ابطالاً مغاوير ، لا يهابون الموت ولا يخافون الحرب ، فقد ابلوا بلاء حسناً في نصرة حليفتهم بالامس ، فلما رأوا خيانتها والاعيبها قاموا لها بأساليبها الحربية وطرقها الجهنمية ، فدمروا القرى واحرقوا المزارع وخطفوا الضباط ، وبثوا الذعر في الفرنسيين من عسكريين ومدنيين ، واصبحت حياة المعمرين جحيماً لا يطاق ، فهرب اكثرهم ، وطلب النجدة أعظمهم ونزلت فرنسا عند هذه الثورة اللاهبة ، ورضيت بمعاهدة الاستقلال ، وما يزال تحت الرماد ما يكفي لحرب مبيدة يشنها المراكشيون لاتبقي ولا تذر .

سيداتي سادتي

عرضنا لتاريخ المغرب العربي خلال ثلاثة عشر قرناً ، في ايجاز وجفاف ، لنشير الى ما صنعت هذه السلالات الحاكمة فيه من خير للاندلس والعرب ، فقد انشأت المدن التي ينعم بها المغاربة ، وبنت الجامعات التي يتعلم فيها المغاربة ، وهي وحدها شاهدة على عظمة تلك البلاد الى اليوم ، لم يضف اليها الغرب شيئاً ، وانما انشأ مدنه ليسكنها وبنى مدارسه ليعلم فيها ابناءه ، وبقي السكان يعيشون على ما خلف لهم الاجداد .

ولعلكم معي في ان هذا التاريخ يختلف عما تصوره بطاقات المصورين فهو ناصع شريف . ولعلكم تحبون ان نعرض للحاضر في تفصيل يستبد بكم ، لذلك سأحملكم معي الى هذا المغرب الحبيب ، فننزل معاً ارض الدار البيضاء ونحط من الطائرة في المطار الواسع عند الصباح ، وفي الصباح يحمد القوم السرى .

وفي هذا المطار موظفون غربيون تحس معهم انك ما تزال في اوربة من حديث ولباس وعملة فرنسية ، فاذا خرجت الى الدار البيضاء ، ورأيت

البنايات الشاهقة والفنادق العالية والمقاهي الغربية حسبت انك في الغرب بل في ارفع المساحات منه ، فأين المغاربة ؟ .

ذلك سؤال لا يخطر للامريكي والاوربي ، لانه يهبط الساعات ثم ينهض بعدها الى بلاد الله ، فيحسب ان المغرب هو هذا المطار وهذا الحي ، ولكن العربي حين يطوف هذه البلاد يعلم ان المستعمر شاء ان يغير المعالم امام كل قادم ، فبنى خلال اربعين عاماً مدناً اوربية زرعها الى جانب كل مدينة عربية قديمة ، وضرب بين القديم والجديد بمسافات غير قليـــلة ، واعد للمدينة الغربية هذه مقاهيها الباريسية وفنادقها الفرنسية ، وشوارعها ، وابنيتها واسماءها ، ومكاتبها ، ونساءها . ففي رباط الفتح ، والدار البيضاء ومراكش ومكناس ، وفاس ، وطنجة ، وغيرها مدن غربية اوربية الى جانب المدن العربية القديمة .

وهذه المدن الجديدة لا تقل في بنائها وخططها وتنظيمها عن مدن فرنسا ان لم تفقها في كثير من الوجوه . وكثير من الفرنسيين فيها يعتزون بانهم لم يزوروا فرنسا ، فهم في غنى عن ذلك ، تجمعت لديهـــم باريس ومرسيليا وليون وبوردو ، لهم الجبال الحلوة المزروعة بالمصايف والمشاتي ولهم الحدائق النضرة الواسعة ، والغابات الاصطناعية الشاسعة ، والقاطرات على احدث طراز ، والسيارات على اجمل نموذج ، واللباس يذكرك بكل شيء الا بالشرق ، فالمرأة على زينة باريس وشراب فرنسا ، ومراقصهـا ، وملاهيها ، تسمع الموسيقى تشق الشوارع وتنبثق من البيوت والحـانات ، وتتلاقى في سمع السكان وتدوي في آذانهم فتلهيهم عن كل نداء ، وتصرفهم عن كل وجه ، فكأنهم ما تركوا الغرب لأنهم يسكنون قطعة منه . ذلك لان القوم جاءوا ليبقوا ، وعمروا ليعمروا ، وما قرءوا تاريخنا وما فهموا الانباء عنا ، لأن صحفهم تسد عليهم كل سبيل ، وتتحدث عن كل أمر ، الا عن الحرية والاستقلال .

والعجيب انك تجتمع بهم فتسمع حججاً واهية كحجج الغـرب في

قناة السويس ، فهم انشأوا الطرق الواسعة كطرق امريكا ، والمقاهي العريضة كايطاليا ، والمصانع العظيمة كمصانع المانيا ، والمرافىء والمزارع والمطارات وغيرها ، وذلك ليعيشوا في امن ورخاء ، هم وابناؤهم ، فاذا سألتهم من أين جاءهم المال والخير عرفت ان الدولة الحامية وزعت عليهم الاراضي الخصبة لانهم يحسنون زراعتها ، واعطتهم حقوق التجارة والتبادل لانهم يفهمون ويعملون ، ولانهم متمدنون . وهم لا يخفون انهم جاءوا في كثرتهم على ثياب رثة ، وهربوا من كساد بلادهم وفساد نظامها ، وضيق ايديهم فيها ، فساقهم الاستعمار الى غلال لا تنفد ، وأراض لاتبور ، وجعلهم السادة يستخدمون المغاربة يومهم كله لقاء دراهم معدودات ، كما يستخدمون العبيد .

وبعضهم يتحدث في صراحة فيقول انهم جاءوا بلداً متقطع الاوصال ضعيف الثقافة ، فعمروا وانشأوا ، كما عمر سكان امريكا الشمالية حين قدموا اليها من كل حدب وصوب ، فالعرب كالحمر في تلك البلاد ، بل هم كالزنوج في امريكا ، لهم ان يخدموا ليعيشوا . ونسوا ان هذه البلاد ، لها اهلها وملاكها وتاريخها وامجادها ، وان هذا كله يفوق ما للمستعمر من ماض وتاريخ وامجاد .

فاذا اردتم ان تعرفوا حال السكان من العرب المغاربة ، فلكم ان تسيروا غير قليل نحو المدن العربية ، فاذا انتم حيال اسوار عظيمة نقشها المغربي الصناع في اساليب لاتشبهها اسوار حلب كباب انطاكية وباب الجنان وباب قنسرين ، وانما هي اسوار عمل فيها الفن والزخرفة اجمل ما يعمل ، واحاطها بكتابات جميلة عربية مدهشة ، تغرق العين في قراءتها ويثور الدمع لرؤيتها وتحس النفس ان عزيزاً بنى البنيان وحمى المكان وقام بالسلطان ، فيسير في حاراتها وشوارعها كما يسير المشارقة في احيائهم القديمة ، شوارع ضيقة مرصوفة بالحجر ، في وسطها مجارٍ صغيرة لتصريف الماء على وجه الارض ، قد اصطفت حوانيت ضيقة من كل جانب ، جلس لها

الباعة وقدم اليها المشترون كما تجدون اليوم في سوق الحبال تجتازونه الى مسجد بني أمية .

سيداتي سادتي

كنتُ اطوف هذه المدن العربية ، فتطير بي الذكرى الى شوارعنا واحيائنا ، وبيوتنا الضيقة المتقاربة ، يطل بعضها على بعض ، وينظر بعضها الى بعض ، فيتيه الخيال ، وانسى اني اطوف مراكش او فاس او الدار البيضاء او رباط الفتح ، واحس ان قلبي يكاد يصيح : هذه ديارك ، وهذه بيوتك ، وهؤلاء ابناء عمومتك واقرباؤك . هندسة جميلة واحدة ، وأمة عربية واحدة .

اسواق العطارين والحدادين والنحاسين والحبالين وبائعي المنسوجات والجلود ، تتجاور وتطول في خطوط لا تنتهي حتى تصل الى احد الابواب في فاس او مراكش ، وراءك اناس لا ينتهون ، وامامك اناس لا ينتهون ، فكأنك مسيَّر في هذا الموج المتلاطم من بشر عزيز حبيب ، ينحني عليك حين يعرف انك عربي ، فيحملك على الضيافة من اقرب مشرب ، وعلى المأكل من اقرب بيت ، وعلى المبيت في اول منزل .

والبيت المراكشي جمال من نفحة العروبة القديمة ، صحن واسع ونافورة تغني نهارها فلا تكل على عشرة قرون ، وجدران قد ازينت بالقيشاني على الوانه في مربعات واهرامات ومثلثات ، تضل العين فيه فتخرج عن الكلام الى الصمت الشعري ، كأننا في جنان العريف او قصور الاندلسيين ، تحن اشجاره فتتهايل ، وتغني اطياره فتتطاول ، وهذه الموائد تصف على الارض ، ويجلس حولها الضيوف في ثيابهم الاوربية ، ننهل من الأكل ونعلّ - ان صح التعبير - نبدأ بالحلوى وفيها اللحم ، ونثني بالطير ، ونثلث بالدجاج ، ثم نشرح في الأكل الجدّي ، وهو لحم النعاج والخراف ، يصنع على الوان واشكال ومعه الطحين الدقيق مما تعرفونه

هنا بالمغربية ، نأكل بأصابعنا فما نشرع بها الا ليطير الصحن ويهبط غيره ، وما نعلم كم صحناً يقع وكم صحناً يطير .

لم اتحدث عن هذا لأننا في رمضان ، ولأن الحديث عدا المآكل له لذة وشهيّة .فقد طفت المغرب في ايلول ، وكأن القوم ابداً في ولائم او في العيد ، تحيط بهم الاواني الجميلة لغسل الأيدي ، او لصنع الشاي ، وتحف بهم جوقة الموشحات الاندلسية ، فكأننا في عهد الرشيد او عهد المعتمد ابن عباد . وطلقات الرصاص ما أجملها ، حين تدعوك جبال الأطلس وقبائلها من البربر في الخيم ؛ فيصطف الفرسان ، ويلبسون للضيافة اجمل ما يملكون ، وانظف ما رأت عيناي ، فكأنهم ملائكة يحفون بالمدعوين يحملونهم على اجنحة الضيافة ليكون المدعو على راحة نفس ، وطرب اذن ، وامتلاء معدة . ولباسهم المغربي يغطي رأسهم وجسدهم ، ويستوي في زيه المرأة والرجل .

ولا اكتم عنكم اني كنت في ذهول حين احضر هذه الولائم ، فقد كانت في استقبال زعيم المغرب الاستاذ علال الفاسي شرده المستعمرون اعواماً ، فلما عاد طرتُ اليه لاشهد معه هذه الروح العربية المغربية ، تتجلى في الخيم والبيوت والساحات والقرى والمدن ، تنادي كلها بالوحدة والعزة ، تحت راية الاستقلال والسلطان . نعمت بها ، وكدت لا أتم النعيم ، ولكن الله كان من وراء ذلك . فقد خرج على الرجل في سبيلنا الى جبال الاطلس رجال اشقياء من رعايا الحماية ارادوا قتله ، فأطلقوا الرصاص على قافلتنا ، وعطبوا سيارتين ، واستقر رصاصهم في كل منها ، واراد الله غير ما ارادوه ، فنجاه الله وكنت الى يساره في السيارة نفسها ، اشكر لله نعماءه ان قدر لي عودة اليكم احدثكم فيها عن السياحة وتكاليفها .

ذلك لان المستعمرين ما يزالون يملكون جيشاً في المغرب يقدر بسبعين ألفاً ، ولهم في هذا الوطن العربي مدن تعج بهم ، ومزارع ليست لها

حدود، ولهم فيه آمال تنتعش يوماً وتغيب اياماً، والمغاربة ما يزالون يناضلون الى الساعة، على اساليب مختلفة، سراً وجهاراً، فهم يعرفون ان وطنهم لما يستقل بعد، وان الجيوش ما تزال مرابطة في حدوده، وان الحماية تلوح من بعيد لزبانيتها واصدقائها من المرضى والخونة، ولكن انّى للعهود المظلمة ان تعود بعد ان ذاق الشعب لذة الحرية ونعيم الاستقلال، وتملك الشباب المخلصون ازمة الحكم، وهم قد نذروا نفوسهم في سبيل العزة فلا يرضون عنها بديلاً.

لقيتُ نائب العامل في فاس، وهو شاب في حدود الاربعين، ودخلت قصره العامر المنيف، وكان يحتله حاكم المغرب الفرنسي قبله، وكان حوله الموظفون والموظفات يخضعون لاشارته وهم فرنسيون، ويخشون نظرة من نظراته، لانهم يعرفون قصته، وقصته شبيهة بكل قصة لهذا الشاب المغربي، فاستمعوا الى النضال في حياة هذا الشاب.

درس في المدارس الفرنسية شبابه، وقبل ان يتخرج كلفه قومه بتوزيع منشور ضد الحماية، والاشتراك في العمل مع امته، فلما قبض عليه سجنه الحاكم اربع سنوات فحسب، في غرفة مظلمة ظل واقفاً خلالها يومه وليله مثقلاً بالحديد، مكبلاً بالسلاسل، تجري عليه اساليب التعذيب كما تجري على المجرمين، فنشأ في السجن، وشرب من الظلام، وعاش على انغام الحديد يفتح له الباب مرة في الاسبوع لينظر من خلاله قامات الضباط، ويرى سياطهم تنقض عليه، لعله يعترف بالاسماء التي دفعته. وكم عرف بانباء القتلى من اهله واخوانه، فما هاب ولا لان، حتى كان النور والاستقلال، فخرج الى الحكم يعب من نوره، وينظر الى قامته المديدة، يتلمس مكان القيود من جسده، وهو على منصة الحاكم العام في قصر يعد مئات الامتار.

وهؤلاء الموظفون يعرفون قصته، ويعرفون ما كان من امتهم نحوه، ويعلمون ان حياتهم بين يديه، وان ساعاتهم غدت معدودة.

والفرنسيون والفرنسيات ما يزالون في وظائفهم ، تغـــدق عليهم الرواتب ، ويتخفف منهم الحكام المغاربة كلما وجدوا من يحل مكانهم من حملة الشهادات من ابناء قومهم ، فقـد كانت الحماية لا تقبـل في المدارس الرسمية من الطلاب المراكشيين إلاّ ثلاثة في المئة فحسب ، ولا تقبل الحماية من الموظفين المراكشيين الا عشرين في المئـة ، وسائرهم من الفرنسيين . وعدد الوظائف في المغرب الاقصـى كانت تقـارب عشرين الفاً ، منها خمسة آلاف مراكشي فقط .

وكنتُ مرة على موعد مـع وزير المعارف الاستاذ محمـد الفاسي ، فأقبلت الى بناء الوزارة حـين منصرف الموظفين ، فاذا هم عشرات كثيرة يهبطون السلالم ويتحدثون في فرنسية طلقة ، والسيدات والاوانس منهم قد تخففن من ثيابهن كما تفعل اخواتهن في حر باريس سواء بسواء . فظننت اني اخطأت البناء فلما صدق الظن ، وحدثني الوزير عن امرهم وامرهن ، علمت ان هذه الوزارة كان فيها مراكشي واحد قبل الاستقلال هو الآذن على الباب .

ومنذ ذلك الحين ، دخل كثير من شباب المغاربة في هـذه المراتب والوظائف ، التي جردت من اصحابها السابقين ، وسيدخلون حـتى تنجلي الغمامة ، حين تنتج المدارس الوطنية مراكشيين أقحاحاً يقرءون العربيـة ويكتبونها .

ذلك لأن العربية غريبة على كثيرين من العرب . فدوائر البريـد تجهل العربية حتى الآن .

وقد ارسلت برقية الى صديق في البلاد ، فكتبتها بأحرف لاتينية وجمل عربية ، لأضمن سلامة وصولها . وذلك لان الحمـاية اتخـذت سبيل الفرنجة كخطة سريعة ، ولـكنها اليـوم بفضل المذياع في مصر والصحف العربية راحت تسري في القلوب والدماء ، يخطب بها الخطباء ، ويكتب بها المراسلون والصحفيون ، فكأنها نار موقدة تسري في الهشيم والعشب الاخضر .

فترسل في النفوس حرارة الوعي وشعاع الايمان بالامة والوطن .

وكم كان يدهشني ان يتدافع المغاربة الى سيارة الزعماء ، يتمسحون بهم ويقبلون على ايديهم تقبيلاً ولثماً شاكري حالهم الجديدة ، فقد انتقلوا من الظلمات الى النور ، ومحوا هذه الصور الزرية التي كانت تفرضها الحماية في تجنيد المغربي واستخدامه وافقاره ، وزرع الامراض في بلده وجنسه ونفسه . وقد فرض على المغربي ان يسكن المساكن الفقيرة ـ كما رأيتم ـ وان لا يستمتع بالخيرات الكثيرة ، لان الحماية اختارت اجمل المناطق واخصب البقاع لاهلهم وذويهم ودرت عليهم الارزاق . وكأن المغربي يشهد اليوم معجزة لاتصدقها عيناه ، حتى لكأن مسرحية تدور حوله ، حين رأى المستعمر ينسحب الى الحدود ، وقد سكن في قلوب المعمرين من الفرنسيين قلق وذعر ، فانقسموا على انفسهم ، واصبح منهم من يسمي نفسه بجماعة الوجود الفرنسي ، يرى ان الحماية يجب ان تبقى معززة بالسلاح ، ومنهم من يسمي نفسه بجماعة الضمير الفرنسي ، وهم يرون ان بقاء الغربيين مرهون بالضمير الانساني والعون الانساني لبذل الخبرة والنصح والارشاد . وهؤلاء وهؤلاء ، يتمسكون بالبقاء في اساليب يغلب عليها الالتواء .

والامة المغربية تنظر الى ما يدور حولها ، معتمدة على عناصر ثلاثة : الاول جيش التحرير وهو من ضباط المغرب وجنوده حاربوا مع فرنسا في كل مكان فرفعوا رايتها ، كما رفع العرب من قبل راية الفرس واليونان ، ولكنهم آمنوا بكذب المبادىء الغربية ، فعادوا الى صفوف الامة يرقبون في الخفاء تصريف السياسة وكيد المستعمر ، ينفذون امر الله في كل خائن او متقلب . والعنصر الثاني هم الاحزاب السياسية وعلى رأسهم حزب الاستقلال ناضل ويناضل في الوصول الى الهدف الاسمى وبلوغ الحرية التامة . والعنصر الثالث هو السلطان رمز الأماني القومية وخلاصة القضية المغربية وشعار الاستقلال ، يسير احياناً بسيرة فيصل الاول ، يلين ويشتد حتى تبلغ السفينة شاطىء الامان والحرية . وجيش التحرير يقف بالمرصاد لكل

ما يسمع ويرى ، فكأنه دعامة الامة وعنده القول الفصل ، وما هو بالهزل .

سيداتي سادتي

هذا هو الحال السياسي في المغرب كما استطعت ان استشفه من مجالس الزعماء والوزراء والقواد والساسة . واما الحال العلمية فهي في تقدم مطرد بقيادة العلماء والكتاب ، وهم في الطليعة ثورة وجهاداً ، يحملون في قلوبهم ايمانهم بالعربية ، وفي ايديهم الاسلحة النارية ، لا فرق بين صغير وكبير ، حتى لقد سار في طليعة موكبنا ، شيخ الاسلام محمد بن العربي العلوبي ، من اكبر علماء القرويين ، وكان وزير العدل ، ومشير السلطان ، ولكنه بلغ السبعين ، فلم يشأ ان يلقي السلاح حتى يرى الوطن خالصاً من بقايا الاجنبي . وهو ونظراؤه من العلماء ، يعملون باسم الدين وباسم الوطن في نصرة الجهاد ورفعة البلاد .

وليس هذا يعني ان الادباء قد وقفوا دون الشعر والادب ، فهم يملئون الدنيا محاضرات وقصائد ومقالات ، ولهم ان يقولوا كما قال اجدادهم من اساطين التاريخ والادب كابن بطوطة وابن الخطيب وابي موسى الجزولي وابن خلدون ، فديارهم مرتع السحر وموطن الجمال ، قد اخذت من كل روعة بنصيب ، فيها الانهار الجارية والبساتين الغناء والرياض الفيحاء ، وفيها الزهر والنور والعطر .

فمدينة فاس في قلب الوادي الجميل ، تحف بها الاشجار وتلتف حولها الاغصان ، فترسم حولها سياجاً من خضرة بارعة ، وبيوتها البيضاء كالحصى التي في بساط واسع ، فتتناثر فيه ، كما يتناثر الوشي على الثوب . فاذا اشرف الناظر من اعلى الجبل تراءت المدينة كأنها عروس في حلي بيضاء تنام على العشب الاخضر المنبسط . وقد عشتُ فيها اياماً أوغل في بساتينها واسير تحت ظلال وعرائش من اشجارها ، فيخيل اليَّ اني في دمشق اسمع

صوت الماء يرتل امامي موسيقا قديمة سمعها الاجداد منـــذ عشرة قرون قبلي . وقد اوحت هذه المدينة الى اهلها شعوراً عظيماً في الاعتزاز ، فقال شاعرهم في مدح واديها تياهاً به على جمال المشرق :

عطرتْ جانبيهِ كفُّ الغواني ... بشذا عرفِ زهرها الممنوحِ
قلْ لمهيارَ إنْ شممتَ شذاها ... قول مستخبرٍ أخي تجريحِ
أينَ هذا الشذا الزكيُّ منَ القيـ ... ـصومِ والرندِ والغضا والشسيحِ
وعيون بها تقرُّ عيـونٌ ... وكلاها يأسو كلوم الجريح
كلما مرَّ فوقهنَّ طليحٌ ... عادَ من حسنهنَّ غيرَ طليحِ

وليست مدينة مكناس بأقل من أختها جمالاً في الطبيعة وبهـاء في الخضرة وسخاء في الماء ، فهي كذلك على دلال وجلال يقول فيها الشاعر :

إنْ تفتخرْ فاسٌ بما في طيّها ... وبأنّهـا في زيّهـا حسناءُ
يكفيك منْ مكناسةٍ أرجاؤها ... والأطيبانِ هواؤها والمـاءُ

ورباط الفتح ، وسلا ، والدار البيضـاء ، قد ركزت جوانحها على البحر ، وراحت تتيه بين زرقتين : زرقة الماء والسماء ، وتختال في بردتين من جمال الارض والبناء . فهي تبلّ اقدامها في الاطلنطي ، ولكنها تتصل بالصحراء والبادية والنخيل في جانبها الآخر ، فتجمـع بين سكان البحـار وقطان الصحارى . والاسوار والقلاع والحصون تبدو كأنهـا زرعت في قلب هذه المدن شواهد على ان المغربي لم يأمن الماء ولا الصحراء ، فبنى حصنه على البحر ليدفع عنه قراصنة الماء من الغربيين واعـداء دولته من القبائل والبدو .

فاذا كانت كل بلدة قد اختارت مكانها بين اليابسة والماء ، او في قلب الخضرة الغناء ، فان مدينة واحدة قـد اختارت مكانها بين ماءين ، وصعدت قمة بين عالمين ، تلك هي طنجة لؤلؤة البحر المتوسط وتاج مدنه جميعاً لا أكاد استثني مدينة منها . فطنجة قد علت على رابية عظيمة ، واقتعدت مكانها على تلال متناظرة ، تصعد في شوارعها كما تصعد في سان فرنسيسكو ،

غير انها محاطة بالتلال تستطيع ان تشرف منها على المدينة ، فترى كيف تركض الشمس في مساربها ، فترسم الظلال والالوان ، وكيف يلعب البحر حولها من كل جانب فيعابثها ويناوشها ، كما يتسلى الطفل بالاشياء المعلقة او الدمى المهتزة ، ويرشقها بالماء فلا يصيب الا قدميها وتبقى القامة الفارعة لطنجة قد استعلت على الماء وغير الماء ، وشمخت بأنفها في السماء ، لترسم في الافق بأبنيتها الرفيعة صوراً سحرية حين تقبل الشمس او تغيب .

واجمل ما في طنجة ضواحيها ، توغل فيها بين اشجار الارز القديمة الخالدة ، وقد سخرت بآلاف السنين ، وتكاثفت حتى حجبت النور ، وصفت الريح ، ومنعت الغبار . والوديان تتقلب والتلال تتتابع حتى ليمتنع على المشاهد ان يشبه بها لبنان لأنه يظلم طنجة وجبالها المحيطة بها ، على جمال لبنان وسحره . فهنا النسخة الاصلية التي رسمها الله لجمال الوديان وسحر التلال في مغرب المتوسط ، ورسم بعدها صورة مصغرة لها هي لبنان وجباله.

وكم تشرد العين في هذه المشاهد الفاتنة ، وتتلهى النفس في شرودها خلال هذه الالوان ، فتسعى ان تجد لها شبحاً في دنيا الغرب كسويسرا مثلاً . ولكن الواقع ان العين والنفس والقلب ترفض كل تشبيه وترد كل موازنة ، وتبقى طنجة وحدها . ولعل لوس انجلوس تزحف لتتشبه بطنجة في تلالها الخضر ووديانها الممرعة ، ولكن اين منها البحران : المتوسط والاطلنطي في رقعة واحدة .

انهما يلتقيان هنا ، كما تلتقي الجبال والانهار والبحيرات في صفاء عجيب وهدوء غريب . ولا تستطيع الاخيلة ان تصطاد صورة او ترسم شبحاً لهما . بحران يلتقيان فيخيل اليك ان خطاً طويلاً الى الافق يفصل بينهما ، بحر صغير سماه العرب بحر الروم ، يلتقي بالمحيط الاطلنطي ، يضيع الطرف في مدى كل منهما ، فلا يعرف ايهما الصغير وايهما الكبير ، لان العين لا تستقر على نهاية لهما ، فكأنهما بحر واحد او بحيرة كبيرة ، وانما سماهما الجغرافيون كذلك ، حين وقفوا مثلنا عند رأس سبارتل في نهاية

طنجة ، فنظروا الى خط يفصل بينهما وتوهموا ان المياه القليلة تختلط بالمياه الكثيرة ، او ان احدهما يصب في الآخر ، فأطلقوا عليهما الحدود وقيدوهما بأسماء كالسدود ، ولكن الله اطلقهما وارسلهما ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان .

سيداتي سادتي

عند هذا الصخر المتعالي وقفتُ امتع النفس بسحر الطبيعة وفتنة الكون وعظمة الله . ثم صعدت الى المنارة العالية برفقة صديقي حاكم طنجة العالم عبدالله كنون ، فرأيت ما لا ترى عين، وشهدت ما لا يخطر على بال ، واشرفت على هذه الخلجان والشواطىء البعيدة . وتهتُ في بيداء الفكر كأنّ بي دواراً أو كأني احلم . ولم ينبهني من غفوتي ، الا نداء صديقي يدعوني الى النزول . ولولا هذا النداء للبثتُ يومي وليلي امتع القلب والعين، واسافر مع التاريخ لارى هذه القوافل العربية وقد شقت طريقها من الحجاز الى الشام ، ومن الشام الى مصر ، ومن مصر الى افريقية ، ومنها الى المغرب الاقصى ، الذى بارك الله حوله من غير شك ، لانه كان مفتاح عز ، وباب سعادة ، وطريق الفردوس .

عبرت القوافل هذا البحر من هذا الشاطىء السحري الى الشاطىء الاسباني ، فاتحة غازية مبشرة في سبيل المثُل العليا والايمان القويم ، ولكن كيف عبرت ، وكيف خاضت البحرين ، واجتازت من شاطىء امين الى شاطىء غير امين ، يتربص القوم فيه بالعرب ، لتدور الدائرة ويقوم القتال . كيف استطاع هؤلاء العرب ومنهم الحجازيون ، ان يعبروا الى الاندلس مع البربر ، وكانوا من قبل يصفون النيل على لسان عمرو بن العاص كالبحر ، الداخل اليه مفقود ، والخارج منه مولود ، وراكبه عود على عود ؟ . كيف شقوا طريقهم بين البحرين ، وكيف كانت قلوبهم ونفوسهم وعقولهم تتهيأ لهذا الزحف . ذلك ما أدهشني واذهلني . فقد قطعوا آلاف الاميال ليصلوا الى بر الاندلس وليمكثوا فيه قروناً يتمتعون فيها بالنعيم والحضارة والثقافة الرفيعة .

فلما طرتُ من طنجة الى غرناطة ، نظرت الى البحرين من عل ، والامواج تبدو كالزرد في درع المقاتل ناعمة دقيقة ، لا تحس لها همساً ، ولا تكاد صفحة الماء تهتز ، وخيال الطائرة يرتسم على صفحة الماء كطائرات الاطفال ، بل ان القوارب والسفن التي كانت تمخر العباب كانت تبدو كقوارب الصغار في بركة مصطنعة . ذلك ما كانت توحي به الطائرة .

ولكن العرب طرقوهما كبحرين عظيمين ، فجازتهما قواربهم واساطيلهم مراراً وغلبوا احياناً ، وغرقت مراكبهم احياناً ، فغاص منهم كثير في قعر البحار ، كما مات كثير في اعماق الوديان ، وقتل كثير على ظهور التلال والجبال ، وشربت الصحراء من دمائهم فما ارتوت ، ليخلدوا لنا هذا المجد الذي به ننعم وليوحدوا بين المشرق والمغرب ، في لغة واحدة انطلقت من قلب البلاد العربية من أم القرى ، فشرقت وغربت وما زالت هي هي ، ناعمة جميلة ، قوية فصيحة ، نسمعها في كل مكان ، ونتغنى بها في كل زمان ، خالدة على الدهور كخلود الدنيا وبقاء الكون .

تاه بي الخيال وشرد الفكر وظننت انني في بلادي وفي ارضي ، فحولي ارز لبنان ، وخلفي مشاهد دمشق وبيروت والاسكندرية ، فتساءلت هل يحن الشجر الى الشجر ، ويتشبه الحجر بالحجر ، ولا يحن البشر الى البشر ؟ هل اجد في الربوع شبهاً لربوعنا ولا اجد في الشعب وحدة مع شعبنا ؟ ان هؤلاء الملايين من العرب الذين يتكلمون لغة واحدة ، وتجمعهم ثقافة واحدة ، ويثيرهم تاريخ واحد ، في انتصار وانكسار ، ومفاخر ومآثر ، يتفرقون اليوم في الارض على دويلات صغيرة ، وامم مبعثرة ، تعدو عليهم الدول ، وتأتمر بهم الامم ، فلا يجتمع شملهم ولا تتوحد فلولهم وانما تذهب بهم الرياح كل مذهب .

يفتشون في المعاجم عن اسماء لوحدتهم ، ويبحثون في الكتب عن انظمة لعيشهم وقوانين لحياتهم ، يستهويهم رجال اليمين حيناً ، ورجال اليسار احياناً ، ويصبحون على فكرة ويمسون على فكرة ، فكأنهم حيارى في

دنياهم ، او كقوارب صغيرة في البحار تتقاذفها الامواج وتعبث بها الرياح ، فلا تدري اين تتوجه ولا تعرف اين المصير .

ساقني الخيال الى الواقع المؤلم ، الى هؤلاء الذين انكروا جذور الامة وكفروا بتربتها ، وجهلوا حضارتها فاقتلعوا من صدورهم الايمان بهذا الوطن العربي الكبير ، واصبحوا بين الارض والسماء ، ينظرون تقلب الانواء كيف تشاء .

حدثتكم عن المغرب العربي لانه جذع كبير من جذوع هذه الشجرة العملاقة ، وبناء متين من ابنية تاريخنا ، ودرع حصين لحروبنا المقبلة يجب ان نستمسك به ، ونسير معه في صف الدول العربية الى بناء مستقبل جديد بسّام ، في وحدة عربية شاملة ، ترهب عدو الله وعدو العربية . ولعلي قد استطعت في هذه الدقائق العجلى ان انقل اليكم شعوري وانا اطوف هذه الديار في المغرب اراضينا ، وملعب بطولاتنا ، ومسرح امجادنا ، لاصور لكم ثقتي وايماني بهذه الامة الخالدة ، فقد زادني المغرب ايماناً بقوتنا وعددنا ، وشاقني الى بعث عدتنا وحضارتنا ، فاليه اتوجه من هذا المكان بالتحية والاكبار ، راجياً له ولسلطانه الرفعة والسمو ، والعز والاستقلال الكامل .

والسلام عليكم .

الدكتور سامي الدهان

المحاضرة السابعة

الجزائر وفرنسة في الأمم المتحدة

الدكتور محمد اسعد طلس

= القيت بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٧ =

كلنا يعرف فرنسة ، فلقد سلخت بين ظهرانينا ربع قرن ذقنا فيه منها ويلات شداداً ، وعرفنا وجهها الحقيقي وخبيئة نفسها الخبيثة ، وتبين لنا ان ما كنا قرأناه عنها من حبها للحرية والمساواة والاخاء انما هو كذب صراح ، وسراب خلب . ولقد ضحينا في سبيل الخلاص من ربقة استعمارها بكل مرتخص ونفيس ، وتروّت تربة ارض هـذا الوطن بدم الشهـداء الابرار من ابنائنا منذ ان وطئت قدم اول جندي ارضنا ، الى ان خرجت من هذه الديار مدحورة ملعونة .

وكلنا يعرف ان فرنسة هذه ، قد احتلت بلاد الجزائر العربية المسلمة في سنة ١٨٣٠ بعد ان طردت اميرها وقضت على دولة منظمة ذات سيادة وزعمت انها انما احتلت بلداً غير مستقل بل كان تابعاً للسلطنة العثمانية . وقد اعتاد المؤرخون الفرنسيون اثبات حقهم في جعل الجزائر جزءاً من فرنسة بقولهم ان الجزائر ارض افريقية بربرية وليست بعربية وانها لم تكن دولة مستقلة ذات سيادة حين الاحتلال بل كانت مستعمرة عثمانية ، وان فرنسة قد احتلتها لتضع حداً لنشاط القراصنة الجزائريين الذين كانوا يغيرون على اراضيها ومراكبها ، وان احتلال الجزائر هو صفحة من صفحات المجـد الفرنسي لانها مدنت قوماً متوحشين ونشرت الحضارة الرفيعـة بين قوم اجلاف .

وان الجزائر رحبت بالاحتلال الفرنسي واستكانت له .

وان الفرنسيين قد احيوا ارضاً ميتة لم تكن من قبلهم مأهولة .

وان الاراضي الطيبة المنتجة اليوم هي الاراضي التي احيا مواتها المستعمرون الفرنسيون .

وان ازدياد عدد سكانها من مليونين في سنة ١٨٣٠ الى تسعة ملايين في سنة ١٩٥٤ كان بفضل الاحتلال وبما اسداه الى اهلها من الخدمات الصحية والحضارية .

هذه هي الحجج التي اوردها بينو في خطابه الذي القاه في الدورة الاخيرة للأمم المتحدة في شهر كانون الثاني الماضي حين طرحت قضية الجزائر على بساط الجمعية العامة للامم المتحدة .

وان ما قاله بينو مؤخراً وما كان قاله قديماً مؤرخو فرنسة وغيرهم من كذبة المؤرخين لهو الباطل . فان الشعب الجزائري هو جزء من الامة العربية ، وقد كانت الجزائر دولة مستقلة ذات سيادة حين الاحتلال الفرنسي ، وانما كانت من الدول الخاضعة للخليفة العثماني كأي بلد من بلدان الخلافة الاسلامية العثمانية . وقد اعلنت دولة الجزائر الحرب مرات على الدولة الفرنسية ، واضطرت حكومتا هنري الرابع وفرانسوا الاول الى عقد معاهدة معها كما كانت لها علاقات دبلوماسية مع فرنسة منذ سنة ١٥٦١ ومع انكلترا وهولندا والولايات المتحدة منذ سنة ١٧٩٥ وبهذا تبطل المزاعم الفرنسية القائلة بان الفرنسيين احتلوا بلداً لا سيادة له .

واما مزاعمهم بان احتلال الجزائر انما كان صفحة مشرقة لنشر الحضارة بين قوم متوحشين ، وان الشعب الجزائري قد رحب بهذا الاحتلال ، فيكفي للرد على ذلك ان نذكر ان احتلالهم لهذه الارض الطيبة من دنيا العرب ، قد أدى الى نشوب عدة ثورات اعظمها ثورة الامير عبدالقادر الهاشمي الذي صمد امام جيوشهم منذ سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٧ والذي اضطرت فرنسة الى ان تعقد معه معاهدتين احداهما سنة ١٨٣٤ والثانية سنة ١٨٣٧ والذي اجبر فرنسة على ان تنفق خمسمائة مليون فرنك فرنسي اي ما يعادل

مائة مليار فرنك في ايامنا هذه وتبعث بأربعين الف جندي لقتاله كما يشهد بذلك المؤرخ الفرنسي جوليان في كتابه « تاريخ افريقية الشمالية » .

واما قولهم بان فتح الجزائر كان صفحة مشرقة وانها كانت قبل احتلالهم بلاداً مقفرة فلا أدل على كذبه مما جاء في مذكرات احد قادة حملة الاحتلال وهو المارشال سان ارنو التي اوردها المؤرخ جانسون في كتابه « تاريخ الجزائر » وفيها يقول :

« ان بلدة بني مناصر رائعة حقاً ، وهي من اغنى ما رأيت في افريقية ، وان القرى والمساكن فيها جد جميلة ومتراصة . ولقد احرقنا كل شيء ، وهدمنا كل ما صادفناه .. »

ويقول في مقطع آخر :

« اليوم ، وهو احد ايام سنة ١٨٤٢ اقتلعت اشجار البرتقال الجميلة ، واحرقت املاك بني سالم ، وقرى بني القاضي .... »

وجاء في تقرير لجنة التحقيق الفرنسية التي ارسلها البرلمان الفرنسي عام ١٨٣٣ ما نصه :

« لقد قتلنا اناساً يحملون تذاكر رسمية يسمح لهم بموجبها ان يتجولوا وذبحنا لمجرد الشبهة جماهير برمتها ، وجد فيما بعد انها بريئة ، وحكمنا على رجال ليس لهم ذنب سوى ان لديهم من الشجاعة ما دفعهم للوقوف في وجهنا الغاضب ، لكي يدافعوا عن اخوانهم البائسين . ولقد وجد هناك قضاة يحكمون على هؤلاء ، كما وجد رجال متمدنون ينفذون فيهم الاحكام ، لقد تجاوزنا في بربريتنا هؤلاء البربر الذين جئنا لتمدنهم .....

واما اقوالهم بان الفرنسيين قد احيوا اراضي ميتة لم تكن من قبلهم مأهولة وانهم جعلوها تربة صالحة وانهم لم يستولوا على اراضي السكان الاصليين فكذب صريح كما يؤيد ذلك قول كوليت وفرانسيس جونسون صاحبي كتاب « الجزائر الخارجة على القانون » :

« لقد بدأنا منذ عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٠ بترحيل السكان عن الاراضي الطيبة الى الصحـراء بطرق ذات طابع ظاهري حقـوقي وهي في الواقع طرق القوة والاغتصاب والامر الواقع . وذلك ان القرارات التي اخذت تصدر تباعاً وفي كل سنة ، كانت تقضي مثلاً بحجز املاك جميع الذين حملوا السلاح ضدنا ، كما تقضي بحجز جميع الاراضي غير المبنية في المدن ، وجميع الاراضي التي لا يحمل اصحابها سندات تمليك قديمة التاريخ ، واستملاك ملايين الهكتارات من اجل ما نسميه كذباً « النفع العام » حـتى وصلت الحالة في الوقت الحاضر الى ما يلي :

ان اطيب الاراضي في الجزائر وتبلغ مساحتها ٢٥ مليون هكتار، هي اليوم بيد خمسة وعشرين الف مستعمر فرنسي ، هذا فضلاً عن عشرات الالوف من الهكتارات التي يملكها بنك الشركة الجزائـــرية وبنك جنيف وكبار الاقطاعيين الفرنسيين . واما ما بقي من اراضي الجزائر وهو مجدب وتقدر مساحته بسبعة ملايين هكتار ، فموزع على نصف مليون جزائري » .

انتهى كلام المؤرخين كوليت وفرانسيس جونسون . وهو كلام يثبت بالارقام ان مزاعم الفرنسيين في انهم احيوا موات الجزائر هي مزاعم كاذبة ، بل العكس هو الصحيح .

ايها السادة

ان نضال الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي يرجع الى ابعد من خمسة قرون ، أي إنه ابتدأ على وجه التحقيق بعد سنة ١٤٩٢ . وهي السنة الـتي جلا فيها آخر عربي عن الاندلس وسقطت غرناطـة في ايـدي المستعمرين الاسبان ، فقد توجهت انظارهم بعد ذلك النصر الى الشمال الافريقي ، وتوالت على الجزائر خاصة حملاتهم ، كما توالت حملات الفرنسيين والبرتغاليين والانكليز وكانت الحروب سجالاً بين الطرفين ، الى ان استولى نابليون على السلطة في فرنسة . فانه بعد ان تجمعت فلول جيوشه المتفرقة في باريس ، وجهها الى الجزائر تخلصاً من خطرها وخوفاً من قيامها بثورة داخلية ، وقـد شجع

نابليون على ارسال هذه الحملة ما بلغه عن ضعف الاسطول الجزائري الذي كان قد اشترك مع الاسطولين: العثماني والمصري سنة ١٨٢٧ في معركة نافارين ضد اساطيل: بريطانية وفرنسة وروسية. وهكذا عبأت فرنسة جيوشها وارسلتها في حملة مؤلفة من اربعين الف مقاتل فاحتلت ميناء سيدي فرح قرب مدينة الجزائر في الرابع عشر من حزيران سنة ١٨٣٠ ثم فاوض الفرنسيون اميرها الداي حسين باشا يومذاك وحملوه على التسليم واحتلوا العاصمة في الخامس من تموز من تلك السنة. واراد الفرنسيون فرض سلطانهم بالقوة على سائر البلاد، ولكن الشعب الجزائري الابي حمل في وجههم السلاح. وكانت ثورة عبدالقادر، اسكنه الله الجنة، هي اولى الثورات، وقد ظلت نحواً من عشرين سنة اضطر بعدها الى الاستسلام، وعقدت فرنسة معه معاهدة صلح ولكنها خرقتها وغدرت به واعتقلته وهو في طريقه الى دار الخلافة العثمانية في عرض البحر الابيض هو واهله، ولم يستطع الافلات من ربقة سجنهم الى ان تولى نابليون الثالث، فاطلق سراحه على الشكل الذي تعرفونه.

وقد استمرت الثورات في الجزائر بعد الثورة القادرية ولم تكن تسكن في جهة حتى تثور في اخرى. وكانت فرنسة تقمع هذه الثورات بعنف ما بعده عنف فكم أحرقت من بيوت، وكم اتلفت من مزارع، وكم قتلت من ابرياء. واشهر هذه الثورات بعد الثورة القادرية:

ثورة بني بستاسن في سنة ١٨٥٩.

ثم ثورة اولاد سيد الشيخ في سنة ١٨٦٤.

ثم ثورة المجاهد باش اغا المقراني في سنة ١٨٧١ وهي المعروفة بثورة القبائل.

ثم ثورة العلامة الشيخ ابن الحداد في سنة ١٨٩٣.

ثم ثورة سنة ١٩٣٣ وسببها ان احد الجنود الفرنسيين اليهود مرّ

بجماعة يتذاكرون العلم بالقرب من معهد سيدي عبدالحميد بن باديس باعث الجزائر وزعيمها الروحي ، وما كان من هذا اليهودي الفرنسي الخبيث الا ان سخر منهم وشتم دينهم فثارت ثائرتهم وقتلوه وعمت مدينة قسنطينة ثورة عارمة في بضع ساعات ، ثم ما لبثت ان انتشرت في كافة ارجاء البلاد . وقد عمدت فرنسة الى القوة الغاشمة للقضاء على روح الثورة ففتكت بآلاف الاهلين وزجت بمئات الآلاف منهم في السجون ، حتى هدأت نيران الثورة ظاهرياً وبقيت النيران تحت الرماد ، الى ان كانت سنة ١٩٥٤ فاشتعلت نيران ثورة عنيفة ، حلف الاحرار في الجزائر الحبيبة فيها ، على ان لا يلقوا السلاح من ايديهم ، حتى يلقوا بآخر جندي فرنسي الى خارج حدودهم او يهلكوا دونها .

وقد كان ذلك يوم احتفلت الامم الحرة بيوم الظفر عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكان من الطبيعي جداً ان يشترك فيها الجزائريون فرفعوا اعلامهم الوطنية وحملوا لافتات كتبوا عليها آمالهم في الحرية ، ولكن الفرنسيين ثاروا على هذه المظاهرات الوطنية وتحرش الجيش والشرطة بالاهلين ونشبت نار الحرب بين الاهالي العزل والجنود الفرنسيين وسقط في ميادين الشرف نحو خمسين الف شهيد ببنادق الطغاة الفرنسيين . ولولا هذا الارهاب وتلكم القسوة لما استطاع الفرنسيون اخماد هذه الثورة التي ظل اوارها مستعراً في الخفاء ، الى ان اعلنت الثورة الاخيرة في خريف سنة ١٩٥٥ من جبال اوراس وجبال جرجره ، ثم شملت اليوم بلاد الجزائر كلها .

اوليات عن حقيقة هذه الثورة وتنظيماتها

تنظم شئون الثورة في الجزائر هيئة وطنية تسمى جبهة التحرير الوطني الجزائري ، ولها مجلس اعلى يشرف عليها ويسمى المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، ويتألف من ٣٤ عضواً ، منهم ١٧ عضواً اصلياً و ١٧ عضواً مساعداً . ولهذا المجلس لجنة عليا تسمى لجنة التنسيق والتنفيذ ، تتكون من

خمسة اعضاء تظل اسماؤهم مكتومة من بين اعضاء المجلس الوطني ومركزهم العام في مكان ما من مراكز المقاومة في الجزائر .

وهذه الهيئة هي التي تشرف على جيش التحرير الوطني الذي يقوم باعمال الجهاد والمقاومة الشعبية ، وقد قسم جيش التحرير هذا ، القطرَ الجزائري الى ست ولايات ، وكل ولاية الى مناطق ، وكل منطقة الى نواحٍ ، وكل ناحية الى اقسام، ونظم كل قسم تنظيماً عسكرياً وجعل فيه مجاهـــدين نظاميين لا يختلف نظامهم عن نظام الجيوش المنسقة ، وجعل في كل قسم اربعة دوائر او فروع :

احدها : الفرع العسكري السياسي

وثانيها : فرع الاستعلامات

وثالثها : فرع الاتصالات

ورابعها : فرع الرواتب والمعاشات والمنح العائلية للشهداء

وهناك دوائر للدعاية والاخبار والحرب المعنوية والاسرى ، والمالية والتموين ، ومجالس الشعب التي تنتخبها العامة ، وتكون صلة الوصل بين الجبهة وبين العامة .

وجبهة التحرير الوطني الجزائري تمثل الشعب الجزائري بكافة طبقاته ، وكافة احزابه وهيئاته ، واساس هذه الجبهـــة لجنة مقاومة سرية كانت موجودة في البلاد قبل الثورة تسمى « المنظمة السرية » وقـد ظلت هذه اللجنة تقاوم الفرنسيين في الخفاء الى ان اعلنت الثورة في اول تشرين الثاني من سنة ١٩٥٤ فانضمت كافة هيئات المقاومة اليها واضحى اسمها جبهة التحرير الوطني ، واضحى جهازهـا العسكري يسمى جيش التحرير الوطني الجزائري ، واضحى كل وطني مخلص في الجزائر ينضوي تحت لوائها ما عدا منظمة واحدة هي منظمة الحركة الوطنية الجزائرية التي يرأسها السيد مصالي الحاج . الا ان الخطة المستقيمة الواضحة الـتي اتبعها قادة جيش التحرير

وجبهة التحرير ، اضطرت الفرق المسلحة التابعة لمصالي الحاج ان تنضم شيئاً فشيئاً الى جيش التحرير وجبهة التحرير . وفي مطلع عام ١٩٥٥ اضحت كل قوى المقاومة في الجزائر خاضعة لجيش التحرير ، وكل عنصر سياسي خاضعاً لجبهة التحرير .

وفي تموز ١٩٥٦ ، انضوى كافة الجزائريين الموجودين في فرنسة وبلجيكا وغيرهما تحت قيادة الجبهة ، وبقيت منظمة « مصالي الحاج » ، ومنها منظمة « مولاي مرباح » وما يقرب من عشر منظمات اخرى خارجة عن حركة الجبهة على الرغم من الجهود القوية التي بذلها المسئولون العرب ، والمخلصون .

ولا بدَّ ان يأتي اليوم الذي يثوب فيه هؤلاء الى رشدهم ، وينضووا تحت لواء الجبهة . ومهما يكن من امر ، فان فرنسة لم تعد تجد امامها في الجزائر منظمة قوية تحاربها غير جبهة التحرير وجيشها على الرغم من الجهود التي تبذلها لتقوية جماعة مصالي الحاج ومولاي مرباح او غيرهما من المنشقين عن وحدة الشعب الجزائري المجاهد .

القضية الجزائرية وهيئة الامم المتحدة

ان قضية الجزائر في الامم المتحدة قضية مضحكة مبكية لان الامم المتحدة كما ينص شرطها ، انما وجدت لاحقاق العدالة ووضع حد لتعدي المعتدين ، ولكنَّ ممثلي بعض الدول المنضمة الى هذه الهيئة يتجاهلون ما وقعوا عليه وتعهدوا بتنفيذه حينما وقعوا على ميثاقها . ومن هذه الدول فرنسة ، فان هذه الدولة العجوز ، ما تزال تتصور ان شرعة الغاب ، وعقلية ساسة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، هي التي يجب ان تسيطر على هذه المنظمة الدولية ، ولذلك ارادت خنق اصوات قادة الجزائر لما رفعوا عقائرهم يطلبون الى الامم المتحدة ان تنظر في قضيتهم العادلة واستطاعت دولة الحرية والعدل والمساواة ! ! فرنسة ان تخنق اصوات من يطالبون بالحرية والعدل والمساواة .

فاتجه هؤلاء الاحرار الى الشعوب الشقيقة والامم الصديقة في افريقية وآسية . وكان اول صوت رسمي ارتفع في منظمة دولية يطالب بحقوق الجزائر هو صوت مندوب المملكة العربية السعودية حين طلب الى مجلس الامن في ٥ كانون الثاني سنة ١٩٥٤ ان يدرس مذكرة رفعها اليه باسم بلاده يبين فيها خطورة الوضع في القطر العربي المظلوم ، وتعدي فرنسة عليه تعدياً اصبح يهدد السلام العالمي ، ولكن المنظمة الدولية لم تقم بعمل ما .

وفي ١٨ نيسان الى ٢٤ نيسان سنة ١٩٥٥ انعقد مؤتمر باندونغ التاريخي واعلنت تسع وعشرون دولة افريقية واسيوية تأييد حقوق الجزائريين وطالبت فرنسة بالاعتراف بالجزائر في حقها في تقرير مصيرها واستقلالها .

وفي الخامس من حزيران سنة ١٩٥٥ بعث الامين العام للجامعة العربية مذكرة باسم الجامعة الى الامين العام للامم المتحدة يطلب اليه فيها ان يناشد الامم المتحدة بوضع حد للحرب المبيدة التي تسلكها فرنسة في الجزائر .

وفي السادس والعشرين من تموز ١٩٥٥ قدمت اربع عشرة دولة اسيوية افريقية طلباً الى الامين العام لتسجيل بحث قضية الجزائر في جدول اعمال هيئة الامم المتحدة اثناء دورتها العاشرة ، ولكن اللجنة السياسية رفضت ذلك. ولما عرض الأمر على الجمعية العمومية، رفضت قرار اللجنة ووافقت على عرض القضية باغلبية صوت واحد. فقد صوّت مع القرار ٢٨ وصوّت ضده ٢٧ وامتنع خمسة .

واضطر الوفد الفرنسي ان يغادر الجلسة. ودامت مقاطعة الوفد الفرنسي للجلسات من اول تشرين الاول سنة ١٩٥٥ الى اواخر تشرين الثاني . وفي الثالث والعشرين منه اقترحت دول الشيلي وكولمبيا وكوبا والاكواتور حذف قضية الجزائر من جدول الاعمال .

وفي الخامس والعشرين منه اقترحت الهند سحب القضية من جدول

الاعمال هذا العام ، والاحتفاظ بحق الدول العربية في طرح القضيـــة من جديد في مناسبة اخرى .

وهكذا انقضت الدورة الماضية ، وهي الدورة العاشرة ، والقضية الجزائرية لم تتقدم خطوة في المنظمة الدولية . ولكن الدول الاسيوية رأت وجوب استمرار مطالبة الامم المتحدة بحث هذا الامر فعقدت اجتماعات في نيويورك استمرت من السادس الى التاسع عشر من ايار سنة ١٩٥٦ نظمت فيها طريقة العمل . وفي التاسع عشر من حزيران سنة ١٩٥٦ تقدمت ثلاث عشرة دولة اسيوية افريقية الى مجلس الامن تطالبه ان يبحث قضية الجزائر ، ولكن مجلس الامن رفض ذلك بسبعة اصوات ضد اثنين وهما ايران وروسية وامتناع اثنين عن التصويت وهما الصين الوطنية ويوغسلافية .

وواصلت الكتلة العربية الاسيوية الافريقية جهودها فقدمت في اول تشرين الاول طلباً الى الامين العام بتسجيل القضية في جدول الاعمال وقد وقعه كل من الافغان وبورما وسيلان ومصر واندونيسية والعراق والاردن ولبنان وليبيا والباكستان والفلبين وسورية والعربية السعودية واليمن .

وهكذا عرضت القضية على الامم المتحـــدة ، واضطرت فرنسة الى حضور جلسات الجمعية العامة للامم المتحدة في الدورة الحادية عشرة . وقد دام نقاش المندوبين لهذه القضية قرابة عشرين يوماً حمـل فيها اكثر من ثلثي اعضاء المنظمة الدولية على فرنسة وبينوا ظلمها وعسفها . وانه لما يشرفني ههنا ان اعلن ان الوفد السوري كان المجلي في تنظيم هذه الحملة .

وكان للصديقين الكريمين الدكتور فريد زين الدين سفيرنا في الولايات المتحدة شفاه الله ، والدكتور صلاح الدين الطرزي امـين خارجيتنا الالمعي ، القدح المعلى في هذه الحملة .

وقد ادرك وزير خارجية فرنسة بينو ان الوفود الدولية سيملون من استماع خطاب طويل فقسم خطابه الى قسمين بدأ القسم الاول بفقرات من دستور فرنسة التحرري ، ثم انذر الامم المتحدة وهددها بالخروج منها

والانقطاع عن جلساتها، اذا هي اتخذت اي قرار لحل المعضلة الجزائرية على شكل لا يعجب فرنسة، كل هذا ليؤثر في اعصاب اعضاء الهيئة ويخدعهم في اسلوب كله سفسطة وكذب .

فقد زعم وهو المؤرخ العالم، ان وجود فرنسة في الجزائر له صفة شرعية قانونية، وان فرنسة لم تغزُ الجزائر غزواً، بل احتلت ارضاً لم تكن خاضعة لأي سلطان .

هكذا يزعم المؤرخ والعالم وزير الخارجيـــة الفرنسية، وكأنه قد تناسى انه يخاطب كثيراً من وفود دول كان لها فيما مضى اتفاقات ومعاهدات دولية مع الجزائر قبل الغزو الفرنسي، كما ذكرت في مطلع محاضرتي .

ولم يكتفِ وزير الخارجيـة الفرنسية بتشويه الحقائق التاريخية، بل اضاف الى ذلك قوله : « ان هيئة الامم تتكون من بلدان لها دساتيرها، ولكنَّ كثيراً من هذه الدساتير لا تبلغ مستوى الدستور الفرنسي في سمو مبادئه » ويريد بهذا القول ترديد النغمة الكاذبة الخاطئة الزاعمة بان فرنسة هي ام الحريات وربة المبادىء الانسانية وما الى ذلك من الخزعبلات التي نقضها عمل ابنائها الوحشي في سورية وتونس والجزائر ومراكش والهند الصينية .

وقال في خطابه : « ان اي قرار تصدره هذه المنظمة ولا ترضى عنه فرنسة يكون حبراً على ورق . واني انذر هذه المنظمة بان فرنسة لا ترى نفسها مسئولة عن تطبيق اي قرار يماشي رغبـات المغالين من الجزائريين ومطاليبهم فان الكثرة الكاثرة منهـم تدين بفضل فرنسة عليهـا، وان فضل فرنسة على سكان الجزائر لفضل عظيم، فانها احيت ارضهم الميتة ولم يستولِ احد من ابنائها على ارض طيبة الا بحق القانون .

ثم اخذ يسرد ارقاماً كاذبة لا قبل لوفود الدول في المنظمة بمعرفة مدى صحتها الا بزيارة الجزائر والتحدث الى الجزائريين للتأكد من كذب الوزير الاشتراكي الذي لا يختلف في عقليته عن عقلية الجنرال بيجو الذي

خاطب قادة جيشه في مايس سنة ١٨٤٠ بقوله : « حيثما وجدتم ارضاً طيبة فازلوا فيها المستعمرين بلا تردد ، ولا يهمكم ان تبحثوا عن اصحابها فانها ملك يمينكم » .

ومما قاله بينو في خطابه من الارقام الكاذبة ان مستشفيات الجزائر تشتمل على ثلاثين الف سرير وان المستوى الصحي عال جداً . وهذا كذب صريح فان الطبيب الفرنسي في مستشفى العاصمة قال في تصريح له نشرته جريدة المقاومة الجزائرية : « لقد زرنا مستشفى يبعد عن العاصمة مائتي كيلو متر في منطقة يبلغ عدد سكانها مائة الف فلم نجد فيه اكثر من ١٢٠ سريراً » .

« وزرنا مستشفى آخر يبعد عن العاصمة ثلاثمائة كيلو متر فلم نجد فيه سوى اربعين سريراً ، وان في القطر الجزائري ١٨٥١ طبيباً حسب احصاء سنة ١٩٥٤ ويعمل منهم « ١١٤٥ » في المدن الكبرى الثلاثة قسنطينة والجزائر ووهران ، وتتفرق البقية على سائر المدن والقرى بحيث يصيب كل مائة الف شخص ثمانية اطباء .

ومما قاله بينو في خطابه : « ان الاصلاحات التي ادخلناها على الجزائر كثيرة جداً واجدرها بالذكر هي مشاركة المسلمين في الوظائف العامة . » وهذا كذب صراح فان عدد الجزائريين المسلمين الموظفين لا يزيد عن الثمانية في الالف .

ومما قاله ايضاً ان في مدارس الجزائر ٣٧ الف طالب . والحق ان اكثر هؤلاء الطلاب هم من ابناء الفرنسيين ، وليس بين طلاب جامعة الجزائر البالغ عددهم « ٧١٤٦ » طالباً سوى « ٥٥٧ » طالباً عربياً ، مع ان عدد الاوربيين مليون وعدد العرب احد عشر مليوناً ، هذا مع العلم بان مليونين ونصف مليون طفل عربي لا يجدون مقاعد في مدارس الحكومة .

ومما قاله ايضاً ان الحكومة الفرنسية تحترم اللغة العربية والدين

الاسلامي وهذا كذب صراح . اما اللغة العربية فلا ادل على محاولة القضاء عليها من اننا كنا نضطر انا وزملائي اعضاء الوفود العربية في الامم المتحدة الى التحدث مع اخواننا ممثلي جبهة التحرير بالفرنسية او الانكليزية في كثير من الاحيان. واذا كان هذا شأن القادة فما قولكم بشأن العامة ؟ واما الدين الاسلامي فان القوم جادون للقضاء عليه واليكم تعريب ما قالته مجلة La voie de Salue « ان عامة الناس يجهلون بان الحكومة الفرنسية قد امت الدين الاسلامي في الجزائر ، وانها تملكت جميع المساجد والزوايا وغيرها من المعاهد الدينية ، كما استحوذت على اوقافها ، وهي التي تتولى تعيين الائمة والمؤذنين والقضاة والمفتين وتدفع لهم اجورهم ما داموا مخلصين لها .. »

هـذا ملخص خطاب وزير الخارجية الفرنسية في الامم المتحدة ، وقد ناقشه فيه ممثلو ستين دولة هي الدول العربية ودول الكتلة الاسيوية الافريقية ودول الكتلة الشرقية الصديقة وبعض الدول الاميركية اللاتينية فبينوا ان ما ادعاه غير صحيح ، وان الجزائر تطالب بحق مشروع ، وهو حق تقرير مصيرها واستقلالها .

ولا اكتمكم ان خطاب مندوبي سورية الدكتور صلاح الدين الطرزي وفريد زين الدين كانا الدرة اليتيمة في عقد المناقشة التي طوقت الجزائر الحبيبة وزينت صدرها بأوسمة العزة والفخار والوطنية الصادقة.

وانا ارجو الاخ الدكتور الطرزي ، ان يسمعكم في دمشق ما اسمعناه في نيويورك . مما قاله في مناقشة بينو وسوستيل اللذين لم يستطيعا ان يكتما اعجابهما بخطابه وبلاغته وقدرته على امتلاك ناصية الموضوع وحسن مناقشته . وقد اعلن ذلك سوستيل في مؤتمر صحفي عقـــده عقب اعلان قرار الامم عن القضية الجزائرية .

اما بعد فانه لم يسبق لقضية من قضايا الاستعمار الغربي ان صادفت من النجاح في اروقة الامم المتحدة ما حازته قضية الجزائر في هذه الدورة . ولئن لم يتح لنا ان نظفر بقرار يدين فرنسة ، فاننا قد كسبنا جولة كبيرة

اثناء هذه الدورة في تبيين حقائق هـــذه القضية للعالم اجمع ، فقد دامت مناقشتها اسبوعين بمعدل جلستين طويلتين في اليوم الواحد .

ثم كان ذلك القـرار الاجماعي الذي اشتركت فيه ثمانون دولة بما فيها اسرائيل ، والذي اعلن حق الجزائر في ثورتها على فرنسة واوجب على هذه ان تعمل ضمن نصوص ميثاق الامم المتحدة على حل هـذه المشكلة ، واعتبر الجزائريين جانباً والفرنسيين جانباً آخر ، واوجب على الفرنسيين ان يشرعوا في القيام بمفاوضات مباشرة مع الجزائريين لحل هذه المشكلة .

ولا شك في ان هـذا القرار الاجماعي كان صفعة لفرنسة ووزير خارجيتها بينو وسائر اعضاء الوفـــد الفرنسي المائة والخمسين ، بما فيهم بعض المغلوب على امرهم من اخواننا الجزائريين .

ايها السيدات والسادة

ان رجال الحكم والسياسة الفرنسية اليوم هم قوم مسعورون حمق ، وان ما كان قام به بالامس الجنرال بيجو والمارشال راندون ، وموريس فيوليت ، وجول كارد في الجزائر من اعمال الظـلم البالغ والارهاب الذي لا يختلف عما قامت به محاكم التفتيش في اسبانية ليتكرر اليوم على ايدي المجرم لاكوست والطاغية غي موليه والاشتراكي العالم بينو .

وان مما هـو جدير بالذكر ، ان بعض الدول المستعمرة قد ضاقت ذرعاً بالاخبار الفظيعة التي تبلغها عن وحشية الفرنسيين في حرب الجزائر . فقد طلعت علينا يوم امس جريدة « المانشستر غارديان » بمقال عالجت فيه الموقف في الجـزائر ودعت الدول الحرة الى التحقيق في اساليب التعذيب وحرب الابادة التي يرتكبها الاستعمار الفرنسي .

وسواء أكان ما قالته الصحيفة البريطانية صادراً عن عاطفة صادقة او عن رياء او خدعة استعمارية جديدة ، فان فيه دليلاً جديداً لنا وللعالم

الحر على ان المسئولين الفرنسيين قد بلغوا حـــد الجنون في انتقامهم من هذا الشعب المسكين . وليثق العالم بأن هـــذا التنكيل سيعجل في انهاء القضية وسيعمق الحفرة الجهنمية التي ستقبر فيها فرنسة في ارض الجـزائر الطيبة الى الابد بحول الله .

ان الشعب الجزائري العربي قد آلى على نفسه أن لا يلقي السلاح حتى يطرد فرنسة من ارضه بحول الله وقوته ، وإن أنسَ لا أنسَ ابداً ما قاله لنا في نيويورك السادة عبـاس فرحات ومحمد يزيد والدكتور محمد فرنسيس من ان ازدياد العسف الفرنسي ليشحذ عزائمنـــا ويدفعنا الى الاستبسال والاستماتة للوصول الى اهدافنا القومية .

وان ما نلناه من النصر في اروقة الامم المتحدة في هذه الدورة ، وما سننالـه في الدورة القادمة ، ليس سوى جزء من مائة جزء مما يجب علينا عمله .

وان العمل الحاسم لن يكون الاّ في بطاح وهران وجبال اوراس وعلى تلال الجرجرة .

أخذ الله بيدهم ، وسدد خطاهم ، والهمنا ان نعمـــل على تقديم ما نستطيع اليهم من معونة وتعضيد ، فان نجاحهم هو الذي سيدكّ صرح الاستعمار في الشمال الافريقي ، وان ذلك لآتٍ قريباً بحول الله .

محمد أسعد طلس

المحاضرة الثامنة

القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة

الدكتور محمد اسعد طلس

= القيت بتاريخ ١٣ / ٤ / ١٩٥٧ =

حدثني شاب امريكي مثقف في مدينة نيويورك عن مشكلتنا مع اليهود فكان مما قاله لي :

« من الغريب جداً ألا يستطيع العرب حل معضلتهم مع اليهود ، مع ان مجموع افراد الامة العربية نحو تسعين مليون عربي ، ومجموع يهود فلسطين لا يزيد على مليون واحد . أفلا تستطيعون ابتلاع هذا المليون في هذا الخضم الواسع من الارض ؟ هذا فضلاً عن الصلات التاريخية الوثيقة التي تربطكم بابناء عمومتكم اليهود من جهة ، وعن مزاياهم العديدة في الصناعة والفنون والعلوم من جهة ثانية » .

ومحدثي الشاب هذا ، هو اديب فنان يدعى « لوسيان تران » درس الطب في جامعة كولومبيا ، ثم انصرف عنه في السنة الاخيرة الى دراسة الفنون الجميلة في جامعة « هارفرد » وهو اليوم ذو مركز ممتاز في عالم الفن والزخرفة ، وبخاصة في زخرفة البيوت وهندستها ، وهو عضو مرموق في متحف الفن الحديث « Museum of Modern Art » وعن طريق هذا المتحف كانت صلتي به . فقد كنتُ انتهز ساعات الفراغ من العمل في هيئة الامم المتحدة وازور المتاحف واتصل برجالات الفن والعلم فيها واتحدث اليهم . وقد عرفت الكثير مما يجول في خواطر جمهرة كبيرة من رجالات الولايات المتحدة وشبابها مما يتعلق بقضايانا .

ويمثل السيد تران ، طبقة كبيرة من شبان الولايات المتحدة المثقفين الذين يحرصون أشد الحرص على حفظ سمعة بلادهم في الخارج وعلى تسوية المشاكل العالمية ، وبخاصة المشكلة العربية اليهودية . ولذلك اهتممت بحديثي معه واحببت عرضه عليكم ، واليكم خلاصة ردي على ما قال :

« اننا نحن العرب لا ننكر الصلات التاريخية بيننا وبين اليهود ، كما انهم لا ينكرون ما اسديناه اليهم من الرعاية والعطف طوال عصور تاريخنا وبخاصة في اسبانيا ، فقد انقذناهم من الذل والاهانات التي كانوا يلقونها قبل الفتح العربي وعاملناهم معاملة الند للند ، وأحسنا اليهم تبعاً لأمر شرعنا . وما يزال حتى يومنا هذا عدد كبير منهم ينعم بالعيش الرغيد في ديارنا العربية من شمالي افريقية الى العراق .

ونحن قوم لا نتعصب ضد اليهود لانهم يهود ، ولكننا نحمل على الصهيونية لانها فكرة مجرمة ظالمة قام بها نفر من متهوسي اليهود يعملون على نشرها وعلى تأسيس دولة لها في قلب البلاد العربية . ولقد تآمر معهم المستعمرون من انكليز وافرنسيين في الماضي ، كما تآمروا معهم بالامس القريب يوم غزو مصر ، وخلقوا هذه الدولة مستغلين نفوذهم العالمي في اوساط الامم المتحدة . ولتعلم يا صديقي وليعلم من وراءك من الشبان الامريكيين ، ان هذه الدولة لن تعيش ما دام في العرب جميعاً من اقصى المغرب الى اقصى المشرق عرق ينبض ، وليس لهذا المليون دخيل محل بين ظهرانينا ولو كنا مائتي مليون ولو كانت ارضنا تتسع لثلاثمائة مليون ، فارضنا لنا وحدنا ورثناها عن آبائنا ندخل فيها من نشاء ونخرج منها من نشاء بعزة الله وقوة ايماننا بانفسنا وقوة جيوشنا العربية المتحدة ، وما اشبه هذا المليون يهودي بجرثومة السل الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة ولكنها اذا دخلت جسم الانسان وهو اضعاف اضعافها بملايين المرات فتكت به وبمن حوله . فلن تقوم للصهيونية دولة فيما بين اظهرنا ولو اجتمعت كل دول الاستعمار معها علينا . اما الصلات التاريخية التي قلتَ انها تربطنا بمن سميتهم ابناء عمومتنا ، فانهم قد قطعوها يوم قاموا بتأسيس دولتهم على جماجم

اخواننا في كفر قاسم وقبية ودير ياسين والقسطل وطبريا ورفح والعريش وغزة .. ولن تجد اسرائيل واعوانها من الفرنسيين والانكليز والامريكان وغيرهم من دول الاستعمار فينا نحن العرب جميعاً رجلاً واحـــداً يقول بالصلح او التفاهم مع دولة شذاذ الآفاق ، وليس هذا يا صديقي هـو رأيي وحدي ، وليس هو رأي الوفود العربية كلها في الامم المتحـدة ، ولـكنه رأي جميع من يعيشون في دنيا العرب » .

هذا هو حديث من احاديث عدة جرت لي اثناء اقامتي في الولايات المتحدة الاميركية ، وهذه بعض اقوال قلت بها في خطابيّ الاثنين اللذين القيتهما في اللجنة السياسية الخاصة بهيئة الامم المتحدة حـــين بحثت قضية اللاجئين ، وسأعرض الى ذكر فقرات من هذين الخطابين فيما بعد .

ايها السيدات والسادة

لا يسعني قبل ان ابدأ حديثي عن قضيـة فلسطين في دورة الامم المتحدة الاخيرة ، الا ان اعرض عليكم حديثاً آخر جرى بيني وبين احد اعضاء الوفد الامريكي الى الامم المتحدة . قال لي : ان المعضلة العربية ـ اليهودية قـد اقلقت العالم ، فمن الواجب ايجاد طريقة سلميـة لحلها ، ومن الواجب على الحكام وقادة الرأي في البلاد العربية ان يعملوا على ايجاد حل لها . ولست اعني بقولي هذا ان يتصالح العرب واليهـود لاني اعرف ان هذا مستحيل ، ولـكنني ادعو رجال الحل والعقد في هذه الهيئة الدولية ان يبحثوا عن طريق عملية لحـــل القضية الفلسطينية . واقترح هذه البنود الاربعة :

١ ـ ان لا يعتدي العرب على حدود الدولة اليهودية .

٢ ـ ان لا يعتدي اليهود على حدود الدول العربية المجاورة .

٣ ـ ان يسمح العرب بعبور السفن اليهودية في البحر الاحمر والقناة .

٤ ـ ان تتعهد الامم المتحدة بضمان حدود كل من الجانبين وتدفع لكل منها مساعدات معينة سنوية .

فما قولكم بهذا » ؟ ...

فأجبته بقولي : ان هذه معضلة قد خلقها المستعمرون ، فعليهم هم ان يوجدوا الطريقة للقضاء عليها والتخلص من هـذه الجرثومة . وليثق هـؤلاء المستعمرون ان حل هذه المعضلة لن يكون على حسابنا نحن ، فانك لن تجد عربياً واحداً يقبل بأحد هـــذه البنود الاربعة . ويظهر ان ما قاله لي المسئول الامريكي هو امر مبيت بين دول الاستعمار، ولذلك صرح به امس الاول سلوين لويد في مجلس العموم .

ايها السيدات والسادة :

ان بلفور ودولته ، وترومان وحكومته ، وسائر دول الاستعمار التي عملت على خلق اسرائيل وادخلتها في هيئة الامم المتحـدة ، هي المسئولة لايجاد طريقة لحل مشكلة اليهـــود والقضاء على دولتهم التي خلقوها في فلسطين ، فلينقلوها حيث شاءوا وليصنعوا بها ما ارادوا . فـــي كندا واوستراليا اراض واسعة شاسعة يستطيعون ان ينشئوا فيها لهم دولة تتسع للاربعة عشر مليوناً من اليهود لا لمليون واحد .

هذه اقوال كنا نسمعها في الولايات المتحـدة وكنا نرد عليها بمثل ما سمعـــتم ، ولو كان في وسعنا ان نجهز جهاز دعاية واسعة للقضاء على حملات الدعاية الصهيونية الواسعة لكان في ذلك خير كثير ، ولكن ذلك جد عسير . وليس ههنا مجال البحث فيه ، ولكني احب ان اقـول إن الدعاية العربية ناقصة ، وان مكاتبها الموجودة في الولايات المتحدة واوربا لا تستطيع ان تقوم بالغرض المطلوب منها على الوجه الاكمل ، وبخاصة في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك على وجه أخـــص . لان خصومنا مسيطرون على كافة وسائل الدعاية من صحف ودور اذاعـة ومحطات تلفزيون وقاعات عرض وسينما . ولا بأس بان اذكر في هذه المناسبة ، ما قرأته في الصحف الامريكية

من حملات ظالمة على سورية ونظامها الحالي ، وكذلك ما كنا نجده من حملات كاذبة على مصر والاردن والعربية السعودية واليمن فان الصحف الامريكية كلها مملوءة بالاكاذيب التي تخترعها اقلام الصهيونية ضدنا وتصورنا بأبشع الصور . وان أنسَ لا أنسَ ما جرى يوم اعلن خبر زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك سعود المعظم للولايات المتحدة ، فقد قامت الحملات اليهودية ضد تلك الزيارة ، وارادت جميع الوفود العربية بل جميع وفود الكتلة الآسيوية الافريقية الى الامم المتحدة ان توقف تلك الحملات الكاذبة فلم تستطع ولم تتمكن من السيطرة على جريدة واحدة ترد فيها على الاكاذيب والدعايات الخبيثة التي كان ينشرها اليهود ضد العرب جميعاً . فالى حكوماتنا والى رجالات الصحافة عندنا ابعث بنداء طالباً اليهم ان يعيروا هذا الامر ما يستحقه من العناية ، وان يهتموا بأجهزة الدعاية في الخارج ، فان هذا امر على جانب كبير من الخطورة والضرورة .

اعود بعد هذه المقدمة ، التي استميحكم عذراً في طولها فان مهنة التعليم ما تزال مسيطرة عليّ ، الى قضية فلسطين في الامم المتحدة فأعرض عليكم ما رأيت وما سمعت في اروقتها ، وما يبيت لنا ثمة لنتداول في الأمر ، فلعلنا نهتدي الى طريقة تعيننا على حل هذه المشكلة وبخاصة فيما يتعلق بعودة اللاجئين الى ديارهم .

ان قضية فلسطين اصبحت مشكلة مزمنة في اروقة الامم المتحدة . ويمكن القول بانها قد عاصرت هذه المنظمة منذ نشوئها ، فقد عرضت قضيتها عليها لاول مرة في اواسط سنة ١٩٤٧ ، وما تزال تعرض كل سنة حتى اضحت السجلات والوثائق والقرارات المتعلقة بها تؤلف خزانة ضخمة وتتعلق هذه القرارات بتقسيم فلسطين ، وتدويل القدس ، واعادة اللاجئين ، كما تتعلق بلجان الهدنة ، ولجنة التوفيق ، والوسيطين الدوليين الكونت برنادوت ورالف بانش ، ومسائل الامن في المنطقة بصورة عامة وموضوع قطاع غزة وخليج العقبة .

لا استطيع في هذا الوقت القصير ، ان اكشف لكم النقاب عن تاريخ هذه المأساة التي ابتدأت عملياً بتصريح السير الانكليزي آرثر جيمس بلفور الهالك في سنة ١٩٣٠ يوم وعد اليهود في الثاني من شهر تشرين الثاني في سنة ١٩١٧ باقامة وطن قومي لهم على ارض فلسطين ، كما لا استطيع ههنا الان ، ان ارسم لكم الخطوط الرئيسة للسياسة البريطانية الظالمة التي سارت عليها في فلسطين يوم عملت على انشاء ذلك الوطن اليهودي على اشلاء سكان البلاد الاصليين . كما اني لا اريد ان اضع امامكم الصورة الدامية للاعتداءات الصهيونية البريطانية التي قام بها الطرفان ، وحاربوا شعباً بريئاً اعزل سواء قبل تأسيس الدولة الصهيونية او بعدها ، بل سأحصر كلامي في الحقائق والوقائع التي مرت بها هذه المأساة في اروقة الامم المتحدة .

كلكم يعرف ان الحكومة البريطانية في سنة ١٩٤٧ شعرت بان اليهود قد اصبحوا اقوياء في فلسطين بفضل مساعدة الانكليز لهم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، وان بوسعهم يومئذٍ تحقيق المؤامرة المميتة لتنفيذ وعد بلفور ، ولم يريدوا ان يعلنوا قيام الدولة اليهودية عن طريقهم وحدهم ، بل سلكوا الى ذلك طريقهم السياسية العتيقة المعروفة عنهم ، وهي طريقة اللف والدوران والثعلبية البريطانية بالتستر وراء الاخرين وتحميلهم اعباء ما يريدون عمله .

وكانت الامم المتحدة آنئذٍ قد برزت كمؤسسة دولية فتية ، فرأى دهاقنة « رقم ١٠ داوننغ ستريت » التستر وراء منظمة الامم المتحدة لخلق هذه الدولة فقدموا قضية فلسطين الى الجمعية العامة واعلنوا انهم يريدون انهاء الانتداب على فلسطين لتقرر المنظمة الدولية ما تريد ، وليكون لعملهم صفة عالمية . وهكذا كان ، فقد اصدرت الجمعية العامة في التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ قرارها الاول القاضي بانشاء دولة يهودية في فلسطين وبتقسيمها بين العرب واليهود . وعقب صدور هذا القرار قام اليهود باعمال الارهاب هم والدولة المنتدبة المطلوب منها حماية

سكان فلسطين ورعايتهم ، واشترك الطرفان من يهود وانكليز في اشاعة الرعب بين السكان حتى اضطروا اكثرهم الى الهرب من ديارهم واللجوء الى البلاد المجاورة . ثم اعلن البريطانيون انسحابهم رسمياً من فلسطين في ١٤ ايار سنة ١٩٤٨ بعد ان سلموا لليهود معظم المدن والقرى العربية ، وبعد ان اعطوهم كميات كبيرة من الاسلحة والسيارات والدبابات والمؤن والملابس العسكرية . ودخلت الجيوش العربية ارض فلسطين في ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ لتحريرها . غير انه لم تمض قرابة شهر حتى عقدت الهدنة الاولى بين العرب واليهود بضغط دول الاستعمار وخصوصاً بريطانيا وامريكا وبأمر مجلس الامن الدولي وقرار الامم المتحدة بعد ان احتل اليهود مدينة عكا والقرى المحيطة بها ويافا وبالقدس وبالمجدل وبطولكرم. ثم استؤنف القتال في التاسع من تموز ١٩٤٨ وعمل الجنرال البريطاني كلوب عملته اللئيمة يوم امر بسحب قوات الجيش الاردني من اللد والرملة وسلمها الى اليهود . ثم كانت الهدنة الثانية بناء على امر الامم المتحدة . وتوالت بعد هذه الهدنة ضربات اليهود للعرب واعتداءاتهم على المناطق العربية ، وهيئة الامم المتحدة ومجلس الامن لا ينبسان ببنت شفة على الرغم من صياح ممثلي الوفود العربية ، وعلى الرغم من القرارات الصريحة التي كانت الامم المتحدة قد اصدرتها بوجوب بقاء اليهود في المناطق المخصصة لهم بموجب قرار التقسيم وبحسب قرارات الهدنة . ولما اشتد صراخ الصحف العربية وعلت اصوات وفود الدول العربية في اروقة الامم المتحدة تظاهرت الامم المتحدة بانها مهتمة بالامر وانها لا ترضى عن عمل اليهود واصدرت سلسلة من القرارات طالبت اليهود فيها بالرجوع الى خطوط التقسيم ، ولكن اليهود ضربوا بهذه القرارات عرض الحائط وسكتوا عنها وسكتت الامم المتحدة . وهكذا قامت دولة اسرائيل الصهيونية بعد ان استولت على اكثر ربوع فلسطين وهرب سكانها من ديارهم ، واضحى نحو مليون وربع مليون عربي مشردين لاجئين ، واحتل اليهود المجرمون قرابة عشرة الاف كيلو متر مربع من الارض علاوة على ما اختصهم به مشروع التقسيم ، وفي هذا القسم عشرات

من القرى والمدن العربية الـــتي تدعي اسرائيل انها غنمتها بالسلاح وان ما اخذته بقوة السلاح لن ترده الا بقوة السلاح .

وهكذا تفاقمت المشكلة وبخاصة فـــيما يتعلق بسكان فلسطين الذين صاروا يعرفون فيما بعد باللاجئين ، واخذت الامم المتحدة تدرس احوالهم وتصدر القرارات الخاصة بهم لانها هي المسئولة عنهم ولانها هي التي خلقت اسرائيل . وقد احس ممثـــلو بريطانيا وامريكا خاصة في البلاد المضيفة لهؤلاء اللاجئين بسوء الحالة العامة في هذه المنطقة التي تطلق عليها الجغرافية الاستعمارية اسم الشرق الاوسط وهـــو اسم لا احبه ولا استسيغه لانه تعبير استعماري مصنوع ، ما قال به احد من جغرافيينا القدماء وانما هي اسماء سموها احتقاراً لنا وازدراء بارضنا الطيبة وليس ثمة شرق ادنى ولا شرق اقصى ولا شرق اوسط وانما ثمة شيئان هما : الشرق والغرب قلت احسّ ممثلو الدول العظمى في الامم المتحدة وبخاصة امريكا وانكلترا سوء الوضع في الدول العربية بسبب المعضلة الفلسطينية وما نجم عنها من امر هـؤلاء اللاجئين فطلبوا الى منظمة اليونسكو والصليب الاحمـــر الدولي وجمعية الاصدقاء الامريكية « الكويكارز » وغـيرها من المنظمات العالمية ان تهتم بقضايا اللاجئين من النواحي التعليمية والصحية والمعاشية ، ثم تبين لهم ان هذا علاج غير كافٍ فعرضوا الامر على الجمعية العامة للامـــم المتحدة ، فقررت في دورتها العادية المنعقدة في خريف سنة ١٩٤٩ الموافقة على تقرير قامت به لجنة كانت قد كلفت من قبل الامين العام للامم المتحدة بدراسة شؤون فلسطين وهي المعروفة باسم لجنة « الاستقصاء الاقتصادي » برئاسة المستر كوردون كلاب الامريكي الجنسية ورئيس مجلس ادارة لجنة وادي تنسي في الولايات المتحدة . وكان هذا التقرير شاملاً وواسعاً ومتضمنا للتواصي الضرورية فاقرته الجمعية العامة للامم المتحدة واصـدرت في جلسة يوم ٨ كانون الاول سنة ١٩٤٩ قراراً رقمه ٣٠٢/٤ يقضـــي بتشكيل وكالة تابعة للامم المتحدة للاشراف على شئون اللاجئين في النقطتين الآتيتين :

١ ـ تقديم الاسعاف والاغاثة للاجئين الفلسطينيين للابقاء على صحتهم

والعناية بهم بعد تنظيم .

٢ ـ القيام ببرامـــج لتحسين معيشة اللاجئين الفلسطينيين وتنظيم احوالهم بشكل يؤدي الى اعتمادهم على انفسهم لشطب اسمائهم من جـداول الاسعاف والاغاثة .

وضماناً لحسن سير هذه الوكالة وتحقيق اهدافها ، قررت الامم المتحدة تشكيل لجنة استشارية عليا توجيهية تعاون المدير العام وتتألف من مندوبين برتبة سفير من كلٍّ من دول : الولايات المتحدة الاميركية، وفرنسة، وانكلترة ، وتركيـا ، وبلجيكا والدول المضيفة الاربع وهي : مصر والاردن ولبنان وسورية . وهكذا تشكلت « وكالة الامم المتحـــدة لاغاثـة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم » في اول ايار سنة ١٩٥٠ وشرعت في العمل واتخذت بيروت مقراً لها .

ويتألف جهازها الاداري من مدير عام ومن خمسة مفتشين وضابط ارتباط بينها وبين الامم المتحدة ، وسبع دوائر تعنى بشئون الادارة والصحة والتموين والمعارف والشئون الاجتماعية والاقتصاد والماليـة . وهناك اقسام للاحصاء والتسجيل وبرامج الاشغال وسكرتارية اللجنة الاستشارية .

وقد سمّي الامين العام للامم المتحدة الجنرال هوارد كنيدي H. Knnedy مديراً عاماً للوكالة وهو كندي الجنسية . ثم بعد سنة سمّيَ المستر بلاندفورد Blanford الاميركي الجنسية مديراً عامـــاً . ثم بعد سنة سمي المستر لابويس Laboisse الامريكي الجنسية مديراً عاماً ، وما يزال قائماً على العمل وتسيير الوكالة على الشكل الذي تعرفونه .

ان اعمال الوكالة على نوعين : نوع يتعلق باطعـام اللاجئين ، ولهـذا النوع موازنته السنوية الخـــاصة وابوابه وفصوله . ونوع يتعلق بالمشاريع الزراعية والصناعية المختلفة الرامية الى اسكان اللاجئين في البلاد العربية ، وليس لهذا النوع موازنة خاصـة سنوية ، وانما له موازنة عامـة وزعت على

سنوات وبدىء بتنفيذها على اساس قرار الامم المتحدة رقم ٥١٣ بتاريخ ١٩٥٣/١/٢٦ وقد خصصت الامم المتحدة له مبلغ/ ٢٥٠ / مليون دولار منها :

٥٠ مليون دولار للاطعـــام توزع على ثلاث سنوات اعتباراً من سنة ١٩٥٢ .

و ٢٠٠ مليون دولار خصصت لمشاريع اسكان اللاجئين في البـلاد العربية على ان تتم في ثلاث سنوات ، اعتبار من سنة ١٩٥٢ . ولكن هذا العمل لم يتم لان الكثرة الكاثرة من اللاجئين قد قاومته وصممت على رفضه املاً في العودة الى ديارهم ، ولمعارضتهم لكل مشروع يرمي الى ابعادهم عن هدفهم الاول وهو العودة . وقد صرح مدير الوكالة في تقاريره الى المجلس الاستشاري ، والى الامين العام ، والى الجمعية العامة للامم المتحدة بان اللاجئين يرفضون مشاريع الاسكان بصورة عامـــة رفضاً باتاً ، وخصص مقطعاً لهذا الامر في تقريره السنوي الاخير الذي قدمه في الدورة الحادية عشرة الى الهيئة العامة للامم المتحدة . واذا كانت مشاريع الاسكان هـذه لم تتحقق في السنوات الماضيـة على الشكل الذي ارتأته الوكالة ، فليس ذلك ناجماً عن كفاية المبلغ المخصص او عدمها ، وانما بسبب رفض اللاجئين لذلك كما اسلفت .

ولوكالة الاغاثة مكتب دائم في هيئة الامم المتحـدة ، يتألف من عدد من الموظفين تقوم على رأسه المس مولي فلين Molly Flynn ويتولى هذا المكتب القيام بأعمال السكرتارية وتهيئة الوثائق وطبعها وتوزيعها .

وقد اجتمعتُ اثر وصولي في الاسبوع الاول من كانون الثاني سنة ١٩٥٧ الى الولايات المتحدة بالمستر لا بويس المدير العام للوكالة وبالمس فلين ، كما اجتمعت بممثلي الدول العربية المضيفة وهم : القائمقام صلاح جوهر مندوب مصر في المجلس الاستشاري وعضو الوفـــد المصري ، والسفير عبدالمنعم الرفاعي مندوب الاردن ، والدكتور كريم عزقول منـدوب لبنان ، ورسمنا

الخطة الواجب اتباعها حين عرض تقرير المستر لا بويس السنوي على اللجنة السياسية الخاصة في هيئة الامم .

وفي يوم ٣ شباط سنة ١٩٥٧ عقدت اللجنة اول اجتماعاتها وتلا المدير العام تقريره السنوي بحضور مندوبي الدول الثمانين ، اعضاء الامم المتحدة . وبعد انتهاء الجلسة اجتمع مندوبو الدول العربية ، وقرروا ان يطلبوا الى المكتب الدائم لوكالة الاغاثة تأجيل اجتماعات اللجنة السياسية فترة من الوقت لان قضية غزة معروضة على الجمعية العامة للامم المتحدة ، ولانشغال الوفود العربية بهذه القضية . وهكذا كان ، ولم تجتمع اللجنة السياسية لبحث تقرير المستر لا بويس ومناقشته ، الا بعد انتهاء الجمعية العامة من مناقشة موضوع قطاع غزة وانسحاب اليهود من القطاع . وبعد ان اقرت الجمعية العامة وجوب انسحاب اليهود من القطاع ، اخذت اللجنة السياسية تعقد الاجتماعات صباحاً ومساء يومياً لمناقشة تقرير مدير الوكالة ، واخذ ممثلو الدول الثمانين يدلون بآرائهم في التقرير . ومما هو جدير بالذكر ، ان دول الكتلة الآسيوية الافريقية ودول الكتلة الشرقية الصديقة ، ايدت وجهة النظر العربية في وجوب التعويض على اللاجئين ووجوب عودتهم الى ديارهم واستمرار عمل الوكالة الى ان تتم عودة اللاجئين الى وطنهم السليب ، وقد القيتُ خطابين في اللجنة السياسية بينت فيها وجهة النظر العربية في قضايا اللاجئين واليكم خلاصتها :

قلتُ في خطابي الاول :

« .. ان فرنسة وانكلترة واميركة وسائر الدول المستعمرة هي التي خلقت اسرائيل وهي التي حرصت على تقويتها . وقد ارادت تلك الدول الاستعمارية ومن ورائها دولة اليهود ، ان تتطور قضية فلسطين السياسية حتى تصبح قضية لاجئين وطعام وكساء ومسكن لا غير ، كما ارادوا ان يكون اكثر همّ اللاجئين في ان يجدوا المطعم والملبس ، وان تضمحل آمالهم القومية في بيداء حياتهم المادية القاسية ، وان يتلاشى نور الايمان بعزتهم

ووطنهم من قلوبهم ، ولكن فأل الدول الاستعمارية قد خاب ، وسعيهم قد ضل . وقد استشهدت على قولي هـذا بمقطع لكاتب فرنسي معاصر يدعى « فوشيه » فقد ذكر في كتابه « الدول العربية واسرائيل » ما ترجمته :

« ان العالم المسيحي وسائر الدول المتمدنة، لم تعد تطيق الحالة الكائنة في البلاد العربية الساعية الى ايجاد وحدة بينها والعاملة على محاربة مصالحنا الحيوية واغراضنا الاجتماعية واهدافنا السياسية ، ومن اسمى هذه الاهداف ايجاد دولة اسرائيل ، وقد وجدت هـذه الدولة اخيراً بفضل جهودنا ، وبمسعى رجالات سياستنا ، ولكـــن الدول العربية ومن ورائها الدول الاسلامية ، تسعى جاهدة للقضاء على هذه الدولة الفتية القوية التي نرجو ان يكون لنـا من وراء وجودها اعادة لتنظيم سيطرتنا على الشرق العربي ، وعلى المستعمرات الخاضعـــة لنفوذ الغرب ، ثم ان ما يصرّح به الزعمـاء العرب والقادة المسلمون في شتى المناسبات من ان وجود اسرائيل يقضّ مضاجعهم وانهم سيسعون للقضاء عليها ، امر يجب ان ننتبه له ونعمل على هدم الاحلام العربية » .

هذا ما قاله كاتب فرنسي منذ سبع سنوات بعـد ان وجدت دولة اسرائيل بسنتين . وقد تجلى لنا بوضوح اثر اقوال هذا الكاتب الفرنسي في الغزو اليهودي البريطاني الفرنسي المسلح لقطـاع غزة وقناة مصر وارض سيناء .

ان الامم المتحدة ان ناصرت اسرائيل ، تكون قـد هدمت المبادىء السامية التي وجدت من اجلها والتي يسعى اليها ميثاقها . فمن الواجب عليها ان تعمل على احقاق الحق وطرد الغاصب الظالم ، ولتعـلم الامم المتحدة ان السنين التسع التي مرت على اللاجئين قـد قوت عزائمهـــم وخيبت آمال المستعمرين والصهيونيين ، اذ اثبتت ان الوطنية والكرامة لهما المقام الاول عند اللاجئين وانه لا الجوع ولا العرى والمرض ولا شيء مما يشبه هذا يحول دون عملهم في استنقاذ وطنهم من شذاذ الآفاق ، وان ابصارهم ما فتئت

تتطلع الى ارض الوطن ، وافئدتهم ما تزال تخفق بحبه ، وايديهم ما تزال قوية قادرة على استعمال السلاح لقتال العدو ، وان اسعد ايامهم هو يوم القتال وبذل الروح في سبيل تطهير الارض الطاهرة والبيت المقدس من اوضار الصهيونية القذرة والاستعمار البغيض .

وان الدول العربية لتمد يدها الى الدول الاعضاء في الامم المتحدة تطلب اليهم تأييدها للوصول الى هذا الهدف عن طريق السلام ، فان ابت اسرائيل فان لنا معها شأناً آخر .. »

هذا بعض ما قلت في خطابي الاول . ثم شرعت في مناقشة تقرير المستر لابويس من الوجهة الفنية مما لا مجال لعرضه عليكم ها هنا .

اما الخطاب الثاني ، فقد كان بعد ان القت مندوبة اليهود كلمة حملت فيها على ما جاء في خطاب مندوب مصر القائمقام صلاح جوهر الذي بيَّن الفظائع الوحشية التي قام بها اليهود في قطاع غزة بعد ان احتلوه كما بين المآسي الدامية التي قاموا بها في مدينة غزة نفسها . وقد كانت اقوال القائمقام صلاح جوهر تستند الى تقرير مدير وكالة الاغاثة الدولية المستر لابويس والى تقارير موظفي الوكالة في مدينة غزة ، والى تقارير الهيئات الدولية كالصليب الاحمر والاتحاد اللوثري ، وهي تقارير كتبها جماعة حياديون واثبتتها الوقائع والشهادات الناطقة التي سمعناها هذا الاسبوع بعد ان طرد الصهاينة من قطاع غزة . ولكن المندوبة اليهودية حملت على اقوال المندوب المصري وقالت إنها خيالات لا تختلف عن خيالات الف ليلة وليلة ، وان الاحلام التي تداعب مصر والدول العربية بالعودة الى غزة هي احلام باطلة ، وان العرب في غزة لا يريدون عن الحكم اليهودي بديلاً ، لانهم قد قاسوا من الحكم المصري ويلات شداداً ، ولذلك فهم يرفضون عودة مصر الى القطاع رفضاً باتاً ، الى آخر تلك الاكاذيب .

وقد قلت في ردي على المندوبة اليهودية ما خلاصته :

ان اسرائيل دولة قامت على التلفيق والتزوير ، وان الصهاينة قوم

معروفون بالكذب والتدجيل . وانا على يقـــين من ان حضرات مندوبي الدول الحاضرين قد آمنوا بكل ما قاله المنـدوب المصري لانها كلها تستند الى وقائع وتقارير رسمية . اما تخرصات مندوب اليهود فهي كذب صراح لان الحق يناقضها ، فهل يتصور احدكم ان عربياً واحداً في غزة يرفض حكم اخوته العرب ويستطيب حكم اليهـــود شذاذ الآفاق الذين اذاقوه الوان الذل والهوان ؟ وهل يعقل ايها المندوبون ان يكون العرب في غزة قد قاسوا المذلة والعسف من المصريين ، ولاقوا العزة والكرامة من الصهيونيين !؟ ان هذا ايها السادة هو منطق اخرق بل هو منطق الصهاينة وانهم يقلبون الحقائق ظناً منهم ان كذبهم وتدجيلهم يجوزان على عقول اعضاء هـــذه المنظمة المحترمة ، كما جازا على عقول المغرضين من رجال الدول المستعمرة كالانكليز والافرنسيين . ان اسرائيل ايها المندوبون دولة ظالمة وان الارقام الصحيحة والوثائق الرسمية والتقارير التي اسمعكم بعضهـا مدير الوكالة العام المستر لابويس لتشهد بعدوان هذه الدولة وظلمها وافتئاتها على الحق وامتهانها للشرف والمروءة والعزة والكرامة .

ان مشكلة فلسطين ومأساة اهلها اللاجئين هي في الوقع أعظم مأساة في هذا القرن ، وانها لافظع صورة من صور الاستعمار البغيض ... »

هذا بعض ما قلت في اللجنة السياسية الخاصة . وبعد مناقشات طويلة دامت قرابة عشرة ايام اقرت اللجنة مشروع قرار قدمته مندوبة الولايات المتحدة المس لورد الى اللجنة ، ثم عرض على الجمعيـة العامة فاقرته واليكم خلاصته :

ان الجمعية العامة للامم المتحدة إذ تستعيد الى الذاكرة قراراتها السابقة المتعلقة بشئون فلسطين عامة واللاجئين خاصة « وبعـد ان ذكرت ارقام وتواريخ تلك القرارات » قالت : ان الجمعية اذ تستعيد قراراتهـــا وتأخـــذ علماً بالتقرير السنوي والتقرير الخاص لمدير وكالة الامـــم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتقرير اللجنة الاستشارية للوكالة .

وتستعرض موازنتي الاغاثة والتأهيل اللتين اعدهما مدير الوكالة .

وتأخذ علماً بقلق ، بأن المساهمات الموضوعة لتلك الموازنة لحد الان ليست كافية .

وتأخذ علماً بان اعادة اللاجئين الى ديارهم والتعويض عليهم كما نصت على ذلك الفقرة / ١١ / من القرار رقم ٣ / ١٩٤ لم يتحقق ، وانه لم يحرز تقدم ملموس في برنامج دمج اللاجئين الذي نصت عليه الفقرة / ٣ / من القرار رقم ٦ /٥١٣ وان وضع اللاجئين لا يزال لتلك الاسباب امراً يدعو الى القلق العظيم .

وتأخذ علماً بأن الحكومات المضيفة قد اعربت عن رغبتها في ان تستمر الوكالة في القيام بمهمتها في بلدان تلك الدول ، كما اعربت عن رغبتها في التعاون تعاوناً تاماً مع الوكالة ، وان تقدم لها جميع المساعدات المناسبة التي تمكنها من تنفيذ اعمالها بمقتضى نصوص المادتين ١٠٤ و ١٠٥ من ميثاق الامم المتحدة ، واحكام الاتفاقية المتعلقة بامتيازات الامم المتحدة وحصاناتها ، ومضمون الفقرة ١٧ من قرارها رقم ٣٠٢ / ٤ واحكام الاتفاقيات المعقودة مع الحكومات المضيفة .

١ ـ توعز الى الوكالة ان تستمر في برامجها لاغاثة اللاجئين وتأهيلهم مع مراعاة التحديدات التي يفرضها عليها مدى التبرعات للسنة المالية .

٢ ـ تطلب الى الحكومات المضيفة ان تتعاون تعاوناً تاماً مع الوكالة وموظفيها وتقدم لها جميع المساعدات المناسبة التي تمكنها من تنفيذ اعمالها .

٣ ـ تطلب الى حكومات البلاد المضيفة ان تصمم وتنفذ بالتعاون مع مدير الوكالة المشاريع التي من شأنها ان تتبع اسباب الرزق لاعداد وافرة من اللاجئين دون الاجحاف بما نصت عليه الفقرة ١١ من القرار ٣ / ١٩٤ .

٤ ـ تطلب الى الوكالة ان تواصل مشاوراتها مع لجنة التوفيق الدولية

لفلسطين بما يعود باقصى الفائدة على مهمة كل منها معيرة اهتماماً خاصاً للفقرة ١١ من القرار ٣/ ١٩٤.

٥ ـ تقرر الابقاء على اعتمادات التأهيل وتفوض المدير حسب ما يرتأي ان يصرف ما يتوفر من الاموال الى اية من الحكومات المضيفة للانفاق على مشاريع الانماء الاقتصادي العام ، على ان توافق الحكومة المعنية على القيام ضمن مدة معينة بالاطلاع بالمسئولية المالية لعدد متفق عليه من اللاجئين يكون متناسباً مع تكاليف المشروع وذلك دون الاجحاف بما نصت عليه الفقرة / ١١ / من القرار / ١٩٤ / .

٦ ـ تكرر نداءها الى الهيئات الخاصة للمساعدة على مواجهة الاحتياجات الشديدة لطالبي الاغاثة الجدد كما ذكر في الفقرة ٥ من القرار ٩١٦/ ١٠.

٧ ـ تطلب الى اللجنة المفاوضة الخاصة بالاموال الخارجة عن الموازنة بعد استلام طلب المساهمات من مدير الوكالة ، ان تسعى للحصول على المساعدات المالية اللازمة من الحكومات الاعضاء في الامم المتحدة .

٨ ـ تحث جميع الحكومات على المساهمة او زيادة الاموال التي تساهم بها الى المدى اللازم لتنفيذ برامج الوكالة للاغاثة والتأهيل .

٩ ـ تأخذ علماً بالرضا والارتياح بما اتخذته الوكالة من الاجراءات لمواصلة تنفيذ برنامجها للاجئين في قطاع غزة .

١٠ ـ تعرب عن شكرها لمدير الوكالة وموظفيها لجهودهم الصادقة المطردة في تنفيذ مهمتها وللوكالات والهيئات الخاصة العديدة لاعمالها القيمة والمتواصلة في مساعدة اللاجئين .

١١ ـ تأخذ علماً بان الوكالة عمدت الى تغيير سنتها المالية وجعلها مطابقة للسنة العادية وانه لهذا السبب اصبحت الموازنة الحالية تشتمل على مدة ١٨ شهراً .

١٢ ـ تطلب الى مدير الوكالة ان يستمر في تقديم التقارير المشار اليها في الفقرة / ٢١ / من القرار رقم ٤ / ٣٠٢ .

هذا ايها السيدات والسادة ما قررته الجمعية العامة بخصوص قضية فلسطين هذا العام ، وهو كما ترون اقرار للوضع السابق وتمشية للحالة الحاضرة ، ويجب ان يضـــع المسئولون في ديارنا نصب اعينهم ان الامم المتحدة ستعمل على تصفية قضية اللاجئين خلال سنوات قليلة وانه لن تأتي سنة ١٩٦٠ الا وتكون القضية قد سويت وسيلقى العبء على عاتق الحكومات العربية فعليها ان تتدبر الامر منذ الان وتتدارس لايجاد الحلول العملية بعقد اجتماعات على مستوى عال لتقف امام الدسائس التي يبيتها الغرب لحماية اسرائيل وحل قضية فلسطين على حساب اللاجئين .

وسيجتمع ممثلو الدول العربية المضيفة الاربع : مصر ، والاردن ، ولبنان ، وسورية في القاهرة للبحث في قضايا اللاجئين بصورة عامة ومشاريع التأهيل بصورة خاصة تنفيذاً لمقررات مؤتمر القدس الذي عقدوه مع ممثل الجامعة العربية في الربيع الفائت ونرجو من الله ان يأخذ بيد الجميع لما فيه الخير العام والعمل على استعادة الوطن الحبيب من الغاصب الظالم وطرده منه . واننا لواصلون الى ذلك الهدف ما دمنا سائرين صفاً واحداً مسترشدين باهدافنا القومية ، مسترخصين كل نفيس ونفس في سبيل تطهير ارضنا من بزور الاستعمار والصهيونية ، موحدين جهودنا للقضاء على المستعمرين وتحرير دنيانا العربية جميعها من آثارهم وآثامهم ومعاهداتهم ومحالفاتهم التي فرضوها علينا بالأمس ، او يريدون فرضها اليوم .

المحاضرة التاسعة

ملكوت الانسان

الأديب ميخائيل نعيمة

= القيت بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٧ =

في غمرة المشكلات التي يتخبط فيها عالم اليوم تبدو الانسانية جسماً متهدّماً أينما لمستَه سمعتَ صرخة «آخ». حتى كأنها لم يبقَ فيها عضو سليم غير لسانها. فما من امّة تنام ملء جفنيها، وتتنفس بملء رئتيها، وتتعب وفي قلبها نشيد التعب الخلاّق، وتجني وفي فمها حلاوة الجنى الشهي. بل هنالك أرق وقلق وخوف من سوء المصير. وهنالك أحقاد تغلي وضغائن تفور. وليس من يدري متى تنفجر صواعقَ وبراكين.

وإن سأل سائل عن مكمن الداء اين هو، سمع من الاجوبة ما يضحك ويبكي في آن معاً. فمن قائل إن علة الانسانية في سرطان يدعى الرأسمالية. ومن قائل إنها في ميكروب اسمه الاشتراكية. ومن قائل إنها في جرثومة خبيثة تدعى الشيوعية. ناهيك بالذين يؤكدون كل التأكيد بأن الداء في اختلال الميزان السياسي، او الاجتماعي. والذين يجزمون كل الجزم انه في انصراف الناس عن الدين الى الدنيا. والذين يقولون العكس فيؤكدون كل التأكيد أن جميع بلايا الناس هي نتيجة حتمية لانصرافهم عن الدنيا الى الدين.

في هذه البلبلة الهائلة من الاراء قلما تسمع من يقول للناس:

«أيها الناس. إنّ ما تعانونه من أرق وقلق ومن ضيق في النفس مردّه الى امر واحد. وذلك الأمر هو جهلكم المطبق للانسان وللقوى الهائلة التي تجمهرت فيه، والتي تأبى عليه الانحصار في ايّ من الاقفاص

التي اعددتموها له . فانتم تريدونه آلة للتبذير ، وماكينة لانتاج الغذاء والسلع ، وفزّاعة تحمل بندقية تهوّل بها على الذين يقتربون من حدودكم ، او تقتحم بها حدود جيرانكم . وتريدونه حجراً في بناء ضخم يُدعى الدولة ، ومهرّجاً يسليكم عن اشجانكم ، وفناناً يطرد الضجر من افكاركم ، ومخترعاً يرفّه عن اجسادكم .

« إن مثلكم في ذلك مَثَل الذي يكتفي من البحر بصدَفه أو بحفنة من زبد . او مثل الذي أعطي مدفعاً من عيار ثقيل فراح يصطاد به برغشاً وذباباً ! وانتم لو عرفتم ايّ بحر لا يحدّ هو الانسان ، وما هي العطايا الباهرة التي ينطوي عليها لما اكتفيتم منه بالصدف والزبد . ولو دريتم ايّ طاقة هائلة تكمن في كيانه لسخِرتم بانفسكم تسخرّون تلك الطاقة لصيد الذباب والبرغش . »

اي . عظيم هو الانسان . وعظمته تفوق حدّ تصوره . وهي تقوم لا بما انجزه حتى اليوم من اعمال ، بل بما سينجزه على مدى الزمان . ونحن نلمح تلك العظمة لمحاً من خلال مطامحه التي لا تعرف الحدود . كما نلمح عظمة الرجل في الطفل ، والسنديانة في البلوطة ، والكهرباء في البرق ، والحياة اللامتناهية في كل مظهر من مظاهرها المتناهية . والذي يحجب تلك العظمة عن عيون الناس ـ حتى الحكماء منهم ـ هو انهم يرون الانسان ينتهي حتماً الى الموت ، شأنه في ذلك شأن النبتة والبهيمة . فسليمان بن داود ـ وهو الموصوف بالحكمة ـ يقول في ذلك :

« لأن ما يحدث لبني البشر هو يحدث للبهيمة . وللفريقين حادثة واحدة . كما تموت هي يموت هو . ولكليهما روح واحد . فليس للانسان فضل على البهيمة . لأن كليهما باطل . »

ويقول داود ابو سليمان :

« الانسان ايامه كالعشب . وإنما يزهر كزهر الحقل . هبّت عليه ريح فلم يكن ، ولم يعرفه موضعه من بعد . »

وايوب المعذّب يقول :

« الانسان مولود المرأة ، قليل الايام ، كثير الشقاء . كزهر ينبُت ثم يُقطع ، وكظلٍ يبرح ولا يقف ... البحر تنفَد مياهه ، والنهر ينضُب ويجفّ . والانسان يضجع فلا يهُبّ الى ان تزول السموات . لا يستيقظون ولا ينبعثون من منامهم ... »

ويقول شاعر عربيّ :

« لا تبكِ ميتاً ولا تفرحْ بمولودِ فالميتُ للدودِ والمولودُ للدودِ »

وامثال ذلك كثير في اقوال المتشائمين الذين لا يبصرون من حياة الانسان غير ما امتدّ منها بين المهد واللحد .

أصحيح انّ الانسان والبهيمة سيان في الموت ؟ وللجواب على ذلك لا بدّ من ان نتبين الفوارق بينهما في الحياة . وسواء أقلنا مع القائلين بتحدّر الانسان من الحيوان ، أم آمنّا مع المؤمنين بانه خلق مستقل عن الحيوان ، فالأمر الذي لا شك فيه هو أنّ الانسان يشبه الحيوان الى حدّ بعيد من حيث تركيبه الجسدي ومن حيث الغرائز التي تسيطر على الكثير من حركاته وأعماله . إلاّ انّ هنالك فوارق هي في منتهى الأهميـة . وهي التي تخلع على الانسان جلالاً وقيمة وعظمة ليست للحيوان . واهمّها العقل والخيال والوجدان والارادة . وهـذه كلها قوىً خلاقة ليس الحيوان منها بشيء . ومقدرتها على الخلق لا تعرف الحدود .

الحيوان اتكالي في معيشته . واتكاله على الغريزة التي لا يستطيع ان يبدل فيها شيئاً . اما الانسان فـي مستطاعه ان يبدل في غريزته بما اوتيه من قوة العقل والخيال والوجدان والارادة . وذلك الى ما لا نهاية له ، كأن يفرض على نفسه الصوم وهو جائع ، والطعام في متناول يديه . وأن يلجم عاطفته الجنسية ، وإرضاؤهـا قريب وميسور . وأن يكبح ثورة غضبه فلا يبطش بعدوه وإن كان واثقاً من تفوقه عليه .

تبني النحلة بيتها بنياناً هو آية في الدقة والهندسة . ولكنها هندسة ما تغير فيها شيء منذ ان كان النحل . اما الانسان فلا نهاية للاشكال الهندسية التي ابتدعها ويبتدعها في بناء مساكنه ومعامله ومعاهده ومعابده .

ويغني البلبل غناء فيه منتهى الانسجام والعذوبة . ولكنه يغني كما غنى اسلافه بالتمام منذ آلاف آلاف السنين . اما الانسان فلا حصر للانغام التي يرسلها من حنجرته او من الآلات الموسيقية التي ابتدعها .

ولا حاجة لحشد الامثلة . فالقصد ان نعرف منها ان الانسان الذي يتكل على قوىً تخضع لارادته هو غير الحيوان الذي يتكل على قوىً لا سلطان له عليها البتة . لذلك كان الحيوان غير مسؤول عن اعماله ، واصبح الانسان مسؤولاً .

والمسؤولية هذه تنطوي على حسابٍ عن كل ما يقوله الانسان ويعمله ، حتى عن كل ما يفكر به ويشتهيه . فهو في كل ذلك يؤثر في الغير ويتأثر بالغير . والحساب الجاري بغير انقطاع بينه وبين باقي الناس وسائر المخلوقات بعضه له وبعضه عليه . اما الذي له فلن يستوفيه غيره . واما الذي عليه فلن يسدده غيره . وليس من الناس من يدركه الموت وقد استوفى كل ما له ودفع كل ما عليه . فمنذا الذي يسدد عنه حساباته بعد الموت ؟

ثم ان الانسان ما أودع موهبته التفكير والتخيل والضمير والارادة ليتلهى بها ، بل ليستعملها الى أقصى حدودها . وحدود هذه المواهب هي المعرفة التي لا يفوتها علم شيء ، والحرية التي لا يعاندها معاند . وجلي ان الانسان ، كما نعرفه اليوم ، لا يزال بعيداً عن تلك المعرفة وهاتيك الحرية . أوَ ليس في ذلك الدليل على انه لم يتقن بعد استغلال مواهبه الى آخر حدودها ، وأنه لا يبرح في الطريق الى هدفه ؟ وإن هو لم يدرك هدفه قبل ان يدركه الموت ، فمتى وأين يدركه ؟ وما نفعه من مواهبه الجزيلة اذا هو لم يعطَ الفسحة الكافية من الزمان لاستثمارها ؟ بل ما نفع الواهب ـ او ما قصده ـ من إغداق تلك المواهب على الانسان ما دام الانسان لا يجد

من عمرهِ متسعاً إلا لاستثمار جزء ضئيل ـ وضئيل جداً ـ منها ؟

يُقال إن أقصى ما يستعمله حتى العباقرة من طاقة ادمغتهم لا يتعدى الخمس من الواحد بالمئة . ومعلوم اننا لا نستعمل اكثر من عشرين بالمئة من قدرة التنفس فينا . اما الطاقة التي في دمائنا فمعظمها يُهدر هدراً في ساعات النوم والخمول والذهول والتراخي والانقباض النفساني . وهذه الساعات تكاد تستغرق القسم الاكبر من العمر .

أنقول إن الحياة حمقاء إذ وهبتنا فوق حاجتنا بكثير ؟ ام نقول إننا نحن الحمقى إذ نحسب ان الحياة تبتدىء في المهد وتنتهي في اللحد ؟ حقاً إنه لفي منتهى الغرابة أن تجود علينا الحياة بمواهب يستغرق استثمارها الزمان كله ، ثم ان تكون شحيحة الى حد ان لا تفسح لنا لاستثمارها غير حفنة من السنين المشحونة بالاوجاع والشك والحيرة ! ..

وهنالك ، فوق ما ذكرت ، تلك المجاعة التي ما برحت تجتاح قلب الانسان منذ ان كان الانسان ـ المجاعة الى المعرفة ، والحق ، والجمال ، والعدل ، والسلام ، والطمأنينة ، والحرية والخلود . فهذه كلها ليست مفردات في القاموس لا اكثر . انها لمن صلب الحياة ولبها .

ولولا أنها حقائق تُرجى لما شعرنا بالمجاعة اليها . فالحياة ما جعلت بهيمةً تجوع الى نوع من الغذاء الا خلقته لها وأعطتها القدرة للوصول اليه . اتكون الحياة اشد رأفةً بالبهيمة منها بالانسان ؟ لا . ثم لا . ففي جوعنا الى الحق الذي يحررنا من الباطل لدليل على انه موجود ، وعلى اننا في سبيلنا اليه . ولكننا ، في الغالب ، نبلغ حافة القبر فلا نبلغ الحق ولا نبلغ نهاية جوعنا اليه ؟ وما معنى جوعٍ نحمله معنا حتى القبر ان لم يكن له ما يشبعه وراء القبر ؟

ليس قصدي من هذه الجولة القصيرة أجولها واياكم في دنيا الانسان ، ومن هذه الاسئلة اطرحها عليكم الا ان ابيّن لكم من اقرب السبل ان هذا الكائن العجيب لاعظم بكثير مما يبدو للبصر الحسير والخيال القصير .

فما هو بما بان منه ، بل بما استتر . والذي استتر منه هو من معدن رباني لا يقوى عليه الموت ، ولا يحصره مكان او زمان .

اما قيل ان الانسان صورة الله ؟ وهو قولٌ حق . والله الذي هو الحياة ليس بما ظهر منه للحواس بل بما تحجب عنها . فهذه الاشكال التي لا يحصرها عد ، والتي تتجسد فيهـــا الحياة ، ليست الحياة . ان هي غير الهياكل التي تسكنها الحياة بعض الزمن لتتجلى بهـــا وفيها للكائنات التي ما برحت في عالم المحسوسات فلا تستطيع أن تشعر بالحياة الا عن طريق الحسّ .

أما قال السيد المسيح : « ملكوت الله في قلوبكم » ؟ وهـو قولٌ حق كذلك . فالملكوت يفرض وجود مَلِك لا منـــازع له في ملكه . والعالم المنظور وغير المنظور هو ذلك الملكوت والله هو مالكه بدون منازع . وذلك الملكوت هو في قلب الانسان . فالانسان اذن مُعد لأن يملك مع الله . الا انه ، قبل ان يستحق ذلك المجد الذي يفوق حد التصـــور ، مدعوٌ لتطهير نفسه بالألم في دنيا الخير والشر . فما من مطهر غير الألم . وما من معرفة بغير طهارة . وما من مُلك بغير معرفة .

والآن اذا عدنا الى المحن الـــتي عانتها البشرية في ما مضى ، والتي تعانيها اليوم وجدنا انها تعود ، في الاساس ، لا الى ما يتوهمه رجال السياسة والاقتصاد والاجـــتماع والحرب والدين ، بل الى ان الناس يجهلون قيمة الانسان ومكانته في الكون وهدفه من الوجود وهدف الوجود منه ، مثلما يجهلون ان الوصول الى ذلك الهدف لا يتم الا بالتطهر ، وان التطهر لا يكون الا بالألم . وخير الالم ما فهمنا الغاية منه ، فتقبلناه عن رضى . وشر الالم ما اسأنا فهمه فحاولنا الهرب منه وكنا كالهاربين « من الدب الى الجب » او « من الدلفة الى تحت المزراب » او كنّا « كالمستجير من الرمضاء بالنار » . فالتطهير نقوم به نحن بملء ارادتنا هو غير التطهير يفرض علينا فرضاً .

لذلك كانت القوانين بانواعها ، من أرضية وسماوية ، عديمة الفائدة الا للذين فهموا الغاية منها فتقبلوها وامتثلوا لها عن وعي وادراك وبملء ارادتهم . امّا الذين رضخوا لها خوفاً من عقاب او طمعاً بثواب فاولئك لن يجدوا فيها غير قيود كريهة لابدانهم وارواحهم . فنفعهم منها ضئيل وبطيء .

ولان الناس يجهلون الغاية من وجودهم فهم يجهلون كذلك الغاية التي من اجلها وهبتهم الحياة مقدرة التفكير والتخيل والارادة والتمييز بين الخير والشر . ولو أنهم فهموا الغاية من هذه المواهب لراحوا يستثمرونها لخيرهم وخير جميع الكائنات بدلاً من ان يبذروها في ما يهلكهم ويهلك الكائنات ، ولكانت هذه المواهب المفتاح الذي به يلجون الملكوت المعدّ لهم منذ الازل ـ وهو ملكوت المعرفة الكاملة ، والقدرة اللامتناهية ، والحرية القصوى ، والحياة التي لا ينال الموت منها منالاً .

لو فهم الناس غايتهم من وجودهم لكانت حياتهم على الأرض حياة تعاون وتآخٍ وتحابب بدلاً من ان تكون حياة تنابذ وتنافر وتباغض ، ولادركوا أنّ كل إنسان مطالب بكل الناس ، وأن كلّ الناس مطالبون بكل إنسان . فخير الواحد خير الجميع . وخير الجميع خير الواحد .

ومَن من الناس ، إذا فكر قليلاً ، استطاع أن ينكر فضل كل الناس عليه في كل لحظة من وجوده ؟ اتحسبون ان اجسادكم تحيا بما تقدمونه لها انتم من قوت وكساء ومأوى ؟ انها لتحيا بما يقتات ويكتسي به كل إنسان ، وانها لتسكن كلّ مأوى من مآوي الناس . ومن منكم يدري بماذا يقتات ويكتسي واين يعيش كل الذين حرثوا وزرعوا وحصدوا فكان لكم القوت ؟

وكل الذين غزلوا ونسجوا فكان لكم ما تلبسون ؟ وكل الذين عملوا وهندسوا وبنوا فكان لكم مسكن تأوون اليه ؟

أم تحسبون أنكم تسلكون سبيلكم في الحياة بعقلكم وخيالكم ووجدانكم وارادتكم لا غير ؟ انكم لتسلكون سبيلكم بعقول كل الذين سبقوكم وعاصروكم وبخيالهم ووجدانهم وارادتهم . فلولاهم لما كان لكم سبيل تسلكونه .

إنكم عندما تركبون سيارة او طيارة او اية وسيلة أخرى من وسائل النقل لا تقطعون الطريق بعيونكم وخبرتكم وقدرتكم الجسدية والفكرية بل بعيني السائق وخبرته وقدرته الجسدية والفكرية .

كذلك هي حالكم مع الناس في كل خدمة يقدمونها لكم . فعيونهم إذ ذاك عيونكم ، وايديهم ايديكم ، وارجلهم ارجلكم ، ومثلها عقولهم ومشاعرهم وارادتهم ولحومهم ودمائهم . فكأنكم كلما اتكلتم على احد الناس في حاجة من حاجاتكم تستعيرون ذلك الانسان بكامله لقضاء حاجتكم . وعندئذٍ فهو انتم ، وانتم هو .

و ماذا اقول في الذين يعصرون انفسهم في كتاب فتقرأونه وتسمن ارواحكم بذلك العصير ؟ وفي الذين يذيبون قلوبهم في لحن من الالحان فتسمعونه وتنتشون ؟ أو في الذين يجازفون بحياتهم ليكشفوا لكم الحجب عما تجهلون ، او ليفكوا قيداً من القيود الكثيرة التي بها تتقيدون ، او ليدرأوا خطراً من الاخطار التي لها تتعرضون ؟ اليس كل هؤلاء نوراً في ابصاركم ، وقوةً في عضلاتكم ، وسلاحاً تشقون به طريقكم الى الملكوت الذي به تحلمون ؟ فكيف بهم تكفرون ومنهم تتبرأون ؟ كيف تقولون : هم غير نحن ، ونحن غيرهم ؟ ثم كيف ؟ في لمحة الطرف ، تنقلبون عليهم فاذا بهم اعداؤكم ، واذا بكم لا تستطيبون شيئاً مثلما تستطيبون سفك دمائهم ، وتخريب ديارهم وتركهم في ساحة القتال طعاماً لبنات آوى وللغربان ؟ ذلك هو منتهى الكفر بالجميل ، بل منتهى الجهل والعمى ، بل منتهى العداوة لانفسكم لو تعلمون .

ثم ماذا اقول في الطبيعة وما تنثره عليكم مدى العمر من آيات

الجمال ، ومن دروس تشحذ الفكر والوجدان والارادة والخيال ؟ ماذا اقول في خرير الجداول ، وصرير الجنادب ، وشدو العصافير ، وهينمة النسائم ، ورقصة الأعشاب والأغصان ، وانسياب السحاب والضباب ، وهدير البحر ، وزرقة السماء ، وتلألؤ الطلّ ، ورهبة الاغساق والاسحار ، وهيبة الشموس والأقمار ؟ وهل من الناس من يستطيع ان يقدّر تأثير هذه كلها في حياته ؟ فكيف تتبرأون من الطبيعة وهي في لحومكم ودمائكم ، وفي قلوبكم وافكاركم ؟

انها لفطرة ربانية ان يحب الانسان ذاته . وما دامت ذات الانسان تتصل اتصالاً لا انفصال فيه بكل ذات بشرية ، ثم بكل ما في الكون ، فقد أصبح من المحتم عليه ان يحب كل إنسان وكل شيء اذا هو اخلص المحبة لذاته . والا كانت محبته لذاته ينبوع آلام وأوجاع لا تنتهي الى ان تصبح ذاته شاملة شمول ذات الله . فالله وحده محبته صافية لانه يحب ذاته ولأنّ ذاته في كل ذات . وكل دينٍ في الارض تتسع تعاليمه ، ولو لذرة من البغض لا يمكن ان يكون من الله .

لست بجاهل ان الناس لا يزالون بعيدين جداً عن المحبة الشاملة التي هي محبة الله لذاته . ولا عجب في ذلك . فهم ما برحوا في عهد الطفولة ، وفي اول الطريق . والذين بلغوا منهم سن الرشد ونهاية المطاف لا يكاد عددهم يتجاوز عدد الاصابع في اليدين . اولئك هم المستنيرون الذين بنورهم نستنير . على انه يليق بالناس ، وان كانوا من غباوة الطفولة حيث هم ، أن يعرفوا في الاقل ان المحبة الشاملة هي الهدف المقام لهم في حياتهم ، والملكوت المعدّ لهم منذ الازل . وان كل هدفٍ سواها لن يكون غير سراب في سراب ، وكل ملكوت إلاّ ملكوتها مصيره للزوال . وحسبهم أن يقيموها هدفاً لحياتهم ، وأن يسددوا اليها خطاهم لتنقشع رويداً رويداً عن ابصارهم وبصائرهم تلك الغمامة التي تبدو من خلالها حياتهم كما لو كانت سلسلة مشكلات ومعضلات وأوصاب وأوجاع لا معنى لها ولا خير فيها .

قد تعجبون لقولي إن الانسانية ما برحت من حياتها في عهد الطفولة . وهنالك من يُقدر عمرها على الارض بعشرات الآلاف من السنين . مثلما هنالك من يقدره بمئات الملايين . ليكن كذلك . فالأمر الذي لا شك فيه هو ان هذه الانسانية ، باكثريتها الساحقة ، لا تزال تتكل في تسيير امورها على غرائز البهيمة فيها لا على العقل والخيال والوجدان والارادة — وهي القوى التي سلحتها بها الحياة لتنهض بواسطتها من البهيمة الى الانسان ، ثم من الانسان الى الله . ولان ذلك هو هدفها من وجودها . فهي ، بالنسبة اليه ، لا تزال في طور الطفولة . وصراعها في سبيل التغلب على الغريزة لايزال في مراحله الاولى . وهو صراع مرير وطويل . إلاّ ان عقل الانسان عنيد . وأعند منه ارادته . فلا كل أصناف الاوجاع والمحن — ولا الموت — بقادرة أن تقهر عناد عقله وارادته . ولذلك ما رفع الراية البيضاء بعد ، ولن يرفعها . بل الغريزة التي هي سترفعها في النهاية .

ولان القلب هو الحصن الذي فيه تتحصن ومنه تنطلق جميع الغرائز التي تستعبد الانسان ، فقد بات لزاماً عليه ، اذا هو شاء الحرية ، أن يعلنها حرباً ضروساً على قلبه ، لا على أخيه الانسان الذي هو حليفه ونصيره الاكبر في حربه . ولا على ايّ الكائنات ، وكلها يمده بالمعونة . وحرب الانسان مع قلبه تعني ترويض ذلك القلب في كل يوم ، بل في كل ساعة على كبح كل شهوة من شأنها ان تفسد علاقاته مع نفسه ومع الكون فتعرقل بذلك خطاه نحو هدفه . ولا يقولنّ قائل إن الكبت عاقبته الانفجار ، فالشهوات ، كغيرها ، تموت وتنقرض اذا انقرض بذارها . وينقرض بذارها اذا انقطع عنه الغذاء ولم يجد تربة صالحة واحوالاً موائمة لنموّه .

إلا ان الناس لاهون بترويض عقولهم عن ترويض قلوبهم . ومن هنا هذا الغيض العظيم من العلوم والاكتشافات والاختراعات ، وهذه الفوضى الهائلة من الشهوات الجامحة التي تعود فتفسد على الناس جميع ما تنتجه عقولهم .

ومن هنا هذه الاحن والأزمات والمشكلات التي فيها يتخبطون والتي تزداد بشاعة وتعقّداً من يوم ليوم. واذا بهم يهتفون من اعماق قلوبهم: نريد شبعاً، ونريد سلماً، ونريد عدلاً، ونريد محبة، ونريد معرفة، ونريد حرية. ولكنهم على غير الجوع والحرب والظلم والكره والجهل والعبودية لا يحصلون.

ليت شعري، كيف يشبع من يجيع جاره؟ وكيف يعرف السلم من لم يطهّر دمه من شهوة القتل؟ والعدل من تأصل الظلم في طباعه؟ والمحبة من أباح قلبه للبغض؟ وكيف يبلغ المعرفة من يجهل ان عين جاره عينه؟ والحرية من كان عبداً للبهيمة في نفسه؟ ان ذلك هو المستحيل بعينه. والناس يحاولون المستحيل كلما طلبوا الراحة ورغد العيش بقلوب شهواتها السود تغلي وتفور بغير انقطاع. وهم يبتغون المستحيل إذ يبتغون بنيان مجتمع بشري أمثل من بشر ما تنقّت قلوبهم بعد من ادران الغريزة الحيوانية.

لقد حاول الدين ان يصلح أمر الانسان. فجاءه بالكثير من النواهي من نوع: لا تقتل. لا تزنِ. لا تشهد بالزور. لا تشتهي ما لجارك، وغيرها وغيرها. وكان يرمي من وراء هذه كلها الى التمكين للانسان من الغلبة على غرائز البهيمة فيه وذلك بترويض قلبه على العفة، والصدق، والصفح، والمحبة. ولكنه ما بيّن للانسان الغرض من هذه الرياضة القلبية اكثر من قوله ان الناجحين فيها يُثابون بعد الموت بالجنة، والمخفقين يعاقبون بنار جهنم. اما انهم جميعهم بذار إلهي، وانهم ما وُضعوا في دنيا الخير والشر الا ليتيحوا لذلك البذار ان ينمو حتى يملك جميع قواه الالهية، فذلك ما لم يقلد لهم الدين. لذلك لم تفعل نواهيه فعلها إلا في الذين تملكهم الخوف من العقاب او الطمع في الثواب. والنهي عن ايّ أمرٍ لا يكون له تأثيره الاكبر الا اذا صدر عن عقل المنهيّ ووجدانه فانصاع له بارادته انصياع من يعرف الحقيقة للحقيقة، لا انصياع الخائف من عقاب او الطامع في ثواب. فالحقيقة هي ثواب الحقيقة.

وكان من ذلك ان القائمين على الدين، لشدة خوفهم على خلاص المؤمنين، اخذوا يضيّقون على افكارهم بالاضافة الى التضييق على قلوبهم. فكانت دوائر

التفتيش . وكان اضطهاد رجال الفكر في كل مكان . ولكنَّ الفكر تغلَّب في النهاية على مضطهديه فاستردَّ حريته . واذا استرد الفكر حريته استرد القلب حريته كذلك ، وما كان له ان يستردَّها . فالقلب تقتله الحرية ، والفكر تقتله العبودية .

وها نحن نشهد اليوم عكس ما يجب ان يكون بالتمام . فقد عاد الناس يضيقون على الفكر من كل جانب ، اما القلب فتركوا له الحبل على الغارب واطلقوا العنان، ولعلهم يصحون من سكرتهم، فيعكسون اتجاههم، والا فمصيرهم قتاد وقتام.

وتفادياً لمثل ذلك المصير علينا افراداً وجماعات ، أن نعمل كلٌّ على قدر طاقته لنرد للانسان كرامته ، ولنذكّره بهدفه ، ولنصوّب خطاه اليه . فهدفه هو الوصول الى الملكوت المعدَّ له منذ فجر الزمان .

ولا يقولنَّ احد : مَن انا لافعل ما عجزت عن فعله الاجيال ؟ فعينٌ واحدة نيّرة تنير الطريق لالف أعمى . وقلب واحد تصفّى من ادرانه لكفيل بتصفية قلوب كثيرة . ودرهم من المثال الصالح لخير من قنطار من الوعظ الجميل ، ونحن مطالبون كلنا بتخفيف ما حولنا من ذعر وتشويش وقلق . وهذه لن يطردها من قلوب الغير غير القلوب المطمئنة الى هدفها والمؤمنة بقدرتها على بلوغه . فلنطمئن الى الهدف ، ولنؤمن بقدرتنا على بلوغه ، وليكن الموت غلتنا بدلاً من ان نكون غلة الموت . فنحن من معدنٍ لا يصدأ ، ومن نور لا يخبو، ولنا الزمان وما انطوى عليه ، والمكان وكل ما فيه .

ميخائيل نعيمه

المحاضرة العاشرة

أهمية الكتلة الآسيوية الإفريقية في هيئة الأمم المتحدة

الدكتور منذر الدقاق

= ألقيت بتاريخ ٥ / ٥ / ١٩٥٧ =

المقدمة

في كل مرة ، أقف فيها لأتحدث في موضوع سياسي ، أجد موقفي صعباً ... وليس من السهل على طبيب ان يتحدث في السياسة ... وعلى الاخص اذا أحب مهنته وأخلص لها ... انما قد دفعتني ظروف الغربة المديدة التي قضيتها في اوروبا والولايات المتحدة ، ان انمي لدي نوعاً من الهواية الشاذة ... وكانت الغربة ، المناسبة التي جعلت مني مراسلاً في باريس ولندن وواشنطن ، اكتب باستمرار خلال سنين عديدة متتبعاً الحوادث والتطورات الدولية ، وكان ان رافقت اعمال عدة دورات في هيئة الامم المتحدة ، في باريس ونيويورك بين اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٤ ... واتاح لي هذا النشاط المتواصل ، الحصول على ثقافة سياسية متواضعة هي الاصل في كتابة حديثي اليوم ... فلقد تتبعت السياسة الدولية السنين الطوال ، وتابعت التطورات السياسية عن قرب في انديتها ومؤتمراتها ومنظماتها ... فقد يحق لي ان اتحدث في هذا المضمار ، السياسي بعد ان اخلصت لاختصاصي الطبي كل الاخلاص ، وخصصت له الكثير من محاضراتي العامة في الحلقات والمؤتمرات الطبية .

ومن اخلص لاختصاصه ومهنته فاحبه وعمل الكثير من اجله ، يجد المتعة في ان يحقق شيئاً من هوايته التقليدية ، ولكل منا هواية تصطف الى جانب مهنته في الحياة ... ومن الافضل ان تعود هذه الهواية

الى نفع عام اذا ما عمل المرء الكثير في حقلها ، لهذا سأسعى ان اتحدث الليلة عن بعض التفاصيل السياسية والتحليلات الدولية التي تقدم عليها الكتلة الآسيوية الافريقية ، وهي قوة عالمية جديدة قلبت مفاهيم السياسة العالمية واصولها التقليدية ، واوقفت شطط المستعمرين على النحو الذي رأيناه ابان العدوان على مصر ، وخلقت شيئاً من الهيبة العالمية يتمتع بها الضعفاء ، الاقوياء ، ويخشاها الاقوياء ، الضعفاء بمبادئهم الاستعمارية الاستغلالية .

ولادة ونشوء الكتلة الاسيوية الافريقية

يقوم في هيئة الامم المتحدة ، نوع من التجاوب السياسي في المعترك الدولي يقسم الدول الاعضاء الى كتل وجهات ... وفي السنين الاولى لهيئة الامم تآلفت اصوات بعض الدول الآسيوية والعربية خلال ابحاث هيئة الامم واتفقت وجهات نظر هذه الدول على كثير من القضايا الدولية ... وكانت الدول العربية الست الممثلة في هيئة الامم قبل عام ١٩٥٠ وهي سوريا ، مصر ، لبنان ، العراق ، المملكة العربية السعودية ، اليمن ... كانت هذه الدول تتآخى مع سبع دول اسيوية وافريقية في النقاش والتصويت وهذه الدول الآسيوية السبع هي الهند ، الباكستان ، بورما ، افغانستان ، اندونيسيا ، ايران ، الحبشة ... وكان هذا التآخي الاصل في تكتل دولي داخل المنظمة العالمية ، ولم تبدأ هذه الدول بتنسيق نشاطها وتوحيد اهدافها وتوجيه اعمالها الا في دورة عام ١٩٥١ في باريس حيث اتخذت موقفاً موحداً في قضية مراكش ثم تذاكرت في قضية تونس الى ان رفعتها الى مجلس الامن ... وكانت هذه الدول متفقة على رأي واحد حول القرارات التي صدرت عن الهيئة في تلك الدورة ، مما عرقل الكثير من التطبيق الاميريكي المعتاد لاعمال منظمة الامم .

كانت دول الكتلة الآسيوية الافريقية في عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٢ تتبادل الآراء حول مختلف القضايا المعروضة على هيئة الامم ، ويتذاكر مندوبوها في الموقف الذي يحسن اتخاذه ، ثم ما لبث ان تبلور نشاطها

في عام ١٩٥١ على اساس تكوين جبهة واحـــدة ... وصدر كثير من القرارات في ذلك الحين مخالفاً لما اراده الامريكيون والروس على السواء ... وكانت اصوات الكتلة الآسيوية الافريقية كافية في اكثر الاحيـان لعرقلة اكثر التوجيهات الاميريكية في الهيئـــة فأجمت الاوساط الدولية الرسمية والصحافية في ذلك الوقت على التساؤل : « هل افلتت هيئة الامـــم من قبضة الولايات المتحدة ؟ » وكان نشاط الكتلة يتجاوز الدورة السنوية اذ يتابع مندوبو دولها الاتصال بصورة مستمرة دائمة للبحث في اجتماعات دورية عن القضايا التي تخص آسيا وافريقيا والعالم ، وقد دعا نشاطها هذا كافـة عناصر المنظمة العالميـة الى اقامة الحساب دائماً لكتلة واحـدة كانت مؤلفة من (١٣) عضواً ... وفي البدء ، كانت جهود الكتلة تنتهي الى الفشل في كثير من القضايا التي خاضتها ... ولكن هـذا العنصر السلبي لم يؤثر في نفوذها الادبي ، وعلى العكس فان متابعتها العمل رغم السياسة الغربية المعاكسة المنظمة قد جعل الدول تؤمن اخيراً ان الكتلة الآسيوية الافريقية عازمة على التأثير بما لها من نفود ، ورأينا الدول الغربية تذعن لتأكيدات الكتلة في كثير من المواضيع .

ثم جرى اول اجتماع لاعضاء الكتلة العربية الآسيوية خارج نطـاق هيئة الامم وذلك في القاهرة في اواخر عام ١٩٥٢ ، وكان هذا الاجتماع لبحث الاسس التي تراها الكتلة ملائمة لمتابعة سياستها الرامية الى خلاص افريقيـا الشمالية من الاستعمار الافرنسي ... ونال هذا الاجتماع اذ ذاك صـــدى كبيراً في الاوساط السياسية الغربية وعلى الاخص في الاوساط الاميريكية منها ، واتضح ان نشاط هذه الهيئة الدولية الجديدة يعدو نطاق هيئة الامم الخاضع لانظمة دولية عامة ، وانه يتمتع بذاتية خاصة لا تعود الى جدران المنظمة العالمية .

وتطور دور الكتلة الآسيوية الافريقية واتسع نشاطها منذ ان دخل هيئة الامم في العام الماضي اعضاء جدد ... وكان قبول عدد من الدول الآسيوية والافريقية في المنظمة سبباً في تقوية نفوذ هـذه الكتلة العالمية ،

وهو ما اضعف بصورة غير مباشرة كتلة امريكا اللاتينية التي تعد عشرين دولة والتي لا يمكن ان تزيد .

في عام ١٩٥٧ اصبح عدد اعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية (٢٨) عضواً بعد ان كان ثلاثة عشر في بدء تكتلها ... فاذا ما تم قبول مانغوليا والملايو وغينيا الجديدة والساحل الذهبي فان هذه المجموعة الآسيوية الافريقية تصبح اقوى كتلة اقليمية في هيئة الامم وتسيطر على الكثير من اتجاهاتها .

فدخول اكثر من عشرين عضواً دفعة واحدة الى المنظمة في عام ١٩٥٦ اضاف اليها عنصراً هاماً واساسياً حمل الكثير من الصعوبة الى سياسية التواطؤ التي اعتادت ان تجري عليها بعض الكتل في هيئة الامم .

ولقد تعمدت الكتلة الآسيوية الافريقية ابعاد اسرائيل والصين الوطنية عنها ولهذا الابعاد مغزى بعيد فهو يعني ان الاكثرية العظمى من سكان الارض لا ترضى عن اسرائيل ، وهذا يعني ايضاً ان هذه الاكثرية لا تعترف بأية سلطة دولية للصين الوطنية في مضمار السياسة الآسيوية .

ولقد كانت الكتلة الآسيوية الافريقية قبل عام ١٩٥٥ ، تجامل الكتلة الغربية في كثير من الاتجاهات السياسية ، فرأينا مصر والهند تقفان موقفاً معتدلاً للغاية في القضية الكورية ، إلا انه مع ازدياد اعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية ، ازداد الاتجاه نحو موقف حيادي وسط بين المعسكرين واصبحت هذه الكتلة أقل مسايرة للسياسة الاميركية ، واكثر قبولاً لجمع اصواتها مع الكتلة الشرقية في كثير من القضايا التي تخص العالم الاستعماري الغربي .

فبعد ان بلغ عدد اعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية (٢٨) صوتاً ، اصبحت هذه المجموعة تتمتع بأصوات اكثر وبنفوذ اقوى من الكتلة الاميركية اللاتينية التي لا تعدو عشرين دولة . فان التطور العددي الجديد واتساع الكتلة الآسيوية الافريقية قد حمل الى الموقف في الولايات المتحدة الكثير من الضعف .

وكان من جراء هذا التطور ان اصبح الاتجاه في هيئة الامم نحو نشاط الهيئة العامة وابعاد جل القضايا في مجلس الامن حيث يلعب الفيتو دوره وحيث لا تتمتع الكتلة الآسيوية الافريقية بأي نفوذ عملي لاقرار سياستها .

أهمية وفعالية الكتلة الآسيوية الافريقية بالنسبة للكتل الاخرى في هيئة الامم :

كي ندرك مدى فعالية الكتلة الآسيوية الافريقية ، لا بدّ من مقارنتها مع فعالية الكتل الاخرى ، فالكتلة السوفياتية متماسكة متضامنة الا ان اصواتها التسع « الاتحاد السوفياتي ، اوكرانيا ، روسيا البيضاء ، بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، البانيا ، هنغاريا ، بلغاريا » .

لا تحل الى هيئة الامم اي تأثير نهائي ، ودورها الخاص ينتهي عند الخطب والاقتراحات الفاشلة غالباً ... أما الكتلة الاميركية اللاتينية فهي قليلة التضامن والتعاون الا انها فعالة مؤثرة ... وما تقدمه من توصيات يلقى اكثرية من اكثر الأحيان ، وهي تلقي توجيهات الولايات المتحدة في اغلب المواضيع .

ثم تأتي الكتلة الاطلسية ، وهي مجموعة دول حلف الاطلسي ، وقد تآلفت فيما بينها الى حد بعيد ورأيناها غالباً تغوص في خضم تجاهل وهضم حقوق الشعوب المستعمرة ، وعرفت هذه الكتلة بعض التنابذ والاختلاف ، وذلك ابان العدوان الثلث على مصر ، وقيل ان الاختلاف مصطنع وان الكتلة تقر ضمناً العدوان .

وكان من نتيجة قبول اعضاء جدد أغلبهم من آسيا وافريقيا ، في المنظمة العالمية ان ضعفت الكتلة اللاتينية ، وتبعثرت الجهود الموجهة للكتلة الاطلسية ، وقويت الجبهة الآسيوية الافريقية المناوئة لكل سياسة استعمارية .

وفي كل بحث لمشكلة تخص السياسة الاستعمارية للكتلة الغربية ، ينضم الى الكتلة الآسيوية الافريقية ، اصوات الكتلة السوفياتية وهي تسع وصوت

يوغوسلافيا واصوات اسكندنافيا وهي اربع : السويد والنروج والدانمارك وايرلندا . ويضاف الى ذلك صوت فنلندا التي لن تعاكس الروس في السياسة العالمية لانها ترى ضرورة المحافظة على حسن الجوار .

وعلى الرغم من ان تركيا بلاد اسيوية ، فقد اعتادت ان تصوت مع الدول الاستعمارية ، وهكذا فان اصوات الكتلة المناوئة للاستعمار تبلغ اثنان واربعين صوتاً من اصل ٨١ (٢٨ كتلة افريقية آسيوية ، ٩ كتلة سوفياتية + ١ يوغوسلافيا + ٥ اسكندنافيا وفنلندا) وهو كاف لادخال أية قضية في جدول الاعمال .

واذا ما اراد هذا التكتل الشامل التصديق على توصيات او قرارات فانه يحتاج الى اكثرية لا تقل عن الثلثين ، أي ٥٤ عضواً ، وهذا يعني ان لا بد له من الاستعانة ببعض اصوات الكتلة الاميركية اللاتينية لجمع ٥٤ صوتاً اي الثلثين .

ومن طرف آخر ، فان اصوات الكتلة الاميركية اللاتينية مع الولايات المتحدة اذا ما أضيفت الى اصوات اوروبا الغربية واصوات الدول البيضاء في الكومونولث البريطاني — حسب تعبير الصحف الاميركية — ان هذه المجموعة تعدو الثلث ، أي ان باستطاعتها ايقاف القرارات ومنع التصديق عليها في هيئة الامم اذا ما ارادت ذلك .

ولكي تدرك الولايات المتحدة غايتها السياسية في هيئة الامم ، نراها مضطرة للتآخي مع قسم من دول الكتلة الآسيوية الافريقية ، وهو ما يضطرها الى صيغة التوصيات والقرارات بشكل معتدل يقبله هذا القسم ، وهذا ما وقع حين وضع قرار هيئة الامم الخاص بهنغاريا .

اما ازدياد قوة الكتلة الآسيوية الافريقية في الهيئة ، فهو يعني ازدياد قوتها في دعم الحركة المناوئة للسياسة الاستعمارية ، ما دامت الدول الاسكندنافية ودول المعسكر الشرقي والقسم الاكبر من دول امريكا اللاتينية تشارك الكتلة الآسيوية الافريقية شعورها المناهض للاستعمار ، اذ يجب ان

لا ننسى ان عناصر وجود الكتلة الآسيوية الافريقية تعود الى العديد من قضايا المستعمرات التي بحثت في نطاق الهيئة ، فكان يقف اعضاؤها ضد الدول الاستعمارية التقليدية ، بعد ان عرفت آسيا وافريقيا اذى هذه الدول الاستعمارية بشكل بالغ في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وكان هذا الشعور الشامل جامعاً لأهدافها وغاياتها .

ولئن يحسب المعسكران الغربي والشرقي حساباً لوجودها واتساعها ونشأتها ، فلأن الكتلة تمثل الاكثرية المطلقة لشعوب الارض والهند واندونيسيا وعدد نفوسهما يقرب من نصف مليار نسمة ـ تشكلان حجر الزاوية في هذه الكتلة المترامية الحدود ، وهاتان الدولتان يحسان الى حد بعيد ما هو الاستعمار وما هي فنونه وقد ذاقاه اربعة قرون ثم ان بعض الشخصيات الدولية القوية التي تدعم الكتلة كالباندنيت نهرو مثلاً ، قد فرضت على المعسكرين احترامها ، ونهرو هو من ألمع الشخصيات السياسية في العالم التي تتمتع باصغاء اقطاب المعسكرين الكبيرين على الاقل .

وكان أهم ما اعتقده المراقبون الدوليون ان العامل الديني يسود هذا التحالف الآسيوي الافريقي الكبير ، وان تآلف الدول الافريقية والآسيوية يقوم على رابطة الدين الاسلامي حتى ان بعض التصريحات الرسمية قد تضمنت لفظة (اسلامي) بدل (عربي) او (اسيوي) ويشاء هؤلاء ان يتجاهلوا ان لا صلة للسواد الاعظم في الهند بالدين الاسلامي ، وان الحبشة وبورما ترتبطان بصداقة وتاريخ الاسلام فقط ، وان كره الاستعمار عنصر اول في هذا التحالف الكبير .

الروح السياسية للكتلة الآسيوية الافريقية

واننا لنلاحظ من تتبع نشاط هيئة الامم ، انه قد أطيح نهائياً في توجيهات الهيئة وتوصياتها بالمصالح الاستعمارية ، وان الدول المستعمرة ستبقى في موقف صعب حتى تتم تصفية قضاياها المعلقة ... وقد يصعب على الدول

الاستعمارية ان تفهم التآخي الذي يجمع الهند وباكستان او افغانستان وباكستان في مثل هذه المواضيع ، بينما تثور بينهم مشاكل لا حد لها حول بعض المصالح الاقليمية . ولكن الشعور العميق الذي يلازم الآسيويين في كره الاستعمار يعلل هذا التآخي الذي تعجب له الاوساط الاستعمارية الغربية .

وقد تبلغ فعالية الكتلة الآسيوية الافريقية في هيئة الامم ، انها قادرة على رفض أي قرار لا يناسبها ، وهذا يعني انها تملك عملياً نوعاً من انواع حق الفيتو في الهيئة العامة على مستوى أقوى مما تملكه الدول الكبرى الخمس من الأمن ، فأصواتها بالاضافة الى اصوات دول الكتلة السوفياتية تفوق الثلث وهو ما يكفي لرد كافة التوصيات التي لا توافق عليها .

ولئن تعددت دول الكتلة الافريقية الآسيوية ، فقد توازعت العمل في هيئة الامم بتناسق بعيد ، فهي تتقاسم تقديم الحجج والبراهين والادلة في كل شكوى ، فلا نرى اي ترداد في خطب مندوبي دول الكتلة ، بل اختص كل منهم بناحية يوليها عنايته وتحليله ، ومثل هذا التنظيم اثار اعجاب كافة المعلقين في أروقة هيئة الامم ، واصبحت دوائر المعسكر الغربي ترى ان لهذا الواقع الدولي حساباً في كافة المشاريع والترتيبات الغربية فيما يخص الشرق الاوسط وآسيا .

أثر الكتلة الآسيوية الافريقية في السياسة الامريكية

لم يغب عن الدوائر السياسية الدولية اثر هذا التطور الخطر على سيادة الولايات المتحدة في المنظمة العالمية ، ولذا شاهدت هيئة الامم نشاطاً بعيداً مباشراً وصل ما بين الوفد الامريكي فيها ووفود الكتلة اللاتينية ، وقد اصبح وفد الولايات المتحدة على اتصال دائم بمندوبي امريكا الجنوبية يباحثهم خلال اجتماعات غير رسمية بكافة القضايا المطروحة على بساط البحث ، ولا تخل هذه الاتصالات من توجيهات سياسية غايتها اقصاء كتلة امريكا اللاتينية عن كتلة الدول الآسيوية الافريقية ما امكن .

ويمكن تلخيص موقف الولايات المتحدة الرسمي من الكتلة الآسيوية الافريقية بأنه موقف حذر لا ينطوي على شيء من الترحيب .

وإذا عدنا الى دور هذا الحلف الآسيوي الافريقي في اتجاهات السياسة الامريكية في آسيا ، نجد ان واشنطن قد وجدت في هذا التطور العالمي حقيقة مرة ، وهي تعمل على تكييف مقتضيات سياستها معها .

وقد تساءلت صحيفة « كريستيان سيانس مونيتور » الصادرة في بوسطن والتي تعتبر اقوى صحيفة امريكية في بحث الشؤون العالمية ، عما اذا كانت الكتلة الآسيوية الافريقية قد اساءت كثيراً الى المخططات السياسية العديدة التي تضعها وزارة الخارجية الامريكية للشرق الاوسط .

والتضارب بين التأثير الاوروبي والتأثير الآسيوي الافريقي على السياسة الامريكية معلومة منذ عام ١٩٥٢ ... والدول الاوروبية في هيئة الامم تشعر ان الكتلة الآسيوية الافريقية تلعب دوراً خطراً ، وانها تستخلص منها الدور التوجيهي الذي تمتعت به دائماً ، ولذا فان نشاط هذه الكتلة الجديدة معرض لعرقلة منظمة شديدة من الدول الاوروبية التي لا ترضى بمثل هذا النمو الآسيوي الافريقي الايجابي القوي ... وتعمل هذه الدول الاوروبية الغربية على اتهام الكتلة الآسيوية الافريقية بالتعصب الأعمى ، وليس لنا إلا ان نقرأ تعليقات الصحف الاوروبية الغربية لنقف على ذلك .

وقد رأت جريدة لوموند الفرنسية في هذه الكتلة عند انطلاقها عام ١٩٥٢ « طابعاً أعمى يقوم على الدين » .

وتتحدث صحيفة « لوبوبل » ـ الشعب ـ البلجيكية عن الكتلة انها « عنصر شيوعي تستفيد منه الكتلة السوفياتية » .

والديلي تلغراف البريطانية ترى ان « الكتلة الآسيوية الافريقية تعمل على انضاج الطعام الروسي ، ومن خلال هذه الصور الخادعة التي تفتقر الى كثير من الحقيقة ، تفهم الشعوب الاوروبية الكتلة الآسيوية الافريقية التي جمعها حب الحرية وسعادة الانسان الضعيف » .

وإذا عدنا الى اثر الكتلة الآسيوية في السياسة الاوروبية ، وجدنا ان الدول الاوروبية تستقبل هذا النشاط الآسيوي الافريقي بكثير من التأفف ، وهي تعلم ان اتجاه العالم للواقع الآسيوي والواقع الافريقي يخفف كثيراً من حدة اهتمامه بالواقع الاوروبي . ومثل هذا النشاط يجعل آسيا واوروبا وافريقيا على صعيد واحد في مجرى الحوادث الدولية ازاء البيت الابيض . وهذا ما شاهدنا تتابع حلقاته منذ اتجاه عبدالناصر في سياسة دولية تحريرية خاصة ..

فتطلع سياسة واشنطن كثيراً نحو آسيا وافريقيا يخفف من اعتنائها بالتطورات الاوروبية ، الكتلة الآسيوية الافريقية تعمل الآن على اخذ ما اختصت به القارة الاوروبية من توجيه اولي وتحكم استئثاري خلال اربعة قرون على مسرح السياسة العالمية .

فالكتلة الجديدة الكبرى تود ان تبرهن ان القسم الآسيوي الافريقي في العالم لم يعد بقرة حلوب كما ارادته الدول الاوروبية حتى الشطر الاول من القرن الحالي ، ولذا فان سياسة الكتلة ترمى الى نبذ التدخل الاوروبي او الاميركي مهما تعددت اشكاله .

وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة ما زالت تتمتع بنفوذ كبير في هيئة الامم ، الا ان التكتل الذي يقسم اعضاء المنظمة قد اضعف هذا النفوذ وهذه المراقبة العالمية على احداث العالم .

وقد اتضح من الدورة الاخيرة لهيئة الامم التي عالجت خلالها الكثير من احداث الشرق الاوسط فيما يعود لمصر وفلسطين ، انه قد يكون من الصعب على الولايات المتحدة في أيام الازمات الحصول على اكثرية في هيئة الامم تقف الى جانبها . وحتى في قضية هنغاريا ، فقد رفضت عشر دول آسيوية افريقية مجاملتها في قبول التوصيات والقرارات المقترحة .

موقف الاتحاد السوفياتي من الكتلة الآسيوية الافريقية

اما اذا استعرضنا موقف الاتحاد السوفياتي وكتلته من هذا التطور

الدولي ، وجدنا ان سياسة الكرملين إزاء الكتلة الآسيوية العربية قد لاقت كثيراً من التبدل .

ففي المرحلة الاولى لانطلاق الكتلة كان الاتحاد السوفياتي ازاؤها سلبي اكثر منه ايجابي ، وعلى الرغم من ان الديبلوماسية الروسية قد أيدت الكتلة الكبرى في اكثر المشاكل التي تقدمت بها الى هيئة الامم ، فلقد كانت تعارض اتجاه الدول الآسيوية العربية الدولي خلال حكم ستالين .

ففي القضية الكورية سلكت الكتلة الروسية سياسة مناهضة للدول الآسيوية ورفضت شتى متقدماتها ، ونعتتها بأنها تعمل في خدمة الاستعمار الامريكي .

وقامت الصحف الروسية الكبرى بحملة شديدة عليها في ذلك الوقت وكانت قد كتبت « البرافدا » الصحيفة الرسمية السوفياتية ان الكتلة العربية الآسيوية تساير الاستعمار الامريكي ..

وعلقت مجلة « نيوز » الصادرة في موسكو باللغة الانكليزية على نشاط الكتلة في اول عهدها فوجدت انها لا تعمل للشعوب الآسيوية التي ترزح تحت نير الاستعمار ، ويصح ان نردد ما اشار اليه بعض المعلقين الدوليين إبان الحكم الستاليني ، من ان الاتحاد السوفياتي الذي يود ان يكون « السيد الموجه في آسيا » لا يرحب كثيراً بكتلة جديدة لها سياستها الآسيوية التحريرية الخاصة .

وكان ان قضى ستالين نحبه وتغير تكتيك الاتحاد السوفياتي في السياسة الدولية ، واصبح على العكس يغذي الكتلة الآسيوية الافريقية بالنشاط والتأييد ويدعم سياستها في الحياد الدولي ، ويؤيد اتجاهاتها في مصارعة السياسة الاستعمارية الغربية في العالم .

الكتلة الآسيوية الافريقية بين هيئة الامم ومؤتمر باندونغ

والكتلة الآسيوية الافريقية تعني في الواقع كتلة مؤتمر باندونغ ، وجل

اعضاء هذا المؤتمر قد اصبحوا الآن في عداد المنظمة العالمية ، واكثرهم يعمل بوحي روح مؤتمر باندونغ ، هذه الروح التي تنقم على كل ما يعود للفكرة الاستعمارية الغربية ، والتي تعتقد ان العالم قد هضم حقوق آسيا وافريقيا ، وانه ما زال يعمل على استغلال هاتين القارتين دون ان يقدم لها ما يعوض هذا الاستغلال المزمن الذي يعود الى اربعة قرون .

ومما لا شك فيه ان الكتلة الآسيوية الافريقية قد تمت في هيئة الامم قبل مؤتمر باندونغ ، وانها كانت النواة الحقيقية للمؤتمر الذي جاء فيما بعد ليوطد أسس كيانها ونفوذها وسياستها كهيئة عالمية تقع بين الشرق والغرب طالما اطلق عليها المعلقون الدوليون القوة الثالثة او المعسكر الثالث او الكتلة المحايدة .

عناصر التنافس في الكتلة الآسيوية الافريقية

وثمة أهمية تختص بها هذه الكتلة الدولية ، هي وجود بعض التناقضات فيها ، مما لم يسجل مثيله تاريخ المخالفات ، فالخلاف بين باكستان والهند على قضية كشمير ما زال في الاوج ، والنزاع بين باكستان وافغانستان على مناطق الحدود مستعر الرحى ، والعراق يختلف مع شقيقاته الدول العربية في اتجاه السياسة الدولية بالنسبة للشرق والغرب ، وليس من تآزر كلي يجمع اليابان وجاراته في سياسة الشرق الاقصى ، وبالرغم من كل هذا فان كافة هذه الدول تعمل في نطاق واحد لاهداف واحدة تعود الى الشعوب العربية بصورة خاصة ، مما دعا معلق صحيفة « الواشنطن بوست » الى التساؤل عما اذا كان التحالف العفوي يعود الى ظفر سياسي ديبلوماسي عربي في اجتذاب دول متنافرة فيما بينها ، لتتفق على العمل معاً لصالح القضايا الآسيوية الافريقية وجل هذه القضايا هي عربية حتى الآن .

وكان مما قاله الدكتور شارل مالك وزير خارجية لبنان امام الجمعية العمومية للامم المتحدة في شباط الماضي ، انه ربما كانت الدول العربية مختلفة

على مواضيع معينة في السياسة الدولية ، الا انها متفقة كل الاتفاق على طلب جلاء اسرائيل عن اراضي مصر وقطاع غزة .

وعلى الرغم من تجاوب خاص لدى اعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية في كل ما يعود لآسيا وافريقيا ... فان بعض اعضاء هذه الكتلة يبقون في أكثر القضايا التي تتعلق مباشرة بنظام المعسكرين الشرقي والغربي الى جانب الدول الغربية كالفيليبين وتركيا وباكستان والتايلاند .

واليابان ما زالت في سياستها اقرب الى الولايات المتحدة ، وسيلان والهند وباكستان دول ما زالت في مجموعة الكومنولث البريطاني ، ولاوس ما زالت تنظر الى فرنسا في سياستها الخارجية .

ان هذا التناقض الداخلي في الكتلة الآسيوية الافريقية قد جعل بعض الأوساط الغربية تتأمل بعض التصدع في هذه القوة النامية ... وفي مناقشة القضية الهنغارية في هيئة الامم وجدنا انقساماً واضحاً في اتجاهات الكتلة ... فلقد صوت اكثر من نصف اعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية الى جانب المعسكر الغربي في استنكار التدخل الروسي .

ويرى المستر هاملتون المختص بشؤون هيئة الامم في صحيفة النيويورك تايمس : ان « الخلافات الداخلية التي تكمن في الكتلة الآسيوية الافريقية تفسر عجز الكتلة عن تقديم برامج ايجابية واضحة ، وقبول حين تناقش هيئة الامم القضايا ذات الطابع غير الاستعماري ... اذ ان تاريخ العرب الاستعماري في افريقيا وآسيا هو الرابطة التي تقوم عليها الكتلة الآسيوية الافريقية .

ويبدو لنا بوضوح بعض اشكال التفكك في هذه الكتلة اذا ما عدنا الى موقفها في قضية قبول الصين الشعبية في هيئة الامم .

وحتى الآن ... لم يعترف بالصين الشعبية سوى ثمانية وعشرين دولة من اعضاء هيئة الامم ، وهذا ما يجعل أمر قبولها ضعيفاً ... ما دامت الولايات المتحدة تعارض في ذلك .

فأصوات امريكا اللاتينية التي توجهم الولايات واصوات دول حلف الأطلسي كافية لمنع قبول الصين الشعبية وان حصلت هذه على تأييد الكتلة الآسيوية الافريقية والكتلة السوفياتية .

ففي الشروط الحالية ، ليس من أهمية قصوى للكتلة الآسيوية الافريقية في فرض قبول الصين الشعبية ، بل على العكس فان هذه الكتلة تحمل الى الموضوع بعض الضعف ما دامت بعض الدول الآسيوية تعارض في هـــذا القبول ازضاء للسياسة الامريكية كالعراق وايران مثلاً ...

وبأية حال فان الممانعة في دخول الصين الشعبية هيئة الامم ، تدبير ديبلوماسي امريكي يزداد الاشمئزاز منه في المنظمة العالمية باستمرار .

وفي كل عام يحاول فيه الاتحاد السوفياتي عرض القضية ، نلاحظ ان الأصوات التي ترتفع لتؤيد قبول دخول الصين الشعبية تزداد بتتابع ، وقد لا يأتي العام المقبل الا وتحتل الصين الشعبية مقعدها الشرعي في مجلس الامن وفي هيئة الامم ، وعندها تجابه الولايات المتحدة على الصعيد الدولي العـالمي اشتداداً في مقاومة سياستها وايحاءاتها التقليدية في اروقة الندوة العالمية .

وترى بعض الاوساط الديبلوماسية المطلعة ان الهند خاطئة في الدعوة بالحاح لقبول الصين الشعبية ، اذ انه على حـــد زعمها ، ستحتل الجمهورية الصينية الزعامة المعنوية والمادية للكتلة الآسيوية الافريقية بدل الهند التي تحمل الصدارة الآن في الكتلة المذكورة .

ولعل الخطأ يكتنف هذا الرأي إذا علمنا ان حياد الهنـــد بالنسبة للمعسكرين هو الأصل في مركزها الدولي الهام ، في حين ان الصين الشعبية دولة غير حيادية تعود الى المعسكر الشرقي ، وهو ما يجعلها بعيدة عن الدور الذي تقوم به الهند .

عناصر القوة وعناصر الضعف في الكتلة الآسيوية الافريقية

تطوي الكتلة الآسيوية الافريقية في جوانبها عناصر قوة وعنـاصر

ضعف ... والقوة فيها ان لا بدَّ من الاعتماد على اصواتها في هيئة الامم لتقرير كافة المشاريع ، والضعف فيها ان اصواتها لا تكفِ لانهاء اي بحث تريده ، ولا بدَّ لها من التحالف مع الكتل الاخرى لادراك اي نجاح .

ودور الولايات المتحدة في اظهار هذه القوة ذا اهمية خاصة ، اذ ان تأييد الولايات المتحدة لما تريده الكتلة الآسيوية الافريقية يعني تأييد بعض دول اميركا اللاتينية وبعض دول حلف الاطلسي وهي ما يكفي لنجاح أي مشروع او اقتراح تتقدم به الكتلة الآسيوية الافريقية ... واذا ما تراجعت الولايات المتحدة عن هذا التأييد ، لا تتمكن الكتلة الآسيوية الافريقية من احراز اي نصر ديبلوماسي اذا لم تلق دعم ما لا يقل عن عشر دول من الكتل الاخرى التابعة للمعسكر الغربي ...

على انه بأية حال ، باستطاعة الكتلة الآسيوية الافريقية عرقلة قبول ما لا تريده ان يقع .

وقد قدمت اعمال هيئة الأمم في السنوات الست الأخيرة التي رافقت نشوء وتطور الكتلة الآسيوية الافريقية الكثير من المشاكل الدولية وارتبطت هذه القضايا العالمية بالكثير من اتجاهات الكتلة الآسيوية الافريقية .

أعمال الكتلة الآسيوية الافريقية في هيئة الامم

لقد بدأت الكتلة الآسيوية الافريقية اعمالها من خلال عرض قضيتي تونس ومراكش على هيئة الامم في عام ١٩٥١ ، وكان بحث القضيتين في كل دورة من دورات الهيئة يكسب المزيد من التوصيات والتوجيهات التي تريدها الكتلة القوية ، حتى اذعنت فرنسا امام واقع الامر ، ونالت تونس ومراكش استقلالهما عام ١٩٥٦ وفقاً لارادة الكتلة الآسيوية الافريقية.

اما في القضية الفلسطينية ، فلقد توفق العرب منذ قيام الكتلة الآسيوية الافريقية الى منع اصدار أي قرار او توصية لا يقع في صالح القضية العربية في فلسطين ...

ولو ان الكتلة هذه قد وجدت في عام ١٩٤٧ لما صدر قرار التقسيم اصلاً ولبقيت فلسطين في وضع سياسي احسن مما هي عليه الآن بكثير .

وفي دورة عام ١٩٥٢ قدم وفد الفيليبين خدمة للدول العربية من خلال لعبته البارعة التي قام بها في الجلسة العامة لهيئة الامم ، حينما اراد انصار اسرائيل التصديق على قرار يطوي تجاهل كافة التوصيات السابقة الخاصة بفلسطين ، فلقد اتاح قرار قدمه الفيليبين، احد اعضاء الكتلة، ورفضه انصار اسرائيل ان يبعد التصديق على أي قرار يذهب بالمشاريع الخاصة بالتعويضات واللاجئين ، واستطاع مندوب الفيليبين ان يبرهن ان اسرائيل غير صادقة النية في كافة وجوه القضية ، وهذا ما دعا بعض الدول الحيادية لتغيير موقفها والتصويت الى جانب الدول العربية .

وتبين لنا قوة الكتله الآسيوية الافريقية اثناء مناقشة قضية العدوان المثلث على مصر ، واستطعنا ان نستخلص ان للكتلة المذكورة كل السلطة في دعم مشيئتها وارادتها ، وقد فرضت الحلول على دول العدوان المثلث على مصر وكانت في كل مرة تتقدم فيها بمشروع قرار تلقى اجماعاً من الدول الأعضاء على تأييدها ، وكانت قضية القنال اهم ما صادفته الكتلة الآسيوية الافريقية من قضايا عالمية ، واستطاعت ان تثبت ان لها الدور الاول في توجيه أعمال الهيئة وفق مبادىء العدل والانصاف .

واختلف الوضع كثيراً إبان عرض القضية الهنغارية ، ورأينا عناصر التناقض والضعف واضحة في صفوف الكتلة الآسيوية الافريقية خلال مناقشة التدخل الروسي في هنغاريا ... وانقسمت الكتلة المذكورة في قسم يتألف من احدى عشر دولة ، رأى الحياد أفضل اتجاه في هذا النزاع فامتنع عن التصويت على كافة القرارات التي تتعلق بالموضوع ، ومن هذا القسم الهند ومصر واكثر البلاد العربية .

وقسم ثان لم يتردد ان يظهر عداءه للاتحاد السوفياتي في مناسبات عديدة ، وقد صوت مؤيداً لقرار استنكار التدخل الروسي . ومن هذا

القسم بورما وسيلان وهما دولتان اوضحتا في مناسبات عـديدة حيادهما بين المعسكرين ، كما امتنع عن تأييد الاتحاد السوفياتي في سياسته في هنغاريا العدد الاكبر من دول الكتلة الآسيوية الافريقية .

واذا كانت بعض دول الكتلة الآسيوية الافريقية تعلن قبولها لسياسة الكتلة الغربية واتجاهات السياسة الامريكية كالعراق وباكستان والفيليبين ، فان البعض الآخر يميل الى مسالمة روسيا والابتعاد عن اغضابها ، بل السعي نحو كسب صداقتها كافغانستان مثلاً .

وفي بحث قضية قبرص والجزائر في الدورة الأخيرة لهيئة الامم ، تجلت لنا قوة وضعف الكتلة الآسيوية الافريقية في آن واحد ، ففي الوقت الذي تمكنت فيه الكتلة رد مشروع فرنسي بريطاني ، فانها لم تتمكن من فرض مشروعها الخاص مما دعاها الى تقديم مشروع شكلي غامض لا يحمل بريطانيا وفرنسا اي إلزام الا ان بحث المشكلة الجزائرية قد شمل كافـــة نواحي الموضوع ، على الرغم من ان فرنسا قد عارضت مثل هذا البحث بحجة انه ليس من اختصاص المنظمة العالمية ... ولئن بحث الجزائر قراراً توجيهياً بسيطـــاً ليس له اي مفعول عمـــلي ، فان توارد البحث في كل عام لا بد وان يؤدي الى نتيجة عملية مفيدة للجزائر على نحو ما تم من خلال بحث قضية مراكش وتونس .

وكان المظهر الأخير لصلابة موقف الكتلة الآسيوية الافريقية ، هو نجاحها في فرض انسحاب اسرائيل من غزة وخليـج العقبة وتهديدها المنظم بالمصادقة على قرار يفرض العقوبات الاقتصادية على اسرائيل ...

وعلى الرغم من ان بعض الاحراج السياسي للولايات المتحدة قد لازم هذا التهديد ، فان الكتلة كانت قادرة على بحث مشروع العقوبات وتصديقه ، وكان شعور اسرائيل بنجاح الكتلة الآسيوية الافريقية المرتقب سبباً دفعها على الرغم منها لأن توافق على توصيات الهيئة العامة وتنسحب من قطاع غزة ومن خليـج العقبة .

وهكذا نرى ان قوة الكتلة الآسيوية الافريقية تظهر جلياً في بحث شتى القضايا التي تخص الاستعمار ومفهوم الاستعمار ، وان ضعف الكتل الآسيوية الافريقية يظهر جلياً واضحاً في بحث شتى القضايا التي تخص خلاف المعسكرين الكبيرين والتي تتعرض للمذاهب الاجتماعية والمبادىء السياسية .

دور الكتلة الآسيوية الافريقية في السياسة الدولية

من هذا العرض التحليلي الواسع ، ندرك الدور الدولي الذي تختص به الكتلة الآسيوية الافريقية في هيئة الامم والعالم ... والكتلة التي تضم اكثر شعوب الارض قد شقت طريقها للحياة بصعوبة .

وكان كلما اتسع دورها العالمي في طورها الأول ... اشتدت مقاومة الكتلة الغربية والكتلة الشرقية لها ، وفي المرحلة الاولى لتكونها ... خشيها المعسكر الغربي وخشي اتساع نفوذها ... واضطرب لها المعسكر الشرقي وقد تصورها اداة الاستعمار الغربي وكان ذلك في العهد الستاليني .

وكانت الفعالية التي قدمتها الكتلة الآسيوية الافريقية في مجال السياسة العالمية خلال السنتين الاولى والثانية من حياتها ... صورة هزيلة لمولود جديد يشق لنفسه الحياة بصعوبة امام تيارين متعاكسين وراءه ولكن متفقين على مزاحمته وتبديد حياته في وقت مبكر ... وكانت الاحلاف نمو واتساع نفوذ الكتلة الآسيوية الافريقية .

وعلى الرغم من قوة المعاكسة في بدء نشوئها ، فلقد بدأت الكتلتين العالميتين ترسمان الخطط وتضعان المشاريع الدولية تبعاً لمفهوم آسيوي جديد وذلك منذ عام ١٩٥٣ .

وكان ان اتضح للمعسكر السوفياتي ان الكتلة الآسيوية الافريقية لا تعمل بوحي الدول الاستعمارية كما خيل له في بادىء الأمر ، بل انها كتلة تسعى ان تثبت حيادها امام كلا المعسكرين ، وان تثبت نفوذها امام شطط الدول الاستعمارية ، وعندها توقفت الكتلة السوفياتية عن معاكسة نموها ، بل

على العكس ، وجدنا من سياسة الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة ، ما يساعد على توطيد دعائم الكتلة الآسيوية ، الافريقية في مجال السياسة العالمية ، وكان ذلك بعد وفاة ستالين وبعد التحول المعروف في التكتيك الروسي في مضمار السياسة العالمية .

اما الولايات المتحدة الاميركية فقد توقفت عن معاكسة نشوء ونمو الكتلة الآسيوية الافريقية منذ عام ١٩٥٤ حين ادركت انه تطور دولي لا بد منه وعندها سعت كثيراً ان تنفذ الى سياسة الكتلة وتصديعها من خلال الاحلاف العسكرية .

ومن طرف آخر فقد سعت الى مؤاخاتها ومجاراتها في كثير من القضايا الدولية ، وعلى الاخص في قضية قنال السويس وانسحاب اسرائيل من قطاع غزة وخليج العقبة .

واهم ما يمكن ان نستخلصه من اهمية الكتلة الآسيوية الافريقية في مجال الاندية الدولية وفي مجال السياسة العالمية ان نجاحها في اصدار قرارات وقف القتال في منطقة القنال وسيناء ، ثم قرارات الانسحاب من القنال وغزة وخليج العقبة يعني انه بامكان مجموعة الدول الصغرى ، وبالتالي بامكان هيئة الأمم المتحدة ان تفرض ارادتها على الدول الكبرى في العالم .

حلول غربية للحد من أهمية الكتلة الآسيوية الافريقية

أمام هذه القوة المتزايدة التي انفردت بها الكتلة الآسيوية الافريقية ، وامام افلتت هيئة الأمم المتحدة من التوجيه الامريكي التقليدي الذي عرفنا في الخمس سنين الأول للمنظمة العالمية ... تزداد المحاولات الآن لتغيير النظام الداخلي للندوة العالمية ولتعديل قانون التصويت الحالي الذي يجعل صوت ليبريا مثلاً يعادل في فعاليته صوت الولايات المتحدة او صوت الاتحاد السوفياتي ...

وقد اتضح من معالجة مشاكل الشرق الاوسط اخيراً في هيئة الامم

ان نظام التصويت الحالي قد قضى على نفوذ الدول الكبرى في المنظمة ونقل هذا النفوذ الى الكتل المختلفة في المنظمة .. فبعد ان كان الاتجاه الاول يحدو نحو الدول الكبرى وهم خمس ، اصبح الاتجاه عملياً يحدو نحو الكتل الكبرى في الهيئة وهم خمس ايضاً : الكتلة الآسيوية الافريقية وهي اهم الكتل، الكتلة الاميركية وعلى رأسها الولايات المتحدة ، الكتلة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، كتلة اوروبا الغربية وهي كتلة حلف الاطلسي ، وأخيراً اسكندنافية التي تنتقل بأصواتها من مجموعة الى اخرى وفق التيارات السياسية الخاصة .

وقد أعلنت الدوائر الرسمية البريطانية ان نظام التصويت حالياً في الهيئة العامة لمنظمة الامم هو غير واقعي وغير حقيقي ، لانه على حد زعمها لا يعكس توزع القوى والمسؤوليات في العالم .

وكان المستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة قد وضع كتاباً في عام ١٩٥٠ تحت عنوان « حرب او سلام » تناول فيه شتى مواضيع الساعة في حقل السياسة العالمية .

وقد اعيد طبع الكتاب في هذا العام بعدة لغات ، فكتب المستر دالاس مقدمة جديدة للطبعة الجديدة ، وفيها أشار الوزير الاميركي باسهاب الى اقتراح له بدعوة خاصة لهيئة الامم المتحدة تناقش فيها ميثاقها بحيث تصبح المنظمة اكثر فعالية في خدمة السلام العالمي .

وقد ذكر المستر دالاس قارئيه ، انه في عام ١٩٥٠ كان قد دعي الى نظام تصويت يتناسب مع اهمية الدول الاعضاء ...

وقد رأى ان دعوته قد زادت اهمية بعد ان ازداد عدد اعضاء هيئة الامم واتضح بجلاء ـ على حد قوله ـ « عدم ملاءمة وسائل التصويت في الهيئة العامة وفي مجلس الامن » .

الا ان المستر دالاس لم يوضح في مقدمة كتابه ، الحل الذي يرتأيه

للمشكلة التي يعتقد انها موجودة، وهي ان الصوت الواحد للدولة الكبيرة لا يتناسب مع نفوذها ومسؤولياتها بل يريد لها اكثر من صوت.

هذه هي الحقيقة الدولية التي تقدمها الكتلة الآسيوية الافريقية في المضمار العالمي، وعلى الرغم من ان قوتها المادية اذا ما قورنت بالكتلة الغربية او الكتلة الشرقية لا تساوي شيئاً كثيراً، الا ان قوتها المعنوية والادبية قد فرضت على المعسكرين الاهتمام والاحترام ... ولم يتنفس العالم الصعداء من حمى الحرب الباردة الا حين انطلقت الكتلة الآسيوية الافريقية في المجال الدولي تتوسط صراع الكتلتين العالميتين الكبيرتين ... وكان موقفها الوسط بمثابة عازل يمنع الاحتكاك وبالتالي يحول دون الحرب.

الدكتور منذر الدقاق

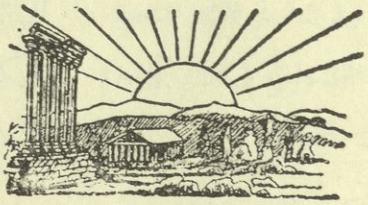

الفهرس

الصفحة		
	المقدّمة	
١	المسرح الحديث	للدكتور محمد مندور
١٩	فكرة العرب عن الجغرافية	للدكتور محمد محمود الصيّاد
٤٧	التجديد الفكري في العالم العربي في القرن التاسع عشر	للدكتور محمد أحمد خلف الله
٧٠	بين المعري وطه حسين وأثر المرأة في كلٍّ منهما	للسيدة وداد سكاكيني
٩٩	نظرية السبب في الفقه القانوني وموقف قانوننا المدني منها	للدكتور الشيخ مصطفى الزرقا
١٣٧	في المغرب الاقصى	للدكتور سامي الدهان
١٦٥	الجزائر وفرنسة في الامم المتحدة	للدكتور محمد اسعد طلس
١٨٣	القضية الفلسطينية في الامم المتحدة	للدكتور محمد اسعد طلس
٢٠٣	ملكوت الانسان	للأستاذ ميخائيل نعيمة
٢١٧	اهمية الكتلة الاسيوية الافريقية في هيئة الامم المتحدة	للدكتور منذر الدقاق
٢٤١	الفهرس	

مطبعة الضاد - حلب

الجميلية - شارع الفارابي

الهاتف : ١١٢٨٦

DATE DUE

حلب. دار الكتب الوطنية
المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢-١٩٥٧
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039033

089.927
D213mA
1957
C.1